

دكتور حسين مؤنس

الإسلام في عشرين آية



الإسلام في عشرين آية

دكتور حسين مؤنس



الإسلام في عشرين آية

الناشر : دار الرشاد
العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ١٩٩٣/٧٢٤٨
الترقيم الدولى : 8 - 60 - 5324 - 977
الطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ١٠،٧ ش السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣
الجمبع : أمص الكمبيوتر
العنوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف مجلس الأمة
تليفون : ٧٩٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
الطبعة الثانية : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م
الطبعة الثالثة : ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م
الطبعة الرابعة : ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م
غلاف : عربية للطباعة والنشر

تقديم

هذا أسلوب جديد في فهم الإسلام أقدمه للقارىء ، فقد رأيت أننا نكتب كثيراً جداً عن الإسلام ، ولكن كتابتنا التقليدية مملة ، والكثير منها لا يعتمد الاعتماد الكافي على القرآن الكريم ، فاخترت عشرين آية من القرآن وفصلت الكلام عنها ، واجتهدت في أن أجعل في كلامي خصائص هذا الدين العظيم ، وسترى أنني أبسط لك من جمال الإسلام ، وأؤيد ما أقول بالآيات القرآنية فيكون لكلامى فيما أرجو طعم جديد ، وصورة أدبية فنية ممتازة ، وأرجو أن أوفق إلى كسب رضى القارىء عن هذا الأسلوب الجديد .

د . حسين مؤنس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ،
قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ،
وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ،
فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[البقرة : الآيات ٣٠ - ٣٤]

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه والمبلغ إلى الناس بلفظه وحرفه ، لأنه
منهاج الله الذي رسمه للبشر ، وأمرهم أن يتبعوه . وكل آية من آيات الكتاب
المبين تحمل جانباً من المنهج ، وترسم للبشر قطعة من الصراط المستقيم ، وتبين
لهم شيئاً من مرادات الله من خلقه ، وفي أثناء قراءتي لكتاب الله وإنصاتي إليه
يوماً بعد يوم دونت الكثير من الآيات التي لا يتبين لنا كل ما تتضمنه من التشريع
والحكمة إلا إذا قرأناها مرة بعد أخرى ، وتدبرناها حيناً بعد حين ، وأنا هنا أختار
من هذه التدوينات ما أحسست أنها وما سبقها وتلاها وتغلق به معناها من آيات
الذكر الحكيم ، تجمع الأساس الذي لا بد من معرفته من عقيدة الإسلام وشريعته
وقانونه الأخلاقي ، وأنا أسوقها في هذا الكلام على حذر مني وخوف ، لأن من
بين قرائي دون شك من هو أعلم مني بكتاب الله وعلومه ، ولهذا فإنني أرجو
هذه الجماعة الكريمة من العلماء ألا يخلوا على بالتوجيه والتصويب ونصيحة
المسلم للمسلم التي جعلها رسولنا الأكرم صدقة .

الوقت ساعة الغروب ، ونحن على ضفة النيل جنوب القاهرة ، أحسست
أنني على حافة الأبد . تركت صبحي خلفي ومضيت في قارب صغير ، لأنني
أحسست أنني أريد أن أكون وحدي ساعة المعجزة الكبرى التي تتكرر يوماً بعد
يوم ، وتشغلنا عنها زحمة الحياة ، فتمر بنا دون أن ننتبه إلى روعة الإعجاز فيها ،
عندما يولج الله الليل في النهار ، هنا يتسع النيل حتى يصير بحراً . وأدع
المجداف ويثف يي القارب وسط النهر الكبير ، ولا أعود أسمع إلا حفيف الماء
الجاري .

أحسست بالصمت الرهيب ، لأنه بدا لي أن مياه النيل آن لها أن تسكن
لسترد أنفاسها بعد جرى النهار .

الظلام الآن يهبط ، ولا أعود أرى إلا أطراف أعواد نبات أخرجت رؤوسها فوق الماء طلباً للنسيم . صفحة الماء الصافية كأنها مرآة ، والسكون من حولي شامل ، أضواء الضئفة الأخرى تختفي ، وفي صفحة الماء أرى نجوم السماء تطلع واحدة ثم اثنتان ثم عشر . وأرفع رأسي فإذا قبة السماء تتلألأ بألوان بعد آلاف من النجوم ، من بعيد أسمع صوت صرار الليل ، لقد نامت البرية وأن له أن يصحو ، فإن نهاره هو الليل ، وهذه دورة الحياة : مخلوقات تنام ومخلوقات تصحو ، والكون لا ينام أبداً ، لقد صحا الصرار لأنه اطمأن على نفسه ، فقد نام أعداؤه ، وهذا هو ينادى وليفته ، وهاهي ذى تحيب ، هكذا تتم دورة الحياة كما أرادها علام الغيوب أن تكون .

الليل الآن شامل والكون لا تضيئه إلا النجوم ، ملايين من العيون تنظر إلينا من بعيد ، هذه شمس ونجوم ومجرات لا يعلم بها إلا بارئها سبحانه ، عوالم تصغر إلى جانبها أرضنا هذه بكل ما فيها ومن فيها . .

في صمت الليل أسمع وجيب قلبي يقول : هذه أيها الغافل دنيا الله ، إنك الآن ترى جماها في أبهى صوره ، لأنك تحسها بقلبك ، ونبضات قلبك هذه تسيحات للخالق ، تلك هي سجاوات الله العلا ، أنشأها على هذا النمط الفريد ، ونجومها تترامى إلى آفاق يصعب عليك تصورها ، لأن عقلك الكليل عاجز عن أن يحيط بها ، الآن تدرك معنى قول خالقك جل وعلا في سورة البقرة : (٢ / ٢٥٥) آية الكرسي : **إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** .

أجل هذا هو عالم الله ، وأنت فيه لا شيء ، عوالم بعد عوالم ، خلقها الله وصورها في صور شتى لحكمة لا يعلمها سواه ، أرايت إلى رؤوس النبات هذه التي ترف من حولك ؟ إنها وحدها عالم شاسع فياض بالحياة والحركة ، وهي ثابتة في مكانها ، إنه عالم النبات والشجر والزهر والثمر ، وهذا الصرار الذي تسمع صوته من بعيد ، إنه عالم آخر ، عالم المخلوقات الدقيقة الضعيفة التي أودع الله فيها من الحيوية والقدرة على مغالبة الفناء ما يفوق قوة الغيل الهائل ، وسيأتي يوم لا تكون فيه الفيلة إلا في حدائق الحيوان ، أما هذه الحشرات الضعيفة فهي في زيادة ولا يغلبها من مخلوقات الله غالب ، والعلماء يقولون إنه سيجيء يوم لا يبقى فيه مما يدب على سطح الأرض إلا هذه الحشرات ، وأنت أيها الإنسان الضئيل تشكو منها وتسعى في إبادتها ، وهي أقوى منك وستعيش بعدك لحكمة لا تدركها أنت ، لقد خلقها الله كما برأ هذه المصاييح التي تزين السماء ، خلقها كما فطرك أنت ، كلكم عوالم أنشأها صاحبها ، ولكم في خلقها حكمة وعظمت . واستمع إلى قول الحق سبحانه في سورة ق :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ . وَالْأَرْضِ مَنَحْنَهَا وَقَلَّبْنَا فِيهَا رُوسِي . وَانْبَثْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . تَبْصِرَةٌ وَتُكْرِى لِكُلِّ عِبْدٍ مُّغِيبٍ . وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا . فَأَنْبَثْنَا بِهِ جَنَاتٍ وَحَبِّ الْحَصِيدِ . وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ . رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ . [الآيات : ٦ - ١١] .

صدقت يا بارئ الكون ، هذا هو قرآنك وذلك هو كونك ، والاثنان صنوان تلك هي دينك ودياننا وهذه هي حكمتك نراها في خلقك ، وتقرؤها في كتابك ، والاثنان في قلبي لتلتقيان .

وأنت - جللت - وعززت - القائل في سورتك . . سورة الرحمن :

﴿ وَالْأَرْضِ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ . فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ . وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

[الآيات : ١٠ - ١٣] .

ما أروع كلامك وما أبداع صنعك ، في كل معجزة من خلقك أحسن معجزة القرآن . وفي كل كلمة من قرآنك أرى كونك هذا البديع .

وما أعجب قرآنك !

إنه كتاب واحد ، ولكنه لمن تدبر إعجازه ألوف بعد ألوف - إلى منقطع النفس - من الكتب ، وأنت تتحدث فيه حديثاً عجباً .

فأنت تارة تتحدث فيه بذاتك الجليلة وكلماتك تتردد في كياني كله وأنت تخاطب نبيك موسى عليه السلام في سورة طه :

﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ .

[الآيات : ١٢ - ١٥]

وأنت تارة تتحدث عن نفسك بضمير الغائب :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَمِيرُ ﴾ . [الأنعام ٦ / ١٨]

وأحياناً أخرى تتحدث عن أنعمك علينا بضمير الجماعة :

﴿ أَهْمُ يَقْسَمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . [الزخرف ٤٣ / ٣٢] .

: وأحياناً بأمر نبيك أن يبلغنا حكمتك :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . [الزمر ٣٩ / ٥٣] .

وهنا في مجال أمر الرسول بأن يبلغ عن الله يجمع الله من آيات حكمته وتشريعه وهدهاء ما لم يجعله في مجال آخر ، لأن في ذلك تكريماً للرسول وطبيعة رسالته ، والرسول ﷺ بشر رفعه الله إلى مرتبة النبوة ثم مرتبة الرسالة ، وفي ذلك - من طرف آخر - تكريم للبشر لأنه يعنى أن المخلوق البشرى قادر - إذا شاء الله - أن يرتفع بنفسه عن مستوى البشرية فيكون أهلاً لأن يتلقى كلمات الله ويبلغها لإخوانه في البشرية ، وهذه مرتبة لم يرفع الله إليها شيئاً من مخلوقاته إلا الإنسان ؛ وهذه ميزة من ميزات الإسلام ، فإن حامل رسالته إلى الناس إنسان من البشر ، اختاره الله وهياه - في حدود إنسانيته دون غيرها ، ليصل إلى مستوى رسل الله ، في حين أن غيره من الأنبياء حملة الرسالات كان لابد أن يعينهم الله بقوة خارجة عن قوة البشر ، لكي يستطيعوا أداء رسالتهم ، وفي العادة يمنح الله الرسول جانباً من قدرته ليأتى بمعجزة يثبت للناس بها أنه حقاً مختار من الله لجمل رسالته إلى الناس ، كما ترى في حالات إبراهيم وموسى وعيسى ، ومن أبلغ أمثلة هذا في القرآن الكريم مثال إبراهيم عليه السلام الذي سأل الله سبحانه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فأراه الله كيف يحيى الموتى ، بل أراه كيف يعطيه جانباً من قدرته فيحيى هو الموتى بنفسه بأمر الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ . ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . [البقرة : ٢٠ / ٢٦٠] .

وكذلك عيسى بن مريم احتاج إلى مدد غير بشرى من الله سبحانه ليؤكد للناس أنه نبي مرسل من عند الله :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي خَلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأُفْخِفُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ . وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

[آل عمران ٤٩ / ٣] .

قارن بذلك مقال رسول الله محمد صلوات الله عليه الذى هبأه الله لإقناع الناس ببشريته وحدها ، أنه رسول الله الصادق فيما يبلغ عن الله ، مع تحدى المشركين إياه وإسرافهم فى هذا التحدى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُعمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَاءَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قُبَيْلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرؤه . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ .

[الإسراء ١٧ : ٩٣ / ٩٠] .

ذلك لأن معجزة محمد الكبرى هى القرآن الكريم ، فإن القرآن يحمل فى ذاته برهان صدقه وآلاء قوته وبراهين صدوره عن الله سبحانه ، إذ لا يتأتى صدوره عن غير الله ، لا من ناحية إعجاز أسلوبه وعجائب بلاغته وبيانه وروعة إنشائه وبنياته فحسب ، بل لأن آياته تحمل فى ذاتها براهين صدقه ، حتى إذا قرأها غير العربى الذى لا يقتدر على الاحساس ببلاغتها آمن بها إذا أراد الله له

الهدى ، واقرأ الآيات التالية لترى كيف أن آيات القرآن تحمل دلائل صدقها في كلماتها :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا . وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

[الأنعام ٦ : ١١١ / ١١٢]

فهذا كلام لا يصدر إلا عن إله عارف بطبائع البشر ، وبما جرى للأنبياء على أيدي الناس ، وهو مطلع على الغيب ، فهو يعرف أن القرآن والإسلام منصوران بفضل سبحانه دون حاجة إلى معجزات ، بل إن أعداء الأنبياء ينصرونهم بعنادهم دون أن يدروا ، لأن الناس لا يلبثون أن يروا أن كل عنادهم زخرف من القول وغرور لا يتحصل من ورائها شيء فإذا انتصر الإيمان في النهاية بان للناس صدق كلام الله فزادوا إيماناً ، والآيات القليلة من نفس السورة تؤيد ذلك بأجلى بيان :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . لَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

[الأنعام ٦ : ١١٤ - ١١٥]

وقول الله سبحانه هنا ﴿ وَتَمَعْتَ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ في وقت لم تكن كلمات الله - أى نص القرآن - قد تمت ، يدل على أن المتكلم وهو الله سبحانه يعرف أنها ستم ، لأنها تمت فعلاً قبل انتقال الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ولفظ « صِدْقًا » هنا يعنى أنها عندما تتم ستكون كلمات الله سبحانه بكل حرف فيها ، أما « عَدْلًا » فمعناها هنا بغيّة الدقة ، ولفظ العدل له معان شتى في القرآن الكريم ، لأن العدل بمعانيه المختلفة أساس من أسس أخلاقيات الإسلام ، فليس العدل في القرآن هو ضد الظلم في كل حالة ، بل من معانيه الضبط والإحكام ، ومثال ذلك العدل في قوله تعالى في آية الدين ﴿ وَلِيَكْتَبَ بَينَكُمُ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ فالمراد هنا فليكتب الكاتب ما يمل عليه بالضبط لأن المطلوب من الكاتب هو أن يكتب ما يمل عليه بالضبط ، لأن الكاتب ليس بقاض ولا هو طرف في القضية ، وكل المطلوب منه أن يكتب بالضبط وكما علمه الله أن يكتب ، والمسئولية كلها هنا تقع على الممل على الكاتب ، ولهذا فإن الله يقول بعد ذلك عن الممل ﴿ وَلَيَقِيقَ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى أن مسئولية مراعاة الله تقع كلها على الذى يمل لا على الذى يكتب ، لأن المطلوب ممن يكتب هو أن يكتب ما يمل عليه بالدقة الكاملة دون زيادة أو نقصان في حرف ، ودليل آخر على ذلك هو أن الله اشترط أن يكون هناك شهود ضمانةً للدقة ، ثم إن الله يقول بعد ذلك ﴿ وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ أى لا يؤذى الكاتب أو الشاهد على التزامه الدقة في الكتابة ، وربما عدنا بعد ذلك إلى الكلام على معانى العدل في القرآن ، لأنه كما ذكرنا ركن من أركان أخلاقيات الإسلام ، وهى مكارم الأخلاق .

ولنرجع إلى آيات سورة الأنعام التى ذكرناها :

﴿ أَغْفِرِ اللَّهُ أَنْبَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

المتمرين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لِكلماتِهِ وهو السميع العليم ﴿ .

[الأنعام / ٦ - ١١٤ - ١١٥]

ف نقول عن قوله سبحانه ﴿ لا مبدل لِكلماتِهِ وهو السميع العليم ﴾ إن التبديل الذى أصاب كلام الله تعالى فيما يتعلق بكتبه السابقة على القرآن الكريم حقيقة لا شك فيها ، ولا ينكرها العارفون بتواريخ الأديان السماوية الأخرى الذين يسميهم القرآن « أهل الكتاب » وليس من الضروري أن تكون هذه الكتب شبيهة بالقرآن الكريم فى هيئتها وصياغتها ، وإنما هى وحى من الله لنبهه ، وهذا الوحى فيه أصول الدين وعقيدته وشريعته ، وكان ينبغى أن يكتب النص ساعة وحيه كما حدث للقرآن . ولكن هذه الرسائل لم تدون ساعة وحيتها ، وإنما تلقاها أصحابها وبلغوها لأتباعهم ، وهؤلاء وعوها فى عقولهم دون أن يكتبوها ، وأخذها عنهم خلفاؤهم ، واتفقت أزمان طويلة قبل أن تدون ، ومن هنا جاء التبديل أو التحريف ، وليس من الضروري أن يكون ذلك قد وقع عن قصد وسوء نية ، بل إن مجرد تواتر الكلام على الألسنة وتناقله من جيل إلى جيل لابد أن يؤدى إلى التحريف والنسيان والنقصان والزيادة ، وهذا هو الذى حدث بالنسبة للتوراة والإنجيل ، فأما التوراة فإن اليهود أنفسهم يقولون إنها تجمع بين الكتب الخمسة الواردة فى أول « العهد القديم » أو مايسمى باسم البنتاتويخ Pentateuch ومأثورات التعاليم التى أوحيت إلى أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه كلها ظلت تتناقل شفاهاً على ألسنة اليهود عصوراً متطاولة حتى جاء الوقت الذى تنبه اليهود إلى ضرورة تدوين ذلك كله بمعرفة كهان الملة اليهودية المعروفين بالربيين Rabbis فاجتمع هؤلاء فى مجامع شتى ، وكتبوا مدونات مختلفة فى النص والمعانى ، وأطلق عليها التوراة ، وعلى أساس هذه التدوينات بدأ مايسمى بعصر اليهودية الربانية فى تاريخ اليهود Rabbimic Judaism وبعض هذه التدوينات تم على

أيدى كهان أتوا من منفى اليهود في بابل ، وبعضها تم على أيدى كهان ممن بقوا في أرض فلسطين ، وهناك شيء من الإجماع بينهم على أن الكتب الخمسة أو البتاتويخ أوحيت بالفاظها إلى موسى في سيناء ، وإن كان بعض شيوخ العقيدة من يهود الإسكندرية في العصر البطلمي يقولون : إن الفقرات التشريعية فحسب من هذه الكتب هي التي أوحيت إلى موسى .

أما الإنجيل فحديثه معروف لنا ، ولفظ إنجيل وهو في اليونانية Euangelion وهو لفظ مؤلف من مقطعين eu ومعناه الطيب أو السار ، angello ومعناه الإعلان أو الإبلاغ ، واللفظان معا يعنيان البشرى السارة . ومن لفظ angello أتى لفظ الإنجيل العربي ، ومعناه الدقيق هو السلاغ أو البيان ، ومن معاني البيان الوحي من الله ، وفي القرآن الكريم في سورة آل عمران :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٨ / ٣] .

والإنجيل الذي أوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام لم يدون في حين وحيه ، وإبما هو دون بعد عشرات السنين من وفاة عيسى عليه السلام . وأقدمها هو إنجيل مرقس الذي دون سنة ثلاثين ميلادية في الغالب ، وهي أناجيل كثيرة دونها الحواريون وتابعوهم ، وقد اعترفت المجامع الدينية بأربعة منها . وهي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، أما البقية فقد رفضت على أنها زيوف أو أبو كريفنا كما تسمى عند النصارى ، ومن بين المفروضات إنجيل برنابا الذي يذهب الكثيرون من المسلمين إلى أنه أصح الأناجيل . لأن الإشارة فيه إلى رسالة محمد صلوات الله عليه بالغة الوضوح والصراحة .

المهم أنها أناجيل وليست إنجيلاً واحداً ، ومادامت أناجيل فبينها خلاف في النصوص والمعاني والوقائع ، وهي في مجموعها تدوينات لما تذكره الحواريون أصحابها من وقائع حياة عيسى ابن مريم ، وأقواله ، وإما تعبيراً عما أوحى إليه

وإما كلاماً من عنده ، فهي في جملتها تقابل الأحاديث والسير النبوية عندنا ، وهذه الأناجيل هي القسم الثاني من الكتاب المقدس عند النصارى بشتى مذاهبهم ، وهي المسماة بالانجليزية باسم Ejpils وهو العهد الجديد وتحقيق البشارة وكتاب الخلاص ، أما العهد القديم — وهو القسم الأول من الكتاب المقدس — فهي الكتب الخمسة التي ذكرناها ، وقلنا إن بعض اليهود يقولون : إنها التوراة وأسفار أخرى مما حكاه - أو حكى عن - أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه تقابل عندنا كتب تاريخ الرسل ، كما نجد في الجزء الأول من تواريخ الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وأبى الفدا مثلاً .

والمهم الذى أحب أن ألفت له نظر القارئ أنه لا يوجد بين أيدي اليهود أو النصارى كتاب يقابل القرآن ، أى كلام الله الموحى إلى نبيه بلفظه وحرفه والمبلغ إلى الناس في حينه بلفظه وحرفه ، وهم لهذا معذورون عندما لا يقولون بأن القرآن كلام الله ، لأنهم لا يعرفون شيئاً حقيقياً بين أيديهم يسمى كلام الله المنزل بلفظه وحرفه .

فهذا عندهم غير موجود والمسميات تعرف بمقابلاتها ، فلا تغضب إذا سمعت هذا الكلام ، إذ أنه ليس من الضروري أن يكون صادراً عن سوء نية بل عن جهل بكتاب الله سبحانه وكيف أنزل على رسول الله ﷺ وكيف وصل إلينا .

إلى هنا أقف بهذا المدخل ، وإن كنت لم أقل فيه كل ما أريد ، ولكننا نحب الآن أن ندخل في أحاديث الآيات المختارة ، وفي ثنايا الأحاديث نرجو أن نستدرك ما فاتنا قوله في هذا المدخل ، وبالله سبحانه التوفيق .



﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة الحجر : الآية ٩]

وقفت في المدخل الذي قدمت به لهذه السلسلة من أحاديث القلوب عند تفرد القرآن من بين ما يعرف البشر من الكتب التي توصف بأنها مقدسة بأنه الكتاب الوحيد من بين ما أوحى الله إلى أنبيائه الذي وصل إلينا كما أنزله الله كاملاً لفظاً لفظاً ، وحرفاً حرفاً . وكما بلغه الرسول إلى الناس في حينه ، ثم سجل بالكتابة على نحو لا يداخل أحداً الشك فيه .

والآية التي أبدأ بها من بين الآيات التي اخترتها تعتبر من بين البينات الكبرى على أصالة النص القرآني وسلامته من كل مظنة تحريف أو شك في صدوره عن الخالق سبحانه . فإن سورة الحجر كلها مكية ، أي أنها نزلت والإسلام في دور الصراع العنيف مع المكيين ، وكان المسلمون عند تنزيلها قلة مطاردة ، ومعظمهم كان قد هاجر إلى الحبشة ، وبقي رسول الله في مكة مع نفر قليل من أصحابه يتمسكون بدينهم كالقابض على الجمر .

وكان رسول الله يسرع بتبليغ ما أنزل إليه من ربه على من حضره من أصحابه الذين يقرءون ويكتبون ، وكانت الكتابة العربية نفسها في دور التكوين . فكانت الكلمات تكتب بدون نقط والحروف متشابهة ، وأدوات الكتابة غير ميسرة أو مهذبة ، وكذلك كانت المادة التي تكتب عليها الآيات ، والآيات

كانت مفرقة عند من كتبوها وبعضهم يكتب آيات اليوم . ثم يغيب غدا ومعه ماكتب ، وقد يهاجر إلى الحبشة ، حقا كان رسول الله يحفظها جميعاً ، وكان نفر ممن حوله يحفظونها ويرددونها ويصلون بها ، ولكن النصوص المدونة نفسها - وعليها المعول في النهاية - كانت رهن الضياع ، فمن آلاء رب العزة أن يقول لرسوله الكريم في تلك الظروف إنه هو ينزل الذكر وهو حافظ له من الضياع ، وسياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها يؤكد إعجازها ، لأن آيات القرآن وسوره كلها كل واحد مترابط ، والله سبحانه ينظم الآيات في نسق يجعل بعضها يؤيد بعضاً ويزيده بياناً :

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَنْ مُنْظَرِينَ . إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، كَذَلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ . [الحجر ٨ - ١٢]

وهذه الآيات تصف ظروفًا تشبه الظروف التي كان رسول الله وصحبه يعيشون فيها عندما أنزلت هذه الآيات ، وهناك من يقرأون حرف من الوارد في الآية العاشرة من . . بفتح الميم ، أى أنها ضمير لا حرف . والمعنى هنا أننا أرسلنا من أرسلنا قبلك في جماعات الأولين الذين كانوا يستهزئون بالرسول ، ولكن الله سبحانه يسلك الذكر في قلوب المجرمين بقدرته سبحانه ، ويحفظ كلامه من الضياع لأنه منهاج الإنسانية ونبراسها الخالد .

ثم إننا نقرأ في سورة القيامة ، وهي مكية أيضاً ، وقد أنزلت في نفس ظروف الاضطهاد والمعاناة التي أنزلت فيها الآيات السابقة ، وكان رسول الله ﷺ لشدة حرصه على ألا تفوته من القرآن كلمة ، لا يكاد يسمع ما يوحى إليه الله حتى يبدأ في تلاوته ، والله سبحانه في الآيات التي سنوردها الآن يطمئنه على أنه كفيل

بجمله وضامن لحسن تلاوته ، ثم تبيينه وشرجه للناس بعد ذلك ، فهذه رسالته الأخيرة إلى البشر ، وهى جامعة لكل ما سبق أن أوحاه الله إلى من سبقه من الرسل ، فلا بد أن تبقى كاملة إلى آخر الزمان ، وإذا كانت الرسائل السابقة قد وكلت إلى الناس فضيعوها ، فهذه الرسالة المحمدية يتكفل بها الله سبحانه فلا يضع منها حرف ، بل لا يغيب من معانيها معنى قال جل جلاله فى سورة القيامة :

﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ : فَإِذَا قُرْآنُهُ قَاتَبَ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . [القيامة ١٦ / ١٩]

وهذه بيعة جليلة على أن القرآن وحى من الله لرسوله ، فالتحدث هنا هو الله وهو يعرف الظروف التى كان يعيش فيها رسوله الكريم عندما أوحيت إليه تلك الآيات ، وهى ظروف اضطهاد ومطاردة وخوف على الرسالة ، فهو يرفقه وحنانه على رسوله يطمئنه على آياته ، فهو يقول له : (لا عليك ولا ينالك خوف أن تضع منك منه كلمة ، فلا تعجل بتلاوته وانتظر حتى يفرغ وحيه إليك . فإننا كفيلون بجمعه ، وجعل الناس يقرءونه ، فإذا فرغ الوحي فاقرأه كما تلى عليك ، ونحن لن نحفظه كاملاً فحسب ، بل نحن سنيينه ونوضحه للناس على أحسن ما يكون البيان والتوضيح) .

وهذا كلام لا يقوله إلا خالق الكون علام الغيوب ، فهو يعرف ما كان وما سيكون ، وسرى بعد قليل كيف سخر الله البشر لجمع آيات هذا القرآن الذى تنزل على رسول الله آيات متفرقات ، وحفظه بهذا فى كتابه مصون أو مصحف . ومن المعروف أن التنزيل أو القرآن هو كلام الله ، وأن المصحف هو كلام الله المدون فى صحف مجموعة فى كتاب واحد .

وهذه الآيات البيئات تساق فى سورة جميلة من سور الفترة المكية ، هى سورة

القيامة ، وقد قلنا إننا نرى أن كلام الله في كتبه العزيز كل واحد مترابط ، وإذا كانت الآيات قد أنزلت منجمة فإن الله الذي تعهد بجمعها قدر مساقها ونسقها وارتباطها بعضها ببعض في صياغة معجزة ، فالمعاني تتوافق وتتكامل في الروح والمعاني وإن تفرقت في الظاهر ، أو بدت متفرقة بمن يقرأ بعينه دون قلبه وإحساسه ، فإن القرآن قوت القلوب أو ثمار القلوب ، وفهمه على وجهه لا يتم إلا إذا قرأته بعينك ، أو من حفظك فمر على قلبك ، ومن قلبك إلى لسانك ، فاسمع - هداك الله - إلى ماسبق الآيات التي نحن بصدها من آيات سورة القيامة وهي الخامسة والسبعون في ترتيب المصحف :

﴿ لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ . أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ . بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ، بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ . لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ .

[القيامة : الآيات ١-١٦] .

فانظر والله إلى إبداع المساق ، وحسن النسق والسياق ، فالله يريد أن يؤكد أن بعث الإنسان حقيقة لا شك فيها ، وإذا كان بعض المكابرين لا يتصورون ذلك ، لأنه يتخطى أفهامهم ، فنحن لن نبعث الإنسان حيا فحسب ، بل إننا قادرون على أن نعيده كما كان ، حتى أصابعه نعيدها كما كانت . وهنا موضع ملاحظة بالغة العمق لصديقتنا الأديبة الطيبة الفقيه الدكتور مصطفى محمود الذي ينظر في القرآن نظر الطبيب العالم ، وهو يقول : « إن اختصاص الله البنان

أى الإصبع بالذكر هنا يراد به بصمات الأصابع التى لا يتشابه فيها انسانان ، كما لا يتشابهان تمام التشابه فى ملامح الوجه وسماته ، وهذا تخريج علمى حديث .

فالحق سبحانه يقسم بيوم القيامة ، وبنفس الإنسان التى ستلومه يوم القيامة ، وتحاسبه على ما فعل . أن الساعة آتية لا ريب فيها . وأن الله سيجمع عظام كل إنسان كما كان . حتى رسوم بصمات أصابعه . ولكن الإنسان الغافل عن يوم الحساب يريد أن يفعل ما يشاء قبل ذلك اليوم . فإذا أتى يوم الحساب برق بصر الإنسان ، وخسف القمر ، وطوى الشمس والكون . وهذا تصوير بالغ البيان لبعض ماسيكون يوم القيامة ، فإن الشمس والأرض والقمر وكل المجموعة الشمسية ستطوى طياً .

يومها يطلع الإنسان على كل ما فعل : ما قدم منه وما أخر ، ويعرف ببصيرته أن كل ما يواجهه به من خطايا حق ، ويرى أنه لا مفر من الله إلا إلى الله وإلى الله مستقرنا جميعاً ولا فرار من العقاب مهما قدم الإنسان من المعاذير .

فإذا كان الأمر كذلك فلا بأس عليك يا محمد ولا ضير ، واطمئن واستمع إلى ما يوحى إليك ، ولا تعجل بتلاوته مخافة ضياعه ، فإن علينا جمعه وقرآنه ، وهذا مثل من كثير سنأتى به على ترابط الآيات ترابطاً معنوياً داخلية ، وإن بدا لنا أنها متفرقات .

ويدخل فى معنى تصوير القرآن لحالة رسول الله ﷺ خلال الفترة المكية وما كلن يعانیه من المشركين قول الله سبحانه فى آخر سورة الإسراء :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا . وَابْتَغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِئَامٌ مِنَ الذُّلِّ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ . [الإسراء ١٧ / ١١٠ - ١١١] .

فإن رسول الله ﷺ خلال الفترة المكية الثالثة وهي الأخيرة التي كان فيها الإسماء به إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماء تكريماً له وإظهاراً لمحبة الله إياه بعد ما كان من موت أبي طالب وخديجة ، ووقوفه وحده بلا نصير أمام الأعداء الذين ظنوا أن أمره قد جهن بعد وفاة أبي طالب حاميه وخديجة رضى الله عنها وكانت خير المعين له على ما كان يلاقى في تلك الظروف . كان رسول الله إذا قام لصلاته في المسجد وجهراً بها نهض له من أشرار المكيين وسخفاء المشركين من يحاكيه ويردد كلامه ترديداً سخيفاً ، ليخرجه عن صلاته أو يفسده عليه ، وهنا يأمره الله بالألّا يجهر بصلاته جهراً يسمعه المشركون وتضيق له نفوسهم ، إذ أنهم كانوا ينفرون من آيات الله ولا يحبون سماعها لحدود قلوبهم وغرورهم بأنفسهم ، وهو كذلك يأمره بالألّا يخافت بصلاته صوته فلا تسمع ، ولكن عليه أن يصلى بصوت وسط ، وليحمد الله الواحد الصمد الذى لم يتخذ ولداً ولا كان له شريك .

ومن طريف ما يحكى ابن كثير في تفسيره لآية الجهر والمخافتة في الصلاة قوله : قال ابن جرير (يريد الطبرى) : حدثنا يعقوب حدثنا ابن عُلَيَّة عن سلمة ابن علقمة عن محمد بن سيرين قال : بُنِيتُ أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته ، وأن عمر كان يرفع صوته ، فقليل لأبى بكر : لم تصنع هذا ؟ قال : أناجى ربى عز وجل . وقد علم حاجتى فقليل : أحسنت . وقليل لعمر : لم تصنع هذا ؟ قال : أطرده الشيطان وأوقظ الوسنان قيل : أحسنت . فلما نزلت : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قِيلَ لأبى بكر : ارفع شيئاً ، وقليل لعمر : اخفض شيئاً . . (تفسير ابن كثير . طبعة دار الشعب بالقاهرة ١٢٧/٥) . وقد رواه الطبرى أيضاً مختصراً (انظر تفسير الطبرى بتحقيق الشيخين محمود وأحمد شاكر - طبعة دار المعارف ١٥/١٢٤) وأنا أحكيه هنا لطرافته لا قطعاً بصحته .

والآن ، وبعد أن تحدثنا عن معجزة الله في وعده حفظ قرآنه من الضياع ،
فلنرو بقية القصة لنرى كيف سخر الله عباده لجمع القرآن وتثبيت نصه ليظل كما
أوحاه الله على نبيه إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، وبقيّة الحكاية هذه معجزة
علمية أجراها الله على أيدي عباده من المؤمنين الصادقين .

عندما قبض رسول الله وانتقل إلى الرفيق الأعلى كان نفر من المسلمين قد
جمعوا القرآن في صدورهم - أى حفظوه - ويذكر الرواة منهم ستة كلهم من
الأنصار هم : أبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وسعد
ابن عبيد وأبو زيد ، وهو رجل من عمومة أنس بن مالك ، ويضيف بعض
الرواة إلى هؤلاء عليّ بن أبي طالب وأبا موسى الأشعري وعثمان بن عفان وتميم
الداري ، وفي الاثنين الأخيرين شك ، والبخاري في باب فضائل القرآن من
صحيحه يقتصر على أربعة كلهم من الأنصار هم : زيد بن ثابت ومعاذ بن
جبل وأبي بن كعب وأبو زيد . والروايات هنا كثيرة جداً ، فهناك مثلاً من
يضيفون أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري .

وكان معظم المسلمين يحفظون الكثير من سور القرآن وآياته ، ولكن هؤلاء
هم الذين اشتهروا بجمع معظم القرآن في صدورهم ، ومن المؤكد أن جبريل كان
يراجع القرآن مع رسول الله بين الحين والحين ، وأن رسول الله عندما لقى ربه كان
نص القرآن كله ثابتاً كما أنزله الله في صدور المسلمين وإن كان مفرقاً بينهم .
ويذهب بعض الرواة من الشيعة أو ذوى الميول الشيعية مثل المؤرخ البيهقي أن
عليّاً بن أبي طالب كان على رأس الحفاظ ، بل يذهب نفر من هؤلاء إلى أن
القرآن كله كان محفوظاً في صدر علي بن أبي طالب ، والشيعة يروون القرآن برواية
علي بن أبي طالب عن طريق الإمام محمد الباقر مرة ، والإمام جعفر الصادق مرة
أخرى ، وقد اشتهر من المسلمين نفر بحفظ الكثير من آي القرآن ، ويقال إن
هؤلاء هم الذين عرفوا في تاريخنا باسم القراء ، وإن كان هناك خلاف كثير حول

ماهى جماعة القراء ، ومتى ظهورها ، وفى موقعة عقرباء وهى إحدى المعارك التى خاضها المسلمون مع مسيلمة الكذاب وجماعته قتل الكثيرين من حفظة القرآن من الأنصار خاصة ، ومن ذلك الحين بدأ اتهام أبى بكر بتدوين القرآن قبل أن يموت معظم حفظته ، وكانت تلك المعركة فى ذى الحجة سنة ١١ هجرية / يناير ٦٣٣ م . وكان الذى تنبه إلى ذلك عمر بن الخطاب ، فأفصى إلى أبى بكر بمخاوفه ، فنادى أبو بكر رجلاً من أفاضل حفظة القرآن فى المدينة هو زيد بن ثابت ، وأمره بأن يدون القرآن فعكف على ذلك معتمداً على حفظه ، ولم يكتف بذلك بل مضى يراجع حفظه وما جمع من مدونات الآيات بما عند غيره من الصحابة ، وكان الكثيرون يحتفظون بقطع من الخشب أو الجلود أو العظم ، مدونة عليها آيات من القرآن ، فلم يدع زيد أحداً ممن علم أن عنده من القرآن شئ إلا رجع عليه وأخذ ما عنده ، وكان أبو بكر وعمر من أكثر الناس حفظاً للقرآن ، فكانا أكبر معينين لزيد فى عمله الجليل .

وعندما نعلم من هو زيد بن ثابت ، نتأكد من أن اختيار أبى بكر وعمر إياه لم يكن مصادفة ، فقد كان فى هذا الرجل نسيج عالم حق ، والاسم الكامل لزيد أنه زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان من بنى مالك بن النجار الخزرجيين ، ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت سن زيد إحدى عشرة سنة ، وقد توسم فيه رسول الله النجاة لأول ما عرفه ، فضمه إليه ، وقد تحمس زيد للإسلام حماسة بالغة ، وأراد الخروج مع المسلمين يوم بدر ، ولكن رسول الله رده لصغر سنه ، وكانت أول المشاهد التى شارك فيها معركة الخندق ، فكان أثناء حفره يعمل مهمة عالية ، ورآه الرسول فقال : « إنه نعم الغلام » ، وكانت راية المسلمين يوم تبوك مع عمارة بن حزم ، وكان من فضلاء الصحابة فأخذها رسول الله ودفعها إلى زيد ، فقال عمارة : « يارسول الله بلغك عنى شئ ؟ قال لا . . ولكن القرآن مقدم ، وزيد أكثر أخذاً للقرآن منك » وهذا يدل على أمرين :

الأول : أن زيدا كان معروفاً للرسول بكثرة حفظه للقرآن .
وثانيهما : أن القرآن راية الإسلام .

وكان زيد يقرأ ويكتب يوم عرفه الرسول فجعله من كتاب الوحي عنه ،
ويقال : إن زيدا كان إذا سمع عن آية أملاها رسول الله لغيره سمى إليه فسمعها
منه وحفظها ، وشيئاً فشيئاً نجد زيدا قد أصبح كاتب الرسول وملازمه معظم
الوقت ، ويحكى ابن سعد في الطبقات أن زيدا كان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي
وغيره ، وكانت ترد على رسول الله ﷺ كتب بالسريانية فأمر زيدا أن يتعلمها
فتعلمها ، ويقول في خير آخر يرويه زيد بنفسه فيقول : قال لي رسول الله ﷺ :
« إنه تأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد ، فهل تستطيع أن تتعلم
كتابة العبرانية ؟ أو قال السريانية ؟ فقلت نعم ! قال : فتعلمتها في سبع عشرة
ليلة ، وفي خبر ثالث تقرأ أن رسول الله ﷺ أول ما دخل زيد في خدمته طلب إليه أن
يتعلم العبرانية وقال له : تعلم كتاب اليهود (يريد كتابتهم) فإني والله ما آمن
اليهود على كتابي . قال : فتعلمته في أقل من نصف شهر ، وسواء تعلمها في
نصف شهر أو أكثر ، فالهم لدينا أن زيدا تعلم السريانية والعبرانية بأمر الرسول
ﷺ ، وأن زيدا كان صاحب سر الرسول في أمر ما كان يرد عليه من الكتب .
وأنه خدم الرسول والإسلام بمعرفته اللغوية هذه ، وزيد على هذا يمكن اعتباره
أول عالم في تاريخ الإسلام ، فقد عرف لغتين إلى جانب العربية ، وهذه الأخبار
متواترة في كل كتب الحديث والأثر . ولو لم يكن زيد على هذا العلم الواسع
لوجدنا في الأخبار من يشكك فيها ، بل كان رسول الله ﷺ يوجهه في أمر الكتابة ،
فقد روى أن زيدا قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يمل في بعض حوائجه
فقال : « دع القلم على أذنك فإنه أذكى للممل » .

وإلى جانب ذلك كان زيد أعرف الصحابة بالفرائض ، أي بحساب

حصص الموارث على ما في كتاب الله . ويمكن أن تكون الفرائض هي الحساب
 جملة ، فإن الفرائض في الإسلام كثيرة ، فهي تدخل في قسم النفي والمغانم ،
 ومعنى هذا أن الرجل كان ماهراً في الحساب كذلك ، قال رسول الله ﷺ :
 « أفرض أمتي زيد بن ثابت » ، وروى ابن سعد في الطبقات بسنده قال :
 ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً في القضاء والفتوى
 والفرائض والقراءة ، وروى ابن سعد خبراً آخر يقول : خطب عمر بن الخطاب
 بالجابية فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ،
 وروى أيضاً أن عمر بن الخطاب استعمل زيد بن ثابت على القضاء وفرض له
 رزقاً ، وقال : كان عمر يستخلف زيد بن ثابت في كل سفر يسافره ، وكان
 يفرق الناس في البلدان ويوجهه في الأمور المهمة ويطلب إليه الرجال المسلمون
 فيقال له : زيد بن ثابت يريد أنهم كانوا يطلبون زيداً بالاسم ، فيقول عمر : لم
 يسقط عليّ مكان زيد ، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما
 لا يجدون عند غيره ، وروى ابن سعد عن شيخه الواقدي بسند صحيح : كان
 زيد بن ثابت متراًساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد عمر
 وعثمان وعلّي في مقامه بالمدينة ، وبعد ذلك بخمس سنين حتى ولى معاوية سنة
 أربعين ، فكان كذلك أيضاً حتى توفي زيد سنة خمس وأربعين (٦٦٥ م) فكان
 زيداً توفي عن ست وخمسين سنة هجرية ، فقد سبق أن ذكرنا أن سنة عند الهجرة
 كان إحدى عشرة سنة ، ومن أخذ العلم عنه سعيد بن المسيب ، وكان سعيد
 يقول : لا أعلم لزيد بن ثابت قولاً لا يعمل به مجمع عليه في الشرق والغرب ،
 وكان عبد الله بن عمر يسميه عالم الناس . . .

هذا هو الرجل الذي عهد إليه أبو بكر في جمع القرآن ، فهل تظن أن وجوده
 إلى جانب الرسول صلوات الله عليه وخلفائه الراشدين وقيامه بجمع القرآن
 كان مصادفة . لقد قال الله سبحانه في قرآنه إن عليه جمع القرآن وإقراءه الناس

وتبيينه لهم . وله سبحانه حكمة تخفى علينا في إنفاذ مراداته .

يقول أبو داود السجستاني في كتاب « المصاحف » وأبو عمرو الداني في كتاب « القراءات » وغيرهما من الحجج في تاريخ القرآن إن زيدا دون القرآن كاملاً في صحف ، وجعل الصحف مصحفاً ، وقد حاول نفر من المستشرقين ممن اجتهدوا في البحث عن أشياء يشككون الناس بها في صحة النص القرآني من أمثال تولدكه وشغالي وبرجشتريس وأجناس جولد تسيهر وكازانوف وريجي بلاشير . جعل هؤلاء وغيرهم يفحصون ويدرسون ويحللون دون جدوى ، واضطروا في النهاية إلى الاعتراف بصحة تدوين زيد وميلاد المصحف الأول .

فرغ زيد من عمله وأودع هذا المصحف عند حفصة أم المؤمنين وهي بنت عمر بن الخطاب ، وكثر عدد القراء وحفظه القرآن ، فلما كان فتح أرمينية أيام عثمان بقيادة حذيفة بن اليمان استمع هذا الصحابي الجليل إلى جنده في صلواتهم وأحاديثهم فراحه اختلاف النص القرآني على ألسنتهم ، فكتب إلى عثمان بن عفان يستغيث ويسأله فيما يصنع ، فأدرك عثمان خطورة المسألة ، فاستشار الصحابة ، واستقر رأيهم على ضرورة تثبيت النص القرآني في صورة واحدة حتى لا يختلف الناس في حرف من حروف كتاب الله الكريم ولا لفظ ، ولم يجد عثمان أقدر على القيام بهذه المهمة من زيد بن ثابت ، وكان بعض الصحابة قد كتبوا مالم يهيم من حفظهم ، واعتبروا ما عندهم مصاحف ، وكان بينها وبين مصحف زيد بن ثابت الأول خلاف في بعض الألفاظ وترتيب الآيات والسور ، ومن هؤلاء أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود . فعهد عثمان إلى زيد في القيام بمراجعة النص الذي كتبه من سنوات قليلة ، وضم إليه ثلاثة من أوثق الناس إيماناً وحفظاً ، وهم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن الغاصي وعبد الرحمن بن الحارث . وهناك روايات أخرى في تكوين هذه « اللجنة » ولكننا نأخذ هنا بما يقوله الإمام البخاري في باب فضائل القرآن من صحيحه . وقد بذلت هذه الجماعة أقصى

جهداً في القيام بهذا العمل الجليل ، فأخذ زيد وأصحابه الصحف التي كانت عند السيدة حفصة وراجعوها على حفظ من كان لديه شيء من القرآن ، ومازالوا يجتهدون حتى فرغوا من مهمتهم على خير وجه ، وأخذ عثمان هذا المصحف وراجعته مع من رأى من الصحابة وانتهى أمرهم إلى إقراره . وهنا قام عثمان بالعمل الأكبر الذي يخلده في التاريخ ، ويكتب الله له به الجنة ، استنسخ من هذا المصحف أربع أو ست نسخ وأرسلها إلى الأمصار ، وجمع ماعدا ذلك مما كان يتمسك به أبي بن كعب ، وماكان يعتز به عبد الله بن مسعود وأحرقها جميعاً حتى لا يكون في أيدي الناس إلا هذا المصحف الواحد الذي سمي من ذلك الحين بالمصحف العثماني الذي لا شك في أنه يضم كلام الله سبحانه حرفاً حرفاً ولفظاً لفظاً ، بل ثبت فيه ترتيب الآيات والسور ، وقد لج عبد الله بن مسعود لجاً شديداً في الاحتجاج لما كان يسميه مصحفه ، ولكن عثمان والصحابة ثبتوا على هذا المصحف ، وعندما نقرأ أمثلة من اختلافات ماكان عند عبد الله بن أبي أو عبد الله بن مسعود مع مصحفنا العثماني عند رجل مثل السيوطي صاحب الإتيان في علوم القرآن نجد أنها لم تكن بذات بال . وهكذا صدق الله سبحانه وحفظ قرآنه .

وقد بدأت هذه المقالات بآيات الله سبحانه التي تبشر المسلمين بحفظ كلامه وقراءته وبيانه ، لأن القرآن هو أساس الإسلام الحاوي لمنهج الله سبحانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة الحشر : الآية ٢٢]

الإيمان بالله تعالى ووحدانيته وتفرد بالخلق والقدرة هي لباب الإسلام وقاعدته الكبرى التي تفرع عنها كل فضائل وخصائصه .

ولا تكاد تخلو سورة قرآنية من آيات تتحدث عن تفرد الإسلام بالقول بالوحدانية المطلقة للحق سبحانه ، لأننا سنرى بعد قليل أن وحدانية الله هي ضمان الأمن والسلام والسلامة للبشر . ولو أن البشر اجتمعوا على الوحدانية ولم تتفرق بهم السبل لما كانت هناك حروب أو فتن أو مجاعات ، لأن الوحدانية الإلهية هي العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ولو آمنوا بها جميعاً وأدركنا معناها ومغزاها لكنا اليوم في دنیا غير دنیا الشقاء والمتاعب والشور التي نحياها . ومن أجل ما يقرأ الإنسان في هذا المعنى وأحفله بالحكمة قول الله جل جلاله في سورة الزمر :

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ
جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يَشْرَكُونَ ۝ [الزمر ٣٩/٦٦ - ٦٧]

وهي آيات لم يحسن السلف تفسيرها ، لأنهم قصروا نظرهم على يوم القيامة وما يسبقه وما يكون فيه ، كأن سلطان الله على الدنيا بما فيها من أرض وسماوات مقصور على يوم الساعة ، والحق أن الأرض جميعاً في قبضة الله من يوم خلق هذا الكون وكذلك السماوات بيمينه أزلاً وأبداً ، وقد غاب عنهم كذلك الإعجاز البلاغى في تصوير قدرة الله في هذه الآيات ، وشغلوا أنفسهم برواية أحاديث في نزول هذه الآيات هي أو هي من نسيج العنكبوت ، وما حملهم على ذلك إلا ولعهم بالماضى ونظرهم إليه وضيق الآفاق التي كانوا ينظرون إليها ، فكان الماضى هو عالمهم الذى عاشوا فيه ، والعلم عندهم كان رواية ما قال البزار والطبرانى وعبد الرازق والحاكم ومن إليهم من أقطاب العلم السابقين عليهم مع إجلالنا للسابقين من علماء هذه الأمة فإننا نقول : إننا اليوم نعيش في عالم اتسعت فيه آفاق العلم واتسعت معها آفاق النظر والتفاؤل بالمستقبل ، ومامضى من العلم هو أقله ، أما معظمه فهو في الحاضر والمستقبل ، وهذه بعض دوافعى إلى كتابة هذه المقالات ، فأنا أنظر إلى كل شىء حولي بعين الحاضر وأمل المستقبل ، وهكذا أحب أن ينظر الشباب ليكون لهم مستقبل أزهى مما نحن فيه وأريد أيضاً أن أربط تفكيرهم بالإيمان بالإسلام والقرآن وسيرة المصطفى صلوات الله عليه ، وتحضرني بهذه المناسبة عبارة جميلة قرأتها لواحده من كبار أهل اللاهوت في عصرنا موجهاً الحديث للشباب : « إن الله يا أبنائى ينظر إليكم ويشملكم برحمته ويرعاكم في طريقكم إلى عالم أسعد ، أما نحن فحسبنا ما أكرمنا الله به من رعايته وأفضاله ، فأنتم الغد ونحن الأمس ، أنتم يشرق عليكم نور النهار ونحن نخفى شيئاً فشيئاً في ليل التاريخ » .

وقد اخترت الآيات التى قدمت بعضها للحديث عن الوجدانية ، لأنها تتحدث عن الله وصفاته ، وهو موضوع شغل الماضين من أهل الفكر عندنا وأدخلهم في متاهات ومتاعب وأزمات ما كان أغناهم عنها لو أنهم نظروا في

القرآن بالقلب والعين جميعاً واستمعوا إلى صوت العقل والقلب معاً : وهذه الآيات المباركات من سورة الحشر تقول :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

[سورة الحشر ٥٩/ ٢٢- ٢٤]

وهذه الآيات التي تروى النفس ببلاغتها وحسن مساقها تجمع بين وحدانية الله سبحانه وتعالى وجانب من صفاته التي يتفرد بها جل جلاله .

وأحب أن أقف عند بعض هذه الصفات الإلهية لأستلفت نظر القارئ إلى ما يتفرد به الله في عقيدة الإسلام .

فإنه هنا قدوس لا مقدس كما يوصف في الأديان الأخرى ، لأن صفة القداسة الإلهية النابعة منه سبحانه ، ولو قلنا مقدس فمعنى ذلك أن أحدا أعطاه صفة القداسة وتعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

والإسلام أقل الأديان استخداماً لصفة القداسة ، لأنها عندنا مما يتفرد به الله دون سواه حتى القرآن - وهو كلام الله - فنحن لا نصفه بالقداسة فنقول القرآن المقدس بل نقول الكريم والمجيد ، والحرم المكي لا يوصف عندنا بالحرم المقدس لأن الله سبحانه خلق عليه القداسة فهو قدس بذاته ، واستعمال مصطلح الأرضي المقدسة حديث ، ولا أذكر أن القدامى استعملوه عندنا ، وفي سورة البقرة تقول الملائكة مخاطبة رب العزة : ﴿ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [٢/ ٣٠] ولم تقل ونحن نقديسك ، لأن الله أجل من أن يخلع عليه أحد من

خلقه صفة من صفاته ، وفي المعجم الوسيط تقرأ : قدس الرجل : زار بيت المقدس ، وقدس قدساً أى طهر أو طهر ، وقدس لله تقديساً : طهر نفسه له وصلى له وعظمه وكبره ، وقدس فلان الله : نزهه عما لا يليق بالألوهية ، وقدس الله فلاناً طهره ، وتقدس تطهر ، وتقدس لله ونزه فهو متقدس ، والقدااسة الطهر والبركة (محدثة) والقدوس وروح القدس جبريل أى روح الطهر (إلى هنا ينتهى كلام المعجم) وقد ورد روح القدس بمعنى جبريل ثلاث مرات متصلاً بعيسى ابن مريم عليه السلام ومرة واحدة بهذا المعنى فى القرآن فى الآية ١٠٢ من سورة النحل ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وبمناسبة كلامنا على الآيات التى جعلتها موضوع الحديث عن وحدانية الله أقول كلمة أنبه بها إخوانى المسلمين إلى مدخل من مداخل الأذى والتعصب يستعمله الكثيرون من أعداء الحق والإسلام ، فقد قرأت فى تفسير ابن كثير فى كلامه عن لفظ الجلالة سبحانه : الله اسم على الرب تبارك وتعالى يقول إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات (ثم يورد الآيات التى نحن بصدددها) ثم يقول : فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له (ابن كثير : التفسير ج ١ ص ٣٥ فى تفسير الفاتحة) وهذا كلام طيب مقبول . ولكننا نقرأ فى قاموس لاروس 'Islam Allah : dieux unique del' .

فكأنهم يستعملون لفظ الجلالة على أنه اسم على علم إله المسلمين خاصة وهذا يخالف مانحن عليه من أنه إله العالمين ، وعندما نقرأ ماورد فى دائرة المعارف الإسلامية بطبيعتها نجدهم يقولون كلاماً كثيراً لا يليق ولا أجيـز لنفسى هنا أن أنقله ، وأسوأ من هذا ما تجده عند كبار بعض المستشرقين فى أمثال جودفروا ديموبيني Yavde Brog Demomlignes وهو من كبار المستشرقين وأعتاهم ، وقد أبى هذا الرجل إلا أن يختم حياته بأسوأ ماتختم به حياة ، فقد ألف كتاباً عن

رسول الله ﷺ لم يدع شيئاً مما امتلأت به نفسه من كراهة الإسلام ونبهه إلا قاله ،
والكتاب قسماً :

الأول : سيرة لرسول الله ساقها على هواه .

والثاني : زعم أنه يعرض فيه أفكار الرسول ونظراته إلى الكون والوجود ،
وفيه فصل خبيث عن الحق جل جلاله ، زعم أن رسول الله ﷺ اخترع صورة الله
سبحانه وتعالى وصاغها كما تصوره ، وهو يتحدث عن الحق كأنه يتحدث عن
بوذا مثلاً ، تعالى الله سبحانه عما يشركون . وهذا يدعوني إلى أن أرجو إخواني
المسلمين الذين يكتبون عن الإسلام في لغة غير العربية ألا يقولوا مثلاً Allah
Segs أو Allahbit أو Allah Sogt وأرجوهم أن يقولوا بدلاً من ذلك God Sags أو
Dievx dit أو Gott Sogt وذلك حتى يستقر في عقول من يقرءون لهم المعنى
الحقيقي للفظ الجلالة في الإسلام .

وفي تلك الآيات اثنا عشر اسماً من أسماء الله الحسنى سأورد معانيها هنا كما
أوردها ابن كثير حتى تستقر هذه المعاني في النفوس كما يراها أهل السنة
والجماعة :

الرحمن الرحيم : المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات
فهو رحمن الدنيا ورحيمها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ ﴾ [الأعراف ١٥٦/٧] وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾
[الأنعام ٥٤/٦] وعندما فسر ابن كثير البسملة قال في معنى الرحمن الرحيم
كلاماً جميلاً جداً يتجلى فيه أن الإسلام حقاً دين الرحمة قال : الرحمن الرحيم
اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة في رحيم . . وفي
تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك ، كما تقدم في الأثر عن عيسى عليه
السلام أنه قال : والرحمن رحمن الدنيا والآخرة والرحيم رحيم الآخرة . ونقل عن
ابن جرير الطبري قوله في تفسيره : الرحمن لجميع الخلق والرحيم للمؤمنين ولهذا

قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته ، وقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ فخصهم باسمه الرحيم . قالوا : فدل على أن الرحمن أشد مبالغة لعمومها في الدارين لجميع خلقه ، والرحيم خاصة بالمؤمنين ، ولكن جاء في الدعاء المشهور : رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أ. هـ وفي كلام الطبري في تفسيره لمعنى الرحمن كلام كثير يختلط معه المعنى ويلتوى ، وقد أشار إلى ذلك محمود شكرى الألوسى في تفسيره الجامع المسمى روح المعانى .

ونعود إلى تفسير ابن كثير لنستكمل منه كلامه عما ورد في الآيات في أسماء الله الحسنى :

وقال - يريد الحق سبحانه - هو الله الذى لا إله إلا هو الملك : أى المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة أو مدافعة .

وقوله « القدوس » قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد وقتادة : أى المبارك . وقال ابن جريج : تقدمه الملائكة الكرام .

« السلام » أى السالم من جميع العيوب والنقائص بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله ، فكان ابن كثير يفسر السلام هنا بمعنى السلامة ، وربما كان هذا جائزاً ، ولكن الأشبه بالله سبحانه أن يكون المراد هنا هو الأمن والأمان ، أى الذى يملأ القلوب أمناً وسلاماً ، ويظل هذا الكون كله بأمنه وسلامه ، والدعاء المشهور اللهم أنت السلام ومنك السلام وبيك السلام ، ومن آيات الله سبحانه الجارية على كل لسان ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨/٣] .

وقوله : « المؤمن » قال الضحاك عن ابن عباس . أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدق عبادة المؤمنين في إيمانهم به . وهذا كلام ابن كثير وغيره من فقهاء السلف .

وقوله : « المهيمن » : قال ابن عباس وغير واحد : أى الشاهد على خلقه

بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج ٨٥ / ٩] وقوله ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٤٦ / ١٠] . وأرى أن المعجم الوسيط هنا أدق من ابن كثير فقد قال هيمن فلان : قال أمين ، وهيمن على كذا : سيطر عليه وراقبه وحفظه ، وهيمن الطائر على فراخه : رفر ، والمهيمن من أسماء الله تعالى بمعنى الرقيب المسيطر على كل شيء الحافظ له ، وفي التنزيل العزيز ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ وتام الآية ليكتمل فهم القارىء لها : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة ٥ / ٤٨] .

وقوله « العزيز » أى الذى عز كل شيء فقهره ، وطلب الأشياء فلا ينال جنباه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال : الجبار المتكبر ، أى الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته كما تقدم فى الصحيح « العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعى واحداً منها غلبته » . وقد علق على ذلك ناشر طبعة دار الشعب من تفسير ابن كثير بأن هذا الحديث وارد فى كتاب اللباس من سنن أبى داود ، باب ماجاء فى الكبر . وسنن ابن ماجه : كتاب الزهد . باب البراءة من الكبر والتواضع الحديث ٤١٧٤ : ٢ / ١٢٩٧ ومسند أحمد بن حنبل عن أبى هريرة ٣٧٩ / ٢ و ٤١٤ و ٤٢٧ و ٤٤٢ . ولنا فى الاستشهاد بأمثال هذه الأحاديث نظر .

فإننا إذا تأملنا ماسلف وما سيجىء من صفات الله فى القرآن وجدناها كلها تعود بالخير على البشر ، كما رأينا فى الرحمن الرحيم والسلام والمؤمن والمهيمن ، وهذا التفسير العزيز تفسير يخرج عن هذه القاعدة ويجعل الله سبحانه يتعالى على الناس بعزته وكبريائه ، ولا حاجة بالله إلى شيء من ذلك ، فليس من الضرورى أن يخاف الإنسان من الله لكى يؤمن به ، بل لابد أن يكون الإيمان بالله تابعا من محبته ، حتى الخوف من الله ليس فى الحقيقة خوف منه ، بل خوف من العقاب

في حالة الخطأ المقصود والعصيان الجاحد . وقد آن الأوان لأن نتخلى عن هذه النظرة التى أُولع بها نفر من الفقهاء القدامى ، وخير لنا ألف مرة أن نقول إنه سبحانه العزيز أى رمز العزة ، فهو يريدنا أن نكون من أهل العزة ، وما نقول هذا من عندنا . ولكننا ننظر إلى قول الله تعالى في سورة المنافقين :

﴿ يَقُولُونَ لِنِئ رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون ٨ / ٦٣] .

فهنا ، وفي أثناء غزوة المريسيع الحافلة بالأحداث والعظات ، نرى أن المنافقين من أهل المدينة يسعون في الفساد بين المؤمنين ، ويحسبون أنهم أعز من المؤمنين لأن المدينة بلدهم ، فذكر الله المؤمنين بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فهنا يرتفع المؤمن بإيمانه ويكون له نصيب من عزة الله سبحانه ، وتؤكد الآيات أن المنافقين لا يعرفون هذه العزة لأنهم لا يؤمنون .

ويؤكد هذا المعنى قوله جل جلاله في سورة فاطر : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر ١٠ / ٣٥] فهنا ترى كيف أن العزة لله كلها ، ولكنه يشرك فيها من عباده أصحاب الكلم الطيب والعمل الصالح .

وغياب هذه المعانى الجميلة عن أهل العصور الإسلامية المتأخرة ، هو الذى هبط بهم وأذلهم ومكن من رقابهم العبيد والمماليك ، ولو أخذت أهل هذه العصور العزة بإيمانهم لما رضوا بأن يتحكم فيهم ويذلهم رجال مثل كافور وبكتمر وبلغا وأمثالهم .

بل لقد آن أن نغير هذه النظرة وما يتصل بها من تطامن إلى الأرض وتهافت الهمم ، لأن الإيمان بالله عزة والإيمان بالوطن عزة والإيمان بالعمل الصالح عزة لأنه يرفع مقام الإنسان ويجعل له نصيباً من عزة الله وهى عزة مابعدا عزة . . . ومن أمثلة هذه النظرة القديمة قول قتادة في كلام ابن كثير الذى نتابعه هنا

الجبار الذى جبر على مايشاء . وأفضل من هذا قول ابن جرير الطبرى : الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم (التفسير ٢٨ / ٣٦) وكبرياء الله سبحانه شبيهة بعزته ، وهو عندما يصف نفسه بالمتكبر يريد أن نرى فيه رمز العزة والترفع عن الدنيا والاعتزاز بالايمان والفضائل . . .
ثم يقول ابن كثير : وقوله ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمَصَوِّرُ ﴾ الخلق : التقدير ، هو الخلق براءً وبروءاً . برأ الله الخلق : خلقهم فهو بارئ (المعجم الوسيط) . .

والمصور : أى الذى ينفذ مايريد على الثقة التى يريدها ، وهنا أيضاً نرى ابن كثير يضيف إلى المعنى لمحة لا لزوم لها ، وكان أول به أن ينظر إلى قول الله سبحانه فى سورة الانفطار :

﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَمَرَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمُ الَّذِي خَلَقَ فِسْوَكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار ٨٢ / ٦ - ٨] .
فهنا نجد أن معنى جميلاً لوصف الله سبحانه لنفسه بالمصور .

والمسلمون يصنفون أنفسهم بأنهم أهل التوحيد وهم بالفعل أهل توحيد الله وسنرى بعد قليل حكمة الله فى الأمر بتوحيده المطلق الذى لا تشوبه شائبة من شرك أو نسبة الولد إليه ، والمعتزلة سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد وهم الذين جعلوا التوحيد علماً ، وفى أثناء النزاع بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة والجماعة ظهر علم التوحيد على مذهب أهل السنة والجماعة ، وتطور مع الزمن ، ولكننا إذا نظرنا إلى كلامهم فى هذا العلم وجدنا فيه غموضاً وتكلفاً لا معنى له حتى رجل استنار ذهنه بما عرف من العلم الحديث واشتهر بما ميزه الله به من الذكاء وحسن الفهم نقرأ رسالة التوحيد التى وضعها كما قال للتلامذة نقرؤه فلا نفهم منه لماذا أراد الله من عباده أن يوحده التوحيد الكامل ؟ مع أن الله سبحانه ليس فى حاجة إلى شئ من أحد ، فلا بد أن يكون هذا التوحيد راجعاً علينا نحن

بالخير ، وهذا هو الحق ، لأن الله سبحانه يريد أن نلتف حوله لأنه المثل الأعلى في كل شيء ، وما أوقع أهل الأديان في البلاء والشقاء قبل الإسلام إلا الاختلاف في الله سبحانه وطبيعته واختلافهم في طبيعة عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهل هو إنسان أم إله ، وهل له طبيعة أم طبيعتان ؟ وما نسبة الطبيعة للبشرية إلى الإلهية فيه ؟ مع إيمانهم جميعاً بأنه سبحانه الخالق البارئ المصور ، فما حاجته بعد ذلك إلى أن يشركه أحد في خلقه أو يتفق مع جلال الخالق أن تكون له علاقة أبوة أو قرابة مع أحد ؟ .

والحق أن الإسلام بتوحيده المطلق قد أخرج البشر من بلاء عظيم ، وأراد لهم أن يجتمعوا على كلمة سواء ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولا ينفرقوا ولنظر في قول الله سبحانه .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران ٦٤ - ٦٥] .

وهل كان عسيراً على أهل الكتاب أن يستجيبوا لدعوة الله الكريمة لينجوا بأنفسهم من بلاء الخلاف في الله ؟ وصدق الإمام محمد عبده عندما قال في رسالة التوحيد : والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين بتفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فتزعات شياطين أو شهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه في صوابه وخطئه (ص ١٨) . .

ولكننا اختلفنا بفضلنا وجاء وقت على المسلمين اختلفوا في أسماء الله وصفاته وساورتهم نزعات الشياطين وشهوات السلاطين فكان مانرى مما جرى عليهم من بلاء .

وما كان بحاجة إلى خلاف فإن القرآن أوضح من الشمس في هذا

الخصوص فهو سبحانه الخالق الحق وهو وحده مصدر كل شيء وضمان كل خير وكل صفة حسنة للإنسان فإن مصدرها الله ، فالفضائل لنا صفات ولكنها في الله أسماء ، فالإنسان يمكن أن يكون كريماً ولكن الكريم هو الله والإنسان يمكن أن يكون رحيماً ولكن الرحيم هو الله ، أو قوياً ولكن القوى هو الله ، وخير ما نختتم به هذا الفصل عن التوحيد وفضائله على البشر هو قوله سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . [الأعراف ٧ / ١٨٠] .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً
وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة الأحزاب : الآيتان ٤٥ و ٤٦]

في حديث نبوي شريف أذكره بمعناه دون نصه يقول الرسول الأكرم لعمر
ابن الخطاب : إنك لن تؤمن حتى أكون أحب إليك من نفسك ، وفهم عمر
مراد الرسول واجتهد في العبادة والعمل وخدمة الإسلام وأمه ونظر إليه الرسول
مرة وقال الآن أمنت يا عمر !

وطوال السنوات التي أنفقتها في خدمة سيرة المصطفى أحسست إحساساً
متزايداً بحب له أعمق فأعمق يوماً بعد يوم ، لأن نواحي الجمال في شخصيته
ونفسه وفكره وكلامه لا تحصى ، وأبسط ما أقوله لك : إنه كان بالفعل من أجمل
الرجال هيئة . فقد كان وضئ الوجه باهر الهيئة وما رآه إنسان إلا أحبه ، لقد
وحبه الله عينيئ واسعتين فيهما دعج وعمق في النظرة ، وشعراً كثيراً كان يمشطه
ويرسله خلفه وأحياناً يرسل بعضه على منكبيه ، وقد وصفه لنا علي بن أبي
طالب وأنس بن مالك وأبو هريرة ، والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين وغيرهم
كثيرون وهؤلاء كانوا أكثر الناس احتكاكاً به ، وكلهم أجمعوا على اكتمال صورته ،
وقالوا إنه كان وسطاً في طول قامته عريض المنكبين أبيض اللون مشرباً بحمرة
وافر الشعر جميل الصوت كثيف اللحية ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم

أصغت إليه الآذان والقلوب ، وكان خطيباً بليغاً ، وكان واسع الجبين ومن أجل ماقرأت عن أوصافه أنه كان له نور يعلوه ترتاح العين لمراه ، والذي استوقف نظري هو أن الذين وصفوه وقفوا طويلاً عند شعره الجميل الوافر ، وقد روى ابن إسحق عن البراء بن عازب فقرة في حجم صفحة كلها عن شعر الرسول الأكرم .

وعندما تطيل القراءة في سيرة المصطفى تحس هذه الخصائص الشكلية ، وأنا عندما أكتب عن الرسول فإنني أراه فعلاً يبصرى وبصيرتى جميعاً ، أجل ، أراه وأتحدث إليه دون صوت ، وأشكو له همومي ، وأسأله بعد الله العون والمشورة ، ويخيل إلى أنني أرى بعين البصيرة وجهه الكريم يبتسم ، وعندما نزلت بي نازلة قاصمة ، وطال بي السهر وضافت بي الدنيا جلست منهد الحيل ، وأحسب أنني غفوت ، وأحسست كأن يداً كريمة تربت ظهري ، وصوتاً رقيقاً عميقاً بالغ الحنان يقول انهض يا فلان فلا بأس عليك ، الله سبحانه أعطاك ثم أخذ منك ، وقد أحسن إليك عندما أعطى ، وأحسن إليك عندما أخذ ، فما يحزنك من ربك الودود ذي الرحمة ؟ انهض إلى عملك وضع ثقتك كلها في الله ، وأنا معينك إن شاء الله . . . وصدق أو لا تصدق ، لقد نهضت وكأنني عوفيت من مرض طويل ، وسرت في طريقي شيئاً فشيئاً خف ما بي وزال كربى ، ومن ذلك الحين لا أذكر أنه مر بي يوم لم أقرأ فيه شيئاً من القرآن وشيئاً من السيرة ، وكان أبى يقول إنه رأى الرسول الأكرم في منامه فقلت له صفه لى ، فقال لا أستطيع لأننى فى الحق لم أره رؤية بصر بل رؤية بصيرة ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك : إننى رأيت نوراً باهراً أحسست وأنا نائم أننى أمام رسول الله صلوات الله عليه . . .

وبالإضافة إلى جمال الشكل وجلال الصورة كان عليه الصلاة والسلام فى الغاية من النظافة وحسن المظهر ، يغتسل ويغير ثوبه مرة ومرتين فى اليوم ، وكان

يجب أن يغسل ثوبه بيده ويكنس بيته بيده ، وكان يتطيب ويحب ألا يظهر للناس إلا في أبهى صورة ، ومن جميل ما أحكيه لك في هذا المقام أن الرسول ﷺ عندما رتب أمر هجرته إلى المدينة طلب إلى عبد الرحمن بن عوف أن يشتري له ولأبى بكر ثوبين أبيضين وينتظره بهما على بعد من المدينة ، وفي صباح يوم دخوله صلى الفجر وسبح لله ماشاء له التسبيح ثم اغتسل مرة أخرى ولبس ثوبه الأبيض وتعمم بعمامة بيضاء جميلة ، وكذلك فعل أبو بكر وعلى هذه الصورة الجميلة لقي أهل المدينة ، ولم يعرف الناس من رسول الله ومن أبو بكر إلا عندما رأوا أبا بكر يظلمه ويمنع عنه الشمس فعرفوا أنه رسول الله ، وكان آخر شيء طلبه قبل أن يدخل في سياق الموت هو السؤال أشار إلى أم المؤمنين عائشة فتناولته إياه فغسل أسنانه ثم مضى للقاء ربه .



والآيات التي اتخذتها محوراً لهذا الحديث ، تحدد لنا صفاته الأساسية ورسالته وحدودها ، وما ينبغي علينا نحوه ، والإسلام يقوم أساساً على وحدانية الله ، والوحدانية الإلهية موصوفة وعددة بأجلى بيان في القرآن الكريم . وقد تحدثنا عن الله سبحانه وعن القرآن الكريم ، وهذه المرة نتحدث عن رسول الله الذي اختاره سبحانه ، وأعدّه للرسالة ، وكمله بالفضائل والملاكات والمواهب والقوى التي تمكّنه من حمل الرسالة وإبلاغها الناس على خير وجه ، وهنا وعندما نتحدث عن رسول الله ﷺ نجد أن القرآن معجزة الله الكبرى ، ومحمد نفسه معجزته التالية ، فأنت كلما قرأت عنه زدت له حبا به وإعجاباً ، وتبينت شيئاً فشيئاً أنه صلوات الله عليه معجزة حملت معجزة ، وقامت بمعجزة كما سنرى ، والآن نأتى بالآيات على تواليها لنرى مصاديق ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَبَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا لَهِمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ [الْأَحْزَابُ ٣٣ / ٤٥ - ٤٧] .

ولفظ « شاهد » الذى بدأ به الله سبحانه وصف رسوله من الألفاظ القرآنية
أى تلك الألفاظ التى تأتى فى القرآن بمعان إسلامية متعددة كلها تحمل شيئاً من
التقى أو معنى من معانيه مثله فى ذلك مثل الإيمان واليقين والبيئة والقلب
والنفس والروح .

والشاهد فى القاموس الوسيط هو من يؤدى الشهادة والدليل ، ولكننا نقرأ
فى تفسير ابن كثير ، وقوله : شاهداً أى : الله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى
الناس بأعمالهم يوم القيامة « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » كقوله ﴿ وَلِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة ١٤٣ / ٢]
(تفسير ابن كثير ٤٢١ / ٦) وأرى أن ابن كثير لم يضع يده هنا على المعنى المراد
فى تلك الآيات وإلا فكيف سنكون نحن المسلمين شهداء على الناس ؟ وأقرب
إلى المعقول أن يكون الشاهد هنا بمعنى الدليل والمثل . فيكون الرسول دليلنا
والمثل الذى نفتدى به ، ونكون نحن أدلة للناس ومثلاً ، وبقية الصفات الواردة
فى الآية واضحة ، ولكننا نقف لحظات عند قوله : « سراجاً منيراً » فإن الله
سبحانه يريد منا أن نتخذ الرسول سراجاً ينير لنا سبيل الحياة ، وهو إذا كان فى
حياته مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه ، فهو بعد وفاته وإلى آخر الدهر سراجنا
المنير الذى نتبع هداه وخطاه ونتخذها مثلاً (شاهداً) فى كل مانعمل .

وهذه هى الصفات التى اختارها الله لرسوله وهى الأئمة به ، فلا يجئنا بعد
ذلك رجل ويصف رسول الله ﷺ بأنه رئيس دولة ، لأن هذه وظيفة سياسية
ورئيس الدولة فى الغالب يهوى الرئاسة ويسعى إليها ، وهو قد يخطئ أو يميل
مع الهوى ورسول الله أرفع من هذا كله ، وكذلك لا يجوز أن نقول : محمد
السياسى أو الدبلوماسى ، لأن السياسة فيها خداع وسعى إلى غايات دنيوية ،
والدبلوماسية تدخل فيها المداينة والكذب والخداع ، وكل شئ جائز فى سبيل
الغاية عند أهل السياسة والدبلوماسية ، ولا يصح أن نقول : محمد القائد

العسكري أو عبقرية محمد العسكرية ، لأن وظيفة القائد هي تحطيم الأعداء وتهديم ديارهم والحصول على النصر بأى سبيل ، ورسول الله بعيد عن هذا كله . ومن يقرأ حياته يجد أنه قاد الناس في الحرب ولكن في حدود خصائصه كشاهد ونذير وبشير وداع إلى الله بإذنه .

حتى بشرية الرسول ﷺ مشروطة دائماً برسالته ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ۖ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۖ ﴾ [الكهف ١٨ / ١١٠] .

فالبشرية هنا مرتبطة في محمد بالوحي الذى يتلقاه ، والوحي الذى يتلقاه لبابه أن إلها واحد ، ويقول بعد ذلك « فليعمل عملاً صالحاً » وأصلح العمل عبادة الله وتوحيده وعدم الشرك به .

وفي سورة الإسراء نقرأ : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء ١٧ / ٩٣] ولكن اقرأ معنى هذه الآيات ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ ۚ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٨] .

فهنا يقرر الرسول أنه لا يعلم الغيب ، لأن معرفة الغيب لله وحده ، والرسول لا يشرك الله في صفة من صفاته ، وهو يقول ببساطة ترويع النفس ﴿ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ ﴾ وإنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وإنه نذير وبشير لقوم يؤمنون ، فتعجب معى كيف أن تاريخنا وعلما الإسلامى حافل بناس وضعوا أنفسهم فوق مرتبة الرسول جاشا لله وزعموا أنهم يعلمون الغيب ، وأنهم يحمون أنفسهم وغيرهم من سوء ، لأن لهم عند الله سبحانه مكانة تجعلهم أصحاب شفاعة ، وتدخل في المشيئة ، ومنهم من قال إنه يمشى على الماء أو يطير في الهواء . وهم يستنزلون من الله البركات ،

ويصنعون المعجزات ، وما من قرية في عالمنا الإسلامى إلا وفيها ضريح لرجل أو أكثر لإنسان من هؤلاء ، وكلهم كان يزعم أنه يأتى من الخوارق والمعجزات ما لم يتحدث به الرسول عن نفسه ، ومن المؤمنين غير المتقين طبعاً من يزعمون أن الشيخ الفلانى يرى الوجه البحرى ، والشيخ العلانى يحمى بركاته الوجه القبلى ولولاه لسقطت السموات على الأرض ، بل هناك من يزعمون أن لرسول الله - وحاشا - حديثاً يقول فيه ما معناه : « إن لله عبداً أعز عند الله مكاناً من الرسل والأنبياء بل يحسدهم الأنبياء والشهداء والصديقون لمكانهم من الله » ، ونتيجة لهذا أن عالمنا الإسلامى هذا يحكمه هؤلاء الأموات ، واقرأ ياسيدى طبقات الصوفية للشعرانى لترى أنهم يقولون - ضمناً لا صراحة ، أعز مكاناً عند الله سبحانه من رسول الله ، فإن الله لم يكشف لرسوله ومصطفاه الغيب ، ولكن حضراتهم يعلمون الغيب ، واسمع هذه الحكاية التى لا تصدق عن نظرة هؤلاء المسمون بالأولياء إلى أنفسهم ، ورفعهم مكانهم فوق مكان المصطفى صلوات الله عليه ، والحكاية فى كتاب أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد وهو أبو سعيد بن أبى الخير الميهمى ، وهو من صوفية فارس من أهل القرن السادس الهجرى ، وكانت فارس إلى ذلك الحين أهل سنة (ص ١٢٨ - ١٢٩) ، وقال أبو عثمان الخيرى : « رأيت فى منامى ذات ليلة أن الشيخ أبا سعيد يتحدث فى زاويتى ، وكان صاحب الشرع المصطفى صلوات الله عليه جالساً على الجانب الآخر من المنبر ، ولم يكن الشيخ يلتفت إليه وجال بخاطرى أنه لأمر عجيب ألا ينظر الشيخ إلى صاحب الشرع ، فالتفت إلى الشيخ فى الحال ، وقال لى ليس هذا وقت النظر إلى الأغيار هذا وقت الكشف والمكاشفة » أعاذك الله وأعاذنا من بلاء هذا وأمثاله .



ولقد نسب أهل العصور الماضية إلى الرسول الكريم معجزات كثيرة . ولكن

معجزته الكبرى في رأى هي إتمامه عمله الذى غير وجه التاريخ على النحو الذى أتته في عشر سنوات هجرية تقريباً ، لقد أوحى عليه الرسالة وقال له :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل ٨٢ / ١٦] .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْا مُدْبِرِينَ وَمَا نُنْتِجُ بِهِ إِلَّا نَجْمًا يُضْهِى سَنَاالِئِهِمْ . إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [الروم ٣٠ / ٥٢ - ٥٣] .

﴿ مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ اطَّاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴾ [النساء ٨٠ / ٤] .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ [الأنعام ١٠٤ / ٦] .

﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمَصْيطِرٍ ﴾

[الغاشية ٨٨ / ٢١ - ٢٢] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف ١٨ / ٦] .

وآيات أخرى كثيرات حددت رسالة الرسول بالبلاغ . إن عليه البلاغ وعلى الله الحساب .

وهذه هي حدود رسالة محمد صلوات الله عليه .

وكل الأنبياء قبل رسول الله وقفوا عند حد التبليغ إلا محمداً .

فقد أبنت نفسه العظيمة إلا أن يبذل أقصى جهد في إقناع الناس بالحق . وإذا قرأت أخبار جهاده مع أهل الشرك في مكة زدت بهذا الرسول إعجاباً له ومحبة ، فهذا رجل لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً ، إنه لا يدع أحداً إلا ذهب

إليه ودعاه . ودخل مرة على عبد الله بن أبي بن سلول ، وطفق يقرأ له القرآن فيقول هذا الجلف القاسى : يا محمد ابق مكانك فى دارك ، ومن أحب أن يسمع منك فليركب إليك ، ولكن لا تدخل على الناس وترغمهم على سماعك ، وكان رسول الله يستطيع أن يخسف به الأرض ، ولكنه صمت ثم نهض وسار .

وكان المكيون يؤذونه ، وهو يستغفر لهم ويستمر فى الدعوة حتى يحار أعداؤه فى أمره وهو واحد ، وهم كثيرون وعساك لا تحسب أن المكيين المكابرين كانوا كلهم أغبياء ولا رجالاً صغاراً ، فقد كان فيهم فى الحق رجال ذوو عقول وأفهام وأحلام : وكانوا يجادلون الرسول جدلاً يدل على ذكاء ، فما زال بهم حتى ألجأهم إلى الحائط وملأ قلوبهم رعباً منه مما يقول ، وأبو جهل الذى يزعم الناس عندنا أنه كان أحمق معتوهاً ما كان فى الحقيقة إلا سيذاً جاهلياً واسع العقل ، وكل عيبه أنه كان يخشى على مركزه وماله من الإسلام ، ورسولنا ﷺ أرهقه بإصراره على دعوته ، والرسول كان يسأل الله أن يعز الإسلام بأحد العمرين ، وعمر الأول هو ابن الخطاب الذى أكرمه الله بدخول الإسلام ، والثانى هو أبو الحكم عمرو بن هشام بن المغيرة المشهور بأبى جهل ، وهذا الرجل الذى طبع الله على قلبه انتهى به الأمر إلى الخوف من رسول الله مخافة أن يدعوه ، وفى النهاية وقرب الهجرة إلى المدينة يراه الرسول فيسرع إليه ويقول : أما آن لك يا أبا الحكم أن تفتح للإيمان قلبك ، ويكون رد الرجل المفزوع : أما تريد أن نقول إنك بلغت فقد بلغت وولى هارباً وهل قرأت قول الله فى سورة المدثر :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَانَهُمْ حُمُورٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر ٧٤ / ٤٩ - ٥١] .

وهل سألت نفسك من هم الحمر المستنفرة النافرة التى ولت هاربة ؟ هم عتاة مكة الأغنياء المستكبرين ، ومن هو القسورة ؟ من هو الأسد الذى فروا أمامه ؟ إنه ياسيدى محمد رسول الله ﷺ . إنه محمد الذى زلزل قلوب

الأغنياء بإيمانه وبسالته وإصراره وذكائه وبلاغته .

إنه يضرب لنا بهذا مثلاً في الشعور بالواجب والقيام به .

فأين نحن من هذا المثل العظيم ؟ ولكننا نزعم أننا على سنة محمد وأين نحن من سنة محمد ؟

ثم تكون الهجرة إلى المدينة ويبدأ العمل الشاق في بناء الأمة وهدايتها وضرب المثل الأعلى لها ، وهنا يبذل محمد من الجهد مالا يصدقه عقل ، فخلال عشر سنوات غزا محمد أو أرسل أربعاً وثمانين غزوة وسرية وبعثاً ، أى بمعدل أكثر من ثمان من المغازي في السنة الواحدة ، ولا تتصور أن أصدر مرة أمراً إلى أحد بالاشتراك في المغازي ، لقد كان يضرب للناس المثل بنفسه فيستعد للغازية ، ثم يخرج بنفسه ويتنظر خارج المدينة يوماً ليتلاحق به الناس ، وفي سراياه لم يكره أحداً على الخروج . . بل كان يختار قائد السرية ويعطيه تعليماته ويكمله بعد ذلك إلى نفسه ، فإذا خرجت السرية ظل رسول الله قلقاً عليها مترقباً أخبارها ، وأحياناً كان الاهتمام بالمجاهدين يدفعه إلى أن يخرج إلى خارج المدينة يستطلع أخبار جند الإسلام ، وفي أثناء ذلك كان يتعهد أهل الخارجين في السرية بالعناية والرعاية ويوحى إلى أهل المقدرة من أصحابه بأن يرسلوا لأهل الرجل وأولاده الطعام ، فإذا عادت السرية وعرف الرسول من استشهد ومن جرح ، ذهب للتعزية والمواساة بنفسه . وأحياناً تخرج سريتان في وقت واحد فيكون تفكيره في الاثنين ، وعندما أصيب أهل سرية بثر معونة وجد الرسول عليهم وجداً شديداً حتى كان يبكيهم في صمت ، ولم يزل حتى عاقب من قتلهم .

وفي أثناء ذلك كان يتلقى الوحي ويبلغه للناس ، ويملي الآيات على كتابه ويشرح للناس معانيها ، فإذا كانت في الوحي عبادات قام معلماً وشارحاً ومبيناً للناس حدود الله . وكان يقضى الوقت كله في حركة دائمة ، فما كان محمد ينفق دقيقة من وقته دون عمل ، فهو دائماً في شغل بشأن من شئون الإسلام وأمته ،

وممرض مؤمن إلا عاده ، ومامات منهم واحد إلا مشى فى جنازته وحضر دفنه .
وفى أثناء ذلك كله كان ذهنه فى كل ركن من أركان الجزيرة وفى كل ناحية من
نواحي الدنيا ، لأنه كان يحس أن واجبه هو إدخال أهل الأرض جميعاً فى دين الله
وهذا كله فرض عليه أسلوباً من الحياة لا يقتدر عليه إنسان إلا بعون عظيم من
الله . فقد كان منظماً إلى أقصى مايمكن أن يكون عليه البشر من تنظيم الوقت
والمحافظة على الدقائق ، والذين يصورون لك رسول الله جالساً ساعات ومن
حوله أصحابه لا يعرفونه . والذين ينسبون إليه الكلام الكثير يعرفونه أقل ، فقد
كان رسول الله يحسن الكلام ويحسن الصمت ، ويصمت طويلاً جداً ليصغى
ويسمع ويعرف ، وكان إذا تكلم قصد إلى الغاية بأقل لفظ . أما بلاغته فى
الكلام فأنت تعرف عنها أكثر منى ، والذي أحب أن أضيفه هنا هو بلاغته فى
الصمت وهى بلاغة لم يعرفها المسلمون .

وهذا الرجل الذى لم ينم منذ وصل المدينة أكثر من ثلاث ساعات أو أربع
فى اليوم كان أملك الناس لنفسه . فى حياته ماشكا ولا ركن إلى راحة أو تشهى
طعاماً بل كان يأكل ما حضر دون تكلف ، والذين يقولون إنه خرج من الدنيا
دون أن يشبع من خبز الشعير زهداً فيه يتحدثون عن رسول آخر لا عن رسول
الله . ولقد حكى خادمه أنس بن مالك أنه لم يرفع صوته على أحد طوال حياته
ولا نطق بكلمة تجرح شعور أحد من حوله ، وكان الناس يثقلون عليه
وينادونه من خارج حجراته ، وهو مستريح فى غرفته فلا يغضب ويخرج إليهم
فيطعموا ثم يظلموا فى البيت ، وكان لفرط حياته لا يأذن لنفسه فى أن يلفت نظر
أولئك الناس إلى سوء فعلهم حتى جاءه الله بفضل من ذلك كله بآيات كريمة
فيها تهذيب أولئك القوم وتهذيب للأمة كلها ، والذين يزعمون أنهم يتبعون سنة
المصطفى ينسون أن رسول الله ﷺ لم يطلق امرأة فى حياته حتى عندما كان نساؤه
يغضبهن لم يفكر فى الطلاق وعمر طلب إليه أن يطلقهن جميعاً ، ولكن رسول الله

صبر وكظم غيظه حتى أتاه الله بالحلل الأمل .

وهذا كله كلام أسوقه لأولئك الذين يزعمون أنهم أهل السنة السمحاء وأنهم على نهجها ليعلم الكثيرون منهم أين هم من السنة التى يتحدثون عنها وربما عاشوا منها .

واليك حكاية عن رسول الله أحكيها لك عن الواقدي لتعرف أى رجل كان وكيف كان منهجه فى إقناع الناس بفضائل الإسلام ؟ لا بالكلام ولكن بالقدوة الصالحة يضربها فتكون أبلغ من كل مقال .

كلنا نعرف صفوان بن أمية وما كان من سوء موقفه من الإسلام وخاصة يوم الحديبية ، حتى ليعد من أئمة الكفر والعناد ، فلما فتحت مكة أيقن الرجل بالهلاك على يد الرسول فهرب إلى الشعبية ليفر إلى الحبشة ، وذهب صاحبه وهب ابن عمير ، وكان أيضاً من عتاة أهل الكفر ، ولكن رسول الله عفا عنه فأسلم ، وأكد وهب بن عمير لصفوان أن رسول الله سيعفو عنه إذا جاءه ، وقال مخاطباً صفوان جعلت فداك ! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس ! وأكد له أن رسول الله وعده بأن يؤمنه ، وأتى معه صفوان وإنه لخائف يرعد ، فلما وصل مكة كان رسول الله يصلى بالمسلمين العصر . فجلس ينتظر ، فلما لقي رسول الله قال : يا أحمد ! إن وهب بن عمير جاءنى ببردك ، وزعم أنك دعوتنى إلى القدوم عليك : فإن رضيت أمراً وإلا سيرتنى (أمهلتنى) شهرين . فقال : انزل أباً وهب (كنية صفوان) قال : لا والله حتى تبين لى ، قال : بل تسير أربعة أشهر (كان قد طلب مهلة شهرين فأعطاه الرسول أربعة) فنزل صفوان ، وخارج رسول الله ﷺ إلى معركة هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر ، وأرسل إليه الرسول يستعير سلاحاً (وكان من حق رسول الله أن يأخذ منه كل سلاحه) فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها فقال (صفوان) طوعاً أم كرهاً ؟ قال رسول الله ﷺ عارية مؤاده . فأعاره ، فأمره رسول الله أن يحملها إلى حين .

فشهد حينئذ والطائف ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة بعد نصر حنين
 فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية ، جعل
 صفوان ينظر إلى شعب (حظيرة صغيرة) ملىء نعماً وشاء رعاء ، فأدام إليه النظر
 ورسول الله ﷺ يرمقه ، فقال : أبا وهب ! يعجبك هذا الشعب ؟ فقال نعم !
 قال : هو لك بكل ما فيه . فقال صفوان عند ذلك : ما طابت نفس أحد بمثل
 هذا إلا نفس نبي . أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ! وأسلم
 مكانه (مغازى ٢ / ٨٥٤ - ٨٥٥) .

أعرفت الآن من هو محمد ؟ إننى لو أمضيت أحكى أياماً ما أنتهيت ولا أنت
 شبت ، فإن حديث محمد ﷺ أجمل حديث وأحفل حديث بالموعظة والحكمة
 والخير . وخير ما أختتم به هذا الحديث عن رسول الله الرحمة المهداة تلك الآيات
 التى خاطب الله بها رسوله الكريم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ
 فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ .
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾
 [آل عمران ٢ / ١٥٩] .

الآن وأنا أختتم هذا الحديث أحس اليد الكريمة تربت ظهري ، ويخيل إلى
 أننى أسمع الصوت الرقيق العميق بالغ الحنان يقول : انهض يا فلان لا بأس
 عليك وربك الكريم أعطاك ، وربك الكريم أخذ منك ، وقد أحسن إليك
 عندما أعطى ، وأحسن إليك عندما أخذ فما يحزنك من ربك الودود ذى الرحمة ؟
 انهض وضع ثقتك كلها فى الله ، وأنا معينك إن شاء الله !



﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمُ
مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة البقرة : الآية ٣٦]

حديثنا هذه المرة عن آدم عليه السلام وخروجه من الجنة – عالم الخلد
وهبوطه إلى الأرض – عالم الصراع والتعب والشروع والموت .

والحكاية واردة في التوراة والعهد القديم .

ولكن شتان ما بين الصورتين .

فهنا في القرآن وفي كلام موجز بديع ، نرى الوجه الجميل لمأساة الهبوط على
الأرض ، هنا نجد الله الرحيم يرفق بآدم ولا يغضب عليه ، وإنما يتوب عليه
ويزوده بكلمات مباركات ، فيهبط إلى الدنيا مغفوراً له مرضياً عليه من ربه .

وعندما يضل بنو آدم ويفسدون في الأرض وتشاء رحمة ربك أن تطهر الحياة

على الأرض بالطوفان الذى أهلك الفساد وأهله ، واستبقى نوحاً لكى يكون تجديد الحياة على الأرض على يديه يقول سبحانه :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ . وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

[هود / ١١ / ٤٨]

فهنا أيضاً يرفق الله على بنى آدم مرة أخرى ، فيعم نوحاً ومن نجا معه فى الفلك بالبركات .

أما هناك فى سفر التكوين من العهد القديم ، الذى يضم قسماً كبيراً من التوراة فنجد الغضب الإلهى يهبط على البشر ، وآدم وزوجه ينزلان إلى الأرض ملعونين هما وذريتهما يحملان على كتفيهما وزر الخطيئة التى ارتكبا ، وخطيئة آدم تلزم البشر أجمعين حتى يريد ربك - حسن الأناجيل - أن يرفع اللعنة عن بنى آدم فتكون قصة تجسد الله - (حاشاه) - وما يتصل بذلك من القول بالصلب وخلاص أولئك الذين يتبعون عيسى عليه السلام من اللعنة ، أما الباقون فمكتوب عليهم الخلود فى الشقاء - ، وهنا - على طول سفر التكوين - نجد الغضب واللعنات والجنس والخطيئة ، وفى أواخر هذا السفر نجىء حواء وتوضع على كتفيها ، وعلى رأسها تحمل اللعنة الكبرى ، فهى التى وسوس لها الشيطان وهى التى وسوست إلى آدم ، وأغرته بالأكل من الشجرة ، وهى إذن صاحبة المصيبة كلها ، وهنا أيضاً تدخل الحية ، والحية وحواء والحيا (الجنس) من أصل واحد أو هى كلها شيء واحد . . .

وهذا الشقاء كله لماذا ؟

لأن آدم وامراته أكلتا من الشجرة .

وماهى هذه الشجرة ؟

وهنا أيضاً وفى القصص الكثير الذى حيك حول ماورد فى سفر التكوين ، نقرأ أنها شجرة المعرفة ، وأن الله حرم على آدم وزوجه أن يقرباها ، لأنه كان يريد أن يتفرد بالعلم ، وآدم عندما أكل من الشجرة تحطى حده ، وأراد بوسوسة من إبليس أن يشرك الله فى علمه ، فحلت عليه اللعنة وطرد من الجنة ، وهبط إلى الأرض ملعوناً شقيئاً .

وهنا أيضاً - مع الأسف - نجد بعض أصحاب التفاسير يحفنون من سفر التكوين وماحوله حفناً ، ويشوشون أذهاننا بإسرائيليات تخرجنا عن صفاء السياق القرآنى البديع ، وخير مانقرأ عن الأكل من الشجرة نجده عند ابن كثير إنه اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم ، أما نوع هذه الشجرة ، فأمر ثانوى لأن الشجرة هنا رمز إلى واجب الطاعة المطلقة لله وعدم الإصغاء إلى همسات الشيطان وهمسات الشيطان هى باب البلاء كله .

وقد كان آدم وامرأته يسكنان الجنة فى ظلال الرحمن ، والجنة هى عالم الخلود وكان آدم وزوجه يعيشان فى الجنة لا يعرفان شيئاً اسمه الموت ، لأن الموت أرضى ، ومادام لم يكن هناك موت فى الجنة فلا لزوم للإنجاب أو للمحافظة على النوع ، ولهذا فإن آدم وحواء لم ينجبا فى الجنة ، فلم يكن لديهما إحساس بالجنس إنما هما أحسا بذلك بعد أن أكلا من الشجرة ، ولهذا فإننا نقرأ فى سورة طه :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ . فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ فَوَسَّوهُ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبُلَىٰ . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا

سوءَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى
 ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى . قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْى هَدَى فَمِنْ اتَّبَعَ هُدَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .
 وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ .

[طه ٢٠ / ١١٥ / ١٢٤] .

وهذه هى حكاية المهبوط من الجنة وكل مايتصل بها مسوقة أجمل سياق
 وأعذبه وأحفله بالحكمة والمعانى . فالآيات تبدأ بالتماس العذر لآدم فى خطئه
 لأنه بشر لا عزم له ولا قوة على الصمود لاحتياال إبليس ، ثم هى تقص حكاية
 إبليس الذى أبى أن يسجد لآدم ، والغريبون يقولون هنا إن إبليس تحدى الحق
 سبحانه ، ولكنه فى الحقيقة تحدى الإنسان ، لأن الحق سبحانه لا يتحداه أحد ،
 ودليلنا فى هذا أن القرآن يحكى الحكاية نفسها فى سورة البقرة ، وهنا نقرأ فيما
 يتصل بعصيان إبليس :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا
 تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ : لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ
 حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ
 الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى
 يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ رَبِّمَا أَغْوَيْتَنِى لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ
 وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

[سورة الحجر ١٥ / ٣١ - ٤٠] .

ونجمع الآيات بعضها إلى بعض فيتجلى لنا عمق الحكمة الإلهية ، فأدم
 كان فى الجنة يحيا حياة لا جوع فيها ولا ظمأ ولا عرى ولا حرور ولا جنس أبضاً ،

وإبليس أكلته الغيرة من آدم لأن الله عهد إليه ، ولكن آدم لم يملك العزم على الوفاء بالعهد ، وهذا أمر كان إبليس يعرفه فأبى واستكبر لأنه كان يرى أنه أفضل من آدم ، لأن الله خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون أو من تراب ، أما إبليس فقد خلق من مارج من نار ، وهو يحسب أنه بهذا أظهر وأعلى من آدم .

وكارل بارت أعظم اللاهوتيين البروتستانت في عصرنا يسأل هنا : من أى تراب خلق الله آدم ؟ إننا في الجنة وملك الله واسع . وكان قديراً أن يهبط آدم إلى المريخ أو المشتري أو أى كوكب آخر من خلقه ، ثم يجيب قائلاً : من تراب الأرض طبعاً ، لأن الله كان يعلم في غيبه أنه سيهبط آدم إلى الأرض ، فينبغى أن يكون مخلوقاً من ترابها حتى يستطيع أن يأكل من نباتها وحيوانها ، وعندما يموت يعود جسده إلى التراب الذى خلق منه ، ونستطرد مع كارل بارت لكى نضيف إلى علم القارئ أشياء تخرج عن نطاق ما يعرفه تقليداً ، فنجدته يقول : إذا كان آدم يعيش في الجنة حياة فردوسية لا أكل فيها ولا شرب ، فكيف أكل من الشجرة ؟ والجواب أن آدم عندما استمع إلى وسوسة الشيطان وأقبل على معصية ربه بدأ يخرج عن طبيعته الفردوسية ، ونبض فيه عرق الأرضية التى خلق من ترابها ، وبدأت مسيرته إلى الأرض فعرف الأكل ، وعندما أكل تحول إلى بشر هالك ، ومادام قد تحول إلى بشر هالك فقد دب في كيانه الجنس لكى يستطيع المحافظة على نوعه في الأرض التى سينزل فيها ، وبدت له ولامرأته سواتها وأحسا بالحياء فطفقا يخصفان عليهما من ورق الشجر ، ومادام قد عرف الجنس فقد عرف العداوة ، لأنها ظاهرة أرضية ، وفي أثناء ذلك وجد نفسه على الأرض وسط السباع والوحوش والآلام والصراع .

ويتناول الموضوع كله كاتب عبقرى هو يوهان فولفجانج جيته فيجعل منه رواية شعرية من أجل وأبداع ماخطت يد إنسان ، لأنه يأخذ موضوع إغواء إبليس لآدم وينتقل به إلى الأرض ويصور لنا مأساة الإنسان مع الشيطان المركب

في كيانه ، وجيته هنا يأتى بمعنى جديد لأنه يجعل الشيطان جزءاً من كيانه نفسه ، والعالم المسن فاوست الذى قضى عمره في مكتبته باحثاً عن العلم والمعرفة لم يكن يعرف أن الشيطان راكد في كيانه ، والعلامة نفسه اسمه مفستوفيلس فاوستوسى ، فانشطر كيانه نصفين وأصبح مفستوفيلس هو الشيطان وفاوست هو الإنسان ، ويبدأ الشيطان في إغراء الإنسان العلامة ذى اللحية البيضاء المسترسلة والجسد البالى ويخاطله بفتاة جميلة في عز صباها هي هيلينا ، ويسقط العلامة في الشرك ويتعلق قلبه بالبنت ، وهنا يعقد معه الشيطان صفقة ، يشتري منه بها روحه في مقابل أن يرده إلى شبابه ويمكنه من هيلينا . ويستسلم الإنسان للشيطان ، فيرده إلى الشباب فعلاً وتدب في جسده العافية ويأخذ في السعى وراء البنت - التى هي الدنيا وتكون النتيجة أن يعتدى على البنت ثم يقتلها ، والشيطان يدفعه في حمة الرذيلة أبعد فأبعد ، وينتهى الأمر بموته على أسوأ صورة لأنه باع روحه واتبع خطوات الشيطان .

وهذا هو مصير الإنسان إذا هو باع روحه واستسلم للشيطان . والحقيقة أن حياة الإنسان على الأرض تحد للإيمان والفضيلة فيه ، فإذا هو أفلح في التغلب على الشيطان الكامن في نفسه أفلح ونجح وإلا فشل وأمه هي الهاوية .

ثم يأتى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى فيفسر التاريخ كله على أنه تحد ورد على التحدى Challengedond response ومستقبل الإنسان أو الجماعة متوقف على نوع الاستجابة ، فهناك استجابة سلبية ، وهي الاستسلام للظروف والقعود على السعى ، وهنا يتوقف التقدم وتعطل مسيرة الحضارة ، وهذا النوع من الشعوب هي الشعوب المتأخرة المستضعفة المستعمرة ، وهناك الاستجابة الإيجابية ، وفيها يقف الإنسان أو الشعب على قدميه ، ويثبت للتحدى ثم يتغلب عليه ، وهنا ينجح الإنسان أو الشعب ويتقدم الإنسان أو يقوى الشعب ، ويثبت وجوده وتتقدم الحضارة ، وتوينبى يقول إن الشعوب الناجحة شعوب فاوستية أى أنها

تستجيب للتحدى وترد عليه رداً إيجابياً ، والحضارة الأوروبية في نظره حضارة فاوستية .

ونعود إلى الآيات القرآنية التي اتخذناها أساساً لهذا الحديث عن هبوط الإنسان إلى الأرض ، وهذا الهبوط في الإسلام مبارك ، لأن الله سبحانه غفر لآدم ذنبه وتاب عليه وخلصه من وطأة ما يسمى في بعض الأديان الأخرى بالخطيئة ، فالمسلم يخرج إلى الدنيا حراً طليقاً صافى النفس مرتبطاً بالله الذي رحمه ورفق به وتاب عليه ، ثم رسم له طريق الفضائل وهو الهدى ، وأرسل إليه معلمين وهداه يقودونه في طريق الصراع الذي فرض عليه منذ هبط إلى الأرض ، وقد ميزه الله على غيره من المخلوقات بالعقل أولاً . ثم بالعلم ثانياً ، فأما العقل فأمره معروف ، وأما العلم فإن الله سبحانه ميز آدم منذ كان في الجنة بجانب من العلم يمكن له من اكتشاف طريق الخير ويفتح عينيه إلى أن لعلم هو سبيل الإنسان لمعرفة الله ، ومعرفة الله سبحانه هي أساس كل فلاح وبداية لكل تقدم ، والملائكة عندما سألت الله سبحانه كيف يفضل آدم عليها ويجعله في الأرض خليفة مع أن الملائكة تسبح بحمده وتقديس له كان الجواب أن الله فضل آدم بالعلم قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

[البقرة ٢ / ٣٠ - ٣٣] .

وللفقهاء آراء شتى في المراد بالأسماء ، وكلها ترتبط بحرفية اللفظ فهي أسماء

الملائكة أو أسماء كل المخلوقات ، ومن أمثلة أقوالهم في ذلك قول زيد بن أسلم أن آدم قال : أنت جبريل . . أنت ميكائيل . . أنت إسرافيل ، حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب .

وهذه كلها تفسيرات لا تشفى الغلة ، والصواب فيما نظن أن الله ألقى في صدر آدم شيئاً من علمه ووصفه بذلك عن طريق العلم ، ودفعه إلى طلب العلم وإلى أن العلم هو الطريق إلى معرفة الله ، وهذا الطريق هو الدين ، فإن الدين نفسه لا يستقيم إلا بالعلم ، بل الدين كله علم .

وفي القرآن الكريم آية تعطينا حلاً لمشكلة كبيرة تعرض لنا كل يوم ، وهى المسألة التى أثارها مثالس داروين عندما تحدث في كتاب « أصل الأنواع » عن التطور وقال : إن المخلوقات تتطور أى تتغير وتشكل بحسب الظروف والبيئات وداروين لم يقل قط إن الإنسان منحدر من القرد ، وإنما قال بذلك الداروينيون وفرق بعيد بين داروين والداروينية ، فإن هؤلاء الأخيرين هم الذين أخذوا نظرية داروين وذهبوا في تطبيقها مدى بعيداً . خرج بهم عن الحد المأمون ، والآيات التى أقصدها هى قوله تعالى في سورة التين : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ . أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين ٩٥ / ٤ - ٨] .

فالله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم وأدخله الجنة ، وفيها كان مخلوقاً فردوسياً جميلاً طاهراً نقياً وعابداً لله ، ثم وقع في الخطيئة فأخرجه الله من الجنة وأهبطه إلى الأرض ورده أسفل سافلين في الأرض ، وهنا أصبح حيواناً أرضياً استيقظت فيه الشهوة وعرف الجوع والعطش والخوف ، وكان عليه أن يتخذ أساليب الحياة على الأرض ، وهى أساليب عند وصراع عنيف ونبت له

شعر طويل لكى يحميه من البرد وأظافر طويلة وأسنان حادة أى أنه أصبح شيئاً آخر غير آدم الجنة ، وهنا يلتقى آدمنا الأرضى البشع بآدم الذى تصوره دراسات ما قبل التاريخ والاييجيولوجيا ، وهنا تلتقى نظرة الدين بنظرة البشر ، ويبدأ آدم الأرضى هذا فى تسلق سلم الحضارة فى بطاء بالغ .

وفى الجنة لم يكن آدم يستخدم عقله بل قلبه ، فهذا عالم طاهر بلا مشاكل هنا يسبح الخلق جميعاً لله . أما عندما أهبط إلى الأرض فقد انقضت قرون قبل أن يَنْتَبِه الإنسان إلى أن له عقلاً يستطيع أن يحل له مشاكله ويسهل له الحياة وسط الكواسر والوحوش وعوامل الطبيعة القاسية ، فبدلاً من أن يجرى ساعات وراء حيوان ليصيده يستطيع أن يرميه بحجر أو يصنع حربة تعينه على التغلب عليه ، وهو عندما اكتشف العقل وتمكن من الاهتداء إلى الاختراعات الأربعة الأولى ! وهى استخدام النار وعمل الفخار والزراعة والنسيج تحرر من جانب كبير من المتعب والأخطار التى كانت تحيط به ، وانتقل من عالم الخوف والصراع المرير والرحلة الدائمة والنوم فوق الأشجار أو فى الكهوف إلى مرحلة الاستقرار ، ومع الاستقرار يسرع مسير الحضارة ، وهنا وعندما تمكن من إنشاء كوخ يأويه هو وأسرته وسط قطعة أرض يزرعها هو وامراته وأولاده واختزن الحبوب والمياه فى الجرار والخوابى ، اتسع وقته للتفكير وارتقى سمعه وبصره الحيوانيان إلى سمع وبصر إنسانيين ، فرأى الجمال وعرف الحب والفن والجمال ، وهنا أيضاً نبض فيه الضمير فبدأ يحس بالرحمة والمودة ، وهذا كله وارد فى القرآن ، واقرأ معى الآيات الأولى من سورة الإنسان :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً . إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ .

[الإنسان ٧٦ / ١ - ٢]

وهنا ، وقد نضج عقل الإنسان شيئاً أعانه الله فأنبض في قلبه الشعور بالخير والشر ، ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

[الإنسان ٣ / ٧٦] .

وفي سورة البلد نقرأ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد ٩٠ / ٤] .
ونقرأ بعد ذلك : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد ٩٠ / ٨ - ١٠] .

أجل . فأمام الإنسان الآن نجدان أى طريقان ، طريق الضياع والارتداد إلى الجاهلية الحيوانية وطريق الصعود في معارج الإنسانية ، وهذا هو طريق العودة إلى الجنة ، طريق العودة إلى الله . عندما هبط آدم إلى الأرض أعطاه الله كلمات وتاب عليه ثم تركه يشق طريقه في عالم الأرض والصراع في سبيل البقاء ، والآن وقد هداه إلى عقله ، والعقل ثبته على الأرض وأشعره بالقوة والأمان ، ثم استقوى وبدأ يطغى ، وهنا ينبهه الله إلى سوء مغبة الطغيان والغرور ويضعه أمام الاختيار الصعب بين نجد الغواية ونجد النجاة والارتفاع إلى المستوى الذى يستطيع به أن يعود إلى الجنة ، وهو طريق طويل عسير فيه تضحية بالمال أو النفس ، فيه التخلي عن الأنانية ، وفيه الرحمة والجود بالمال في سبيل الله :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .

[البلد ٩٠ / ١١ - ١٦] .

هنا يبدأ طريق العودة إلى الله وإلى الجنة والتي أخرج نفسه منها إذ استمع إلى الشيطان وعصى ربه ، وطريق العودة إلى الله والجنة هو طريق رسالات الله إلى خلقه طريق الدين والهداية والنور ، وأول الرسالات التى تلقاها الإنسان هى

رسالة نوح عليه السلام :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى ٤٢ / ١٣] .

ولنلاحظ هنا أن الله ذكر رسالته إلى نوح ثم أتبعها برسالته إلى محمد .

نوح هو البداية ومحمد هو النهاية في رسالات الله . وبين نوح ومحمد أرسل الله أنبياء ورسلاً كثيرين بعضهم نعرفهم وبعضهم لا نعرفهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .
[غافر ٧٨ / ٤٠] .

وهذا الآيات ترد على الذين يتساءلون : ولماذا لم يرسل الله رسلاً وأنبياء إلى أهل الصين أو الهند أو أهل العالم الجديد قبل الكشف الجغرافية ؟ .

إنهم أنبياء ورسل كثيرون ، كلهم بشروا بدين واحد هو دين الله . أما الأديان فمن اختراع البشر ، لأن الله سبحانه واحد ورسالته واحدة والطريق إليه واحد هو طريق الإسلام ، وكل أنبياء الله مسلمون ، وكيف يكون نبياً أو رسولا من لم يسلم إلى الله وجهه ؟ ومن هؤلاء الأنبياء نجد الخمسة العظام ، وهم أولو العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليه ، ورسالته هي هذا القرآن كلام الله والطريق إليه ، وطريق العودة إلى الجنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ
وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

« صدق الله العظيم »

[سورة آل عمران الآيتان : ١٠٢ و ١٠٣]

في حديثنا السابق تكلمنا عن خروج آدم من الجنة وعودته إليها إذا عمل لها عملها واستحقها .

وهذه المرة نتكلم عن الأمة ، أمة الإسلام أمة الله عندما يكون الإنسان عضواً فإن صلة الإنسان بخالقه لا تكون في أكمل صورها إلا عن طريق الأمة ، أى في جماعة المسلمين المعتصمة بحبل الله ، وإذا أنت قرأت القرآن ملياً لاحظت أنه حينما ورد ذكر الإنسان المفرد كان ذلك في معرض اللوم وبيان أوجه النقص في خلق الإنسان وما يستتبعه ذلك من التحذير والإنذار .

وحيثما ورد ذكر الإنسان في صورة الجماعة أو الأمة كان ذلك في معرض التوجيه والهداية والرضا وبيان سبيل الرشاد .

ولله في ذلك حكمة وحكم اختص بها دينه الذي أرسل به رسله واحداً بعد واحد ، ثم ختم بسيد المرسلين حامل الرسالة الصافية الكاملة ، ومبلغها إلى

الناس في أكمل صورة يمكن أن يبلغها بشر ، لأن الإسلام ذروة رسالات الله للبشر . ورسول الإسلام ذروة الكمال الإنساني : صفاء وطهارة وإخلاصاً وبلاغاً وذكاء وقدرة على القيام بالمستوليات ، ولهذا فإن دين الله واحد كما أنه هو جل جلاله واحد . أما الأديان بالجمع فمن صنع الناس .

وإليك البراهين . فاقراً هذه الآيات التي يجيء فيها ذكر الإنسان المفرد .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ۝ ﴾ .

[النساء ٤ / ٢٨] .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُتَّعِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [يونس ١٠ / ١٢] .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝ ﴾

[إبراهيم ١٤ / ٣٤] .

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [النحل ١٦ / ٤] .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝ ﴾

[الإسراء ١٧ / ١١] .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝ ﴾ [الإسراء ١٧ / ٦٧] .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝ ﴾ [الإسراء ١٧ / ٨٣] .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَبْلُغُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ۝ ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٠٠] .

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً ﴾ [الكهف / ١٨ - ٥٤] .

﴿ ويقول الإنسان أءذا ماتت لسوف أخرج حياً . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ [مريم / ١٩ - ٦٧] .

﴿ خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الأنبياء / ٢١ - ٣٧] .

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً . [الأحزاب / ٣٣ - ٧٢] .

﴿ وإذا مس الإنسان ضرراً دعا ربه مُنيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار . آمن هو فانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [الزمر / ٨ - ٩] .

وأظن أن هذا يكفي فالغالبية العظمى من الآيات التي تخاطب الإنسان المفرد على هذه الشاكلة .

أما غالبية الآيات التي يرد فيها الكلام عن الإنسان أو إليه بصيغة الجمع « أناس » و « ناس » فإن الكلام لا يصل إلى هذا العنف ، وإنما يصلنا الحديث في مثل قوله تعالى في [سورة الزمر / ٢٩ - ٦] ﴿ حَتَّكُم مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴾ وفي مجال الحديث عن نعمة الله قوله ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة / ٢ - ٢١٣] وذلك في مجال الرسل والرسالات قوله

جل وعلا في حديث لوط : ﴿ وما كان جواب قومهِ إلا أن قالوا
أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف ٨٢ / ٧] .

أما في حديث الله سبحانه إلى الناس بالجمع ، فهو في الغالب حديث
نصح وتوجيه وأمر كريم ورحمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ
مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء ١٧٠ / ٤] و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ
جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء ١٧٤ / ٤] .

أما إذا كان الحديث موجهاً للمؤمنين في صيغة « يا أيها الذين آمنوا » فهنا
تجد الخير كله والحذب كله ورحمة الله كلها .

بماذا نخرج من هذا كله ؟

لقد سبق أن قلت : إن القرآن كلام الله لا يمكن أن يكون شيء فيه إلا
بحساب . فالله سبحانه عندما يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار ٨٢ / ٦
، ٧ ، ٨] موجهاً الحديث إلى الإنسان لائماً ، قد صاغ الآية في هذه الصورة لأنها
أنسب ما تكون للمعنى المراد ، وهي تختلف تماماً عن الصورة المناسبة لقوله تعالى
مخاطباً الإنسان بصيغة الجمع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ
شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج ٢٢ / ١) فهنا موقف نصح وتوجيه فيه حذب إلهي
عظيم .

وذلك كله راجع فيما أرى وهو رأى أرجو ألا يؤخذ إلا في هذه الحدود - هو
أن الله سبحانه أراد أن تكون آخر رسالاته إلى البشر موجهة في صميمها إلى
البشرية كلها وإلى أمة المؤمنين في مجموعها ، لأن الأمة هي مستودع الخير كله
وهي العاصمة للإنسان من الزلل ، وهى سبيل الخير - أما الإنسان المفرد فإنه
ضعيف متخوف أنانى بل بدائى ، ومن ثم فإن الخير الذى ينتظر منه قليل ،

وهنا تتضح لنا مرادات الله العليا من وراء رسالة الإسلام ، فإن دارسى التاريخ يعرفون أن الأمة أو الجماعة هى مهد الحضارة ، أما الإنسان المفرد المهائم على وجهه فى البرارى فلا يقيم حضارة ، ولا يخطط خطوة تقدم واحدة ، وحيث إن الإسلام فى ذاته حضارة لا قاعدة حضارية كما يقولون - فهو دين الجماعة ودين الأمة ، ومحمد رسول الإسلام كان يكفيه أن يبلغ رسالته ثم ينزوى وينفرد بنفسه أو مع طائفة من الذين اتبعوه ويعبد الله ، وهكذا فعل كل الأنبياء والرسل الذين سبقوه ، أما هو فكان همه الأول هو إنشاء الجماعة الإسلامية أو الأمة الإسلامية ، والأمة هى التى تطبق الدين وتحفظه وترعاه وهى التى تنشره بين الناس . والشعور بأن الأمة أو جماعة المؤمنين هى القاعدة هو الذى حفز رسول الله ﷺ على دخول دار الأرقم والدعوة فيها ، فهنا فى سكون بيت مقفل يكون اتصال الجماعة برسولها على أتمه ، وهنا يرى المؤمنين رسولهم وقدوتهم ، وكيف يعيش وكيف يتصرف فينشئوا على مثاله ، ورسول الله دخل دار الأرقم ودعا فيها فى أوائل السنة الثالثة للبعثة ، ولم يكن على المسلمين خوف إذا ذاك ، فإن كفار مكة الذين نصبوا أنفسهم لعداوة الإسلام لم يكونوا قد تنبهوا بعد إلى خطورة الدعوة التى يدعو بها رسول الله ، وعندما انتهت فترة دار الأرقم قرابة نهاية السنة الخامسة للبعثة على أثر إسلام عمر وشعور المسلمين بالقوة أى بقوة الجماعة إلى جانب قوة الإيمان خرجت الأمة من معتصمها ، وقد صنعت على يد الله ورسوله أقوى من الحديد وعندما اتجهت جماعة المسلمين الصغيرة إلى مجلس القوم عند الكعبة يتقدمها رسوله صلوات الله عليه وأبو بكر وعمر وحمزة ، وأقامت صلاتها تحت نظر المكيين كان المصير قد تحدد : قامت الأمة حاملة الدين ، ولن يثبت لها أحد ، وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وبينما كان يبنى المسجد لكى يكون دار عبادة للأمة ومجمعاً لها ، بادر إلى إنشاء الأمة إنشاءً سياسياً يفهمه الناس ، وهذه الأمة لا تقوم بأمر من محمد بل بالتشاور مع أصحابه ، لأن النص المكتوب لا بد أن

يصدر من القلوب حتى تتبعه القلوب ، وهنا تقرأ سطوراً مثل :

- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين في قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

- إنهم أمة واحدة من دون الناس .

- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (مثقلاً بالدين أو أسيراً) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أر عقل .

- لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

— وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .

- إن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن .

- وأن ذمة الله واحدة ، يحير عليهم أديانهم .

- وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض من دون الناس .

- وأنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

إلى آخر مواد هذا الدستور الفريد الذى صنعه الله على يد رسوله وأمته .

حقاً إن آيات القرآن الكريم ستتزل بكل ما تتضمنه هذه الوثيقة ، ولكن القرآن ينزل نجوماً على نحو قدرة الله ونحن الآن فى حاجة إلى إعلان قيام الأمة ، لأن شجرة الإيمان تنمو على أصح نمو وأكمل فى ظلال أمته ، والمؤمن يريد أن يشعر أن أمته لا قرباته ولا عصبيته ولا ثروته هى الحصن الذى يؤويه ، هنا فى ذلك الحصن ينمو أفراد الأمة بروح الأمة والجماعة أى بروح الحضارة ، هنا ودخل

حصن الإيمان سيعيش الناس جماعة ، وأخية في الجماعة الفاضلة تهذب الأخلاق وتعين الإنسان على التخلق بأخلاق الجماعة ، وهى شىء آخر غير أخلاق الفرد .

من حكمة الله في مخاطبة الإنسان المفرد عن النحو الذى رأيته ، لأنه إيمانياً وحضارياً لا يعنى شيئاً ، وقبل أن أخطو خطوة أخرى من تحليل الآية التى جعلتها محوراً لهذا الحديث أذكرك بحقيقة غابت عن السلف ولكنها على ضوء الخطر التاريخى الراهن لا أظنها تغيب عن السلف .

من البديهي أن الإنسان إذا صلى وحده هادئاً آمناً في سر بيته تكون صلاته أصفى وأخلص ، فلا أحد يشغله ولا صوت يقطع عليه قنوته .

ولكن الله سبحانه فضل على صلاة الفرد صلاة الجماعة مرات بعد مرات ، مع أن الإنسان إذا قام يصلى في المسجد أو في جماعة الناس لا يسلم من التشاغل بأمر من حوله مهما بذل من جهد في الانعزال بنفسه عن الناس ، وكلنا نصل أفراداً ونصل جماعات ، وكلنا يعرف هذه الحقيقة ، ولكن الله أعلم بشئون عباده فهو يريدنا أن نصل جماعة وإن انتقصت الجماعة في خلاص النفس واطمئنان الفؤاد

لأن الجماعة والامة هى حصن الإسلام ومعقل الإيمان ، ألم يقل رسول الله ﷺ أحاديث مجمع عليها في معنى أن صبر أحدكم على مجالس المسلمين ساعة خير من صلاة أو عبادة كذا سنة ؟ فهذه هى الحقيقة الكبرى التى تتمثل فيها قوة الإسلام ، وبدون الأمة وروح الأمة نقرأ تاريخ الإسلام وكأننا نقرأ تاريخ أمة أخرى .

فإذا كنت معي في أن الأمة والجماعة هى سر قوة الإسلام وفضيلته الكبرى ، فلنعد إلى المصحف ، ونقرأ معاً بقية هذه الآيات الكريمات التى اخترتها محوراً

لحديث اليوم فنقرأ في سورة آل عمران : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٣/٣] .

والآن خذ هذه الآيات في ذهنك وتأمل حالة عالم الإسلام من حولك وقل لي أترانا مسلمين ؟ أو بتعبير أخف : أترانا على الإسلام القويم ؟

هل نحن معتصمون بحبل الله جميعاً غير متفرقين ؟

وهل كنا كذلك بالأمس أو أول أمس ، وهكذا راجعين إلى أيام الراشدين ؟

لا والله وما عرفنا غير الفرقة والخلاف ، والله سبحانه أنقذنا من حفرة النار فعدنا إلى التردى فيها ، نجيل إليك أحياناً أن الكثيرين جداً منا يقرءون القرآن ليعملوا بضده ، ولقد تفتنت إلى فضائل الاتحاد أمم هي أبعد ما تكون عن الإسلام ونجحت . فإن الروس فوق الثلاثمائة مليون والهنود فوق الستمائة والصين فوق الألف مليون . والأمريكيون فوق الثلاثمائة ، وكل واحدة من هذه أمة متعاسكة معتصمة بحبال أوطانها وبالوحدة تواجه الدنيا وتتخطى العقبات إلا المسلمين إلا العرب !

لم يعرفوا في تاريخهم أو أمسهم إلا الخلاف والتفرق والحروب ، والمأساة مستمرة إلى يومنا هذا . وقد أمرنا الله ألا نركن إلى غير أهل ديننا ، وانظر إلى الوفود العربية التي تحج إلى واشنطن وموسكو ولندن وباريس تلتمس الحلف والمعونة والتأييد ، وقل لي كم وفداً عربياً إسلامياً يقبلون على العواصم العربية ، حل الخلافات ، وأى البلاد العربية صديق من أو حليف من ؟ لا شيء غير الفرقة والخلاف ، لا شيء غير العداوة والبغضاء ، ولقد فتح المسلمون بلاد فارس ولكنهم لم يتبعوا آل كسرى بالقتل والتشريد ، ولكن الأمويين يتولسون الخلافة ،

فلا يكون لهم هم إلا إذلال العرب ومعاوية بن أبي سفيان - على رجاحة عقله - يأمر بسب على بن أبي طالب وآله على منابر الإسلام ، وهو هنا ينسى أن رسول الله ﷺ بعد فتح مكة نهى الناس عن سب أبي جهل إكراماً لابنه عكرمة ، وقال :

« لا تسبوا الأموات فإن السب لا يصل إلى الميت ، ولكنه يؤذى الأحياء » .
وبنو العباس يتولون الخلافة بعد الأمويين فيجعلونها بحار دم ، ويقترون من الجرائم ما يأنف منه أبعد الجاهلين عن الإسلام . وهل يعقل أن يكون الإنسان مسلماً ثم يقترب جناية بشعة مثل مذبحه أبي فطرس حيث ذبح داود بن علي عم الخليفة أبي العباس السفاح فوق المائة أموى فيهم الصبيان والصبيات ، ثم مد النطع أى مفرشاً من الجلد وجلس وأمر بالطعام وأكل هو وأصحابه على جث الموتى ! .

ثم نشكو من أعداء الإسلام ! .

ثم يتحالى بعضنا ويؤلف كتباً يرد بها على ما يسميه بمكايد المستشرقين !

وهل للإسلام أعداء إلا أهله ؟

إننى هنا لا أسمى ، ولكن أدر بصرك فى عالم الإسلام من حولك ، وقل لى ماذا ترى هل نحن - فى أى بلد إسلامى - معتصمون بحبل الله أم بحبل الشيطان ؟ وهل أعجب من أن هناك عرباً مسلمين اليوم يؤيدون الروس فى مذبحه أفغانستان ؟

ثم نتعجب من المأساة الطويلة التى هى تاريخنا وما تتضمنه من مذابح المسلمين بعضهم لبعض وخياناتهم بعضهم لبعض ، كأنهم لم يقرءوا القرآن أو كأن القرآن أنزل لقوم غيرهم ، إن كل الذى يطلبه إلينا القرآن هو أن نعتصم جميعاً بحبل الله ولا نتفرق ومع ذلك فيبدو أن هذا أكثر مما نستطيع .

ثم نستطرد مع الآيات المباركات فنقرأ :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٤] .

لقد حيرنى موقف فقهائنا من هذه الآيات . إنها هنا فعل أمر واجب النفاذ
وهى فيما أتصور قاعدة أساسية من قواعد البناء والتنظيم الأساسى لأمة الإسلام
وتفسيرها نجده فى السيرة النبوية . لأن القرآن هو الشرع والقانون ، والسنة هى
التطبيق والتفسير .

نقرأ فى سيرة ابن إسحق برواية ابن هشام بعد تمام بيعة العقبة « وقد قال
رسول الله ﷺ : أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم
فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (٨٥ / ١)
وبعد انتخاب هؤلاء يقول الرسول : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، وأنا كفيلى
على قومى . قالوا : نعم .

ولنلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ لم يقم باختيار النقباء بنفسه ، بل طالب إلى
الأوس والخزرج أن يختاروا بأنفسهم نقباءهم وبعد أن اختاروهم قال إنه هو يمثل
قومه يعنى القرشيين المهاجرين ، أى أنه نقيبهم والمتحدث باسمهم ، ثم يلى
ذلك حديث جرى بين الأنصار فى أهمية البيعة التى عقدها مع الرسول
ومسئولياتهم فيها ، وعلى طول تاريخ الإسلام فى المدينة أيام الرسول نحس بوجود
هذه الهيئة وأثرها . وابن حزم نفسه ، وهو رجل ذو حس تاريخى صادق كلما مر
بواحد من النقباء أضاف فى أوصافه أنه عقبى نقيب . أى أنه حضر بيعة العقبة
وكان من بين النقباء الذين انتخبوا ، فهى لم تكن هيئة شكلية بل أساسية ،
ورسول الله ﷺ يأخذها مأخذ الجد ، والصحيفة التى كتبها الرسول بين مؤسسى
أمة الإسلام ، وقد أشرنا إليها إنما هى ثمرة حوار النبى ﷺ مع أصحابه فى هذا
المجلس الذى نستطيع أن نسميه مجلس الأمة .

وهذه أيها الإخوة هي الأمة التي تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر . هي جماعة تختارها الأمة اختياراً حراً لتتولى شئونها .

وعلى العادة نجد أن الله سبحانه يشرع . والرسول يطبق ويرسم طريق التنفيذ ونحن ننسى ، ثم تكون الكوارث .

لقد خلق الله أمة الإسلام أمة شورية ، أمة تحكم نفسها بنفسها . أمة تختار أولئك الذين يسيرون أمورها اختياراً حراً . أمة تحترم فيها قيمة الإنسان وكرامة الإنسان ورأيه ، وإليك سيرة الرسول ﷺ فاقروا فيها كيف كان يعامل أصحابه كيف كان يحترم رأى أصغر واحد منهم ويعطيه حقه ومكانه .

ثم مضى رسول الله ﷺ وجاءت الخلافة بعد رسول الله ، وكانت على أيام الشيخين خلافة شورية ، وأبو بكر وعمر على جلال قدرهما كانا يستشيران ويأخذان برأى الجماعة وقد حدث في أيام أبى بكر أن رجلاً من أهل الردة عاد إلى الأمة ثم ارتد مرة أخرى فغضب أبو بكر ، وفي سورة غضبه أمر بإحراقه حياً . فظل بقية عمره نادماً على الغفلة « وعلى فراش الموت سأل الله أن يغفرها له » .

وأمة الإسلام أمة واحدة : ﴿ **إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون** ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٢] وفي هذه الآية حكمة بالغة ، لأنها تقول إن هذه الأمة الواحدة هي أمة الله التي تعبد حقه عبادته ، فهي أمة الإيمان الواحد لا السلطان الواحد ، فقد تعددت الوحدات السياسية في نطاق أمة الإيمان فلا يتأتى من ذلك أى ضرر ، وقد أقر رسول الله ﷺ ذلك فقد كتب إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى شيخى عمان : أسلمنا تسليماً « فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقرتما بالإسلام ولتكنما وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل » وكتب إلى هودّة بن على شيخ اليمامة : « سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخلف والخافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ماتحت يديك » لأن وحدة الإسلام

والإيمان هي الأساس ، أما الوضع السياسي في أى ناحية من نواحي أمة الإسلام فهو صورة للحكم لا يشترط فيها الإسلام إلا التراضى والعدل وإقامة الدين ، والناس بعد ذلك أحرار تحت راية الإسلام في أن يقيموا ملكاً أو سلطاناً أو جمهورية أو ما يشاءون ، لأن الإسلام لا يهتم إلا بروحه وصلبه . أما خضوع أمة الإسلام كلها لسلطان سياسى واحد فأمر ابتدئناه ورجعنا به إلى استبداديات ما قبل الإسلام ، وقلنا إنها خلافة لرسول الله ، ولكننا جعلناها ملكاً وقطعنا رقاب الناس ، وانصرف اهتمامنا الأول إلى الخليفة دون الخلافة ، إلى الإنسان صاحب الملك الزائل دون خلافة الرسول ذات الجاه الدائم ، وفي كتب الفقه الإسلامى فصول بعد فصول عمن يستحق الخلافة ، وهذا كله كلام سياسى بعيد عن صلب الإسلام .

وفي القرآن آية نردها دون أن نتدبر معناها ، هي قوله سبحانه في سورة آل عمران : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . [١١٠ / ٣] .

ونحن في العادة نستشهد بنصفها الأول مع أنه نصف جملة ، فهو جواب الشرط أما جملة الشرط فقوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . فإن أنتم فعلتم ذلك كنتم خير أمة أخرجت للناس ولو أن الله سبحانه أراد أن يقول إنكم خير أمة أخرجت للناس لمجرد أنكم مسلمون لقال أنتم خير أمة أخرجت للناس ولكن العبرة هنا في « كنتم » وهي جواب الشرط .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[آل عمران : الآية ٦٤]

موضوعنا هذه المرة هو حقيقة الإسلام وعلاقته بالأديان السماوية الأخرى .
والحقائق والأحكام والحكم تأتي - في الغالب - في القرآن الكريم مثورة نثراً
جيلاً وفي نظام يعلمه الله سبحانه . وقد زعم بعض علماء السلف أنهم يعلمون
حكمة النسق القرآني ، وألفوا في ذلك كتباً واهية لا تقوم على برهان مقنع ، ومن
هؤلاء السيوطي وغيره ، وأنت لا تفيد شيئاً من قراءة هذه الكتب ، والأفضل
دائماً أن نقرأ القرآن كما أنزله الحق سبحانه . وتوجه همك إلى الفهم والإدراك دون
الاستشراف إلى ما لا يمكن أن يكون لك أو لغيرك به علم ، لأن القرآن كلام الله
لا يقبل السفسطة ولا حديث الهباء الذي لا يتحصل من ورائه شيء .

ولكن أحياناً يأتي القرآن بنسق متصل من الآيات ، يستوفي قول الحق في
موضوع ما ، وذلك لتبيينه على وجهه للرسول وأُمَّته من ورائه ، وذلك لا يمنع
من ورود نفس الحقائق منجمة في صور شتى وفي سُورٍ شتى ، في مقامات

يقتضيها سياق المعانى ، لأن القرآن لا يعرف التكرار فى ألفاظه أو معانيه ولو بدت لنا مقارنة بل متطابقة ، ولكن العبرة فى كل حال بالسياق والسياقات تعطينا معانى جديدة لنفس الحقائق .

ومن المواضع التى يأتى فيها القرآن بنسق متصل من الآيات تستوفى موضوعاً واحداً مانجده فى سورة آل عمران ابتداء من الآية التى جعلناها - والثى تليها - محوراً لهذا الحديث عن حقيقة الإسلام وعلاقته بالأديان السماوية الأخرى .

والموضوع هنا خطير ، ولا يمكن إلقاء الكلام على عواهنه فيها . ونحن إذ نكتب فيه لا نقصد إلى إقناع غير المسلم بأنه مخطئ ، وأن عليه أن يراجع نفسه ويعود إلى الحق ويدخل الإسلام ، لأن الهدى هدى الله ، وكلما كان الإنسان جاهلاً كان أشد تمسكاً بدينه ، لأنه ولد على هذا الدين ولا يعرف غيره ، وتعود على مدى حياته أن يأخذ ما قاله له أبواه أو القس الذى يتردد عليه قضية مسلمة ، على هذا نشأ وتعود ، وهو يجد الأمان والثقة والاطمئنان فيما تعود القول به ، فإذا كان يقول بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ابن الله أو هو الله أو هو أبونا الذى فى السموات والأرض فهو لن يتحرك عن ذلك القول قيد أنملة مهما قلت له ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة فى آيات من التى نحن بصددنا وذلك حيث يقول ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران ٣ / ٧٥] والأميون عند اليهود والنصارى فى القرون المسيحية الأولى : مصطلح كانوا يستعملونه فى الكلام عمس ليس على دينهم ، فالنصارى أميون فى نظر اليهود ، وكذلك اليهود فى نظر النصارى ، أما فى القرآن فلفظ أمى يستعمل بمعنيين :

الأولى : هو هذا الذى تكلمنا عنه فى معرض الكلام عن النصارى أو اليهود وفى الآية السابقة نجد النصارى واليهود يقولون إنه لا سبيل علينا من الأميين أى

أنا لا نصغى إلى ما يقول أولئك الذين ليسوا على ديننا ، والقرآن يستعمل هذا المصطلح في هذا المعنى في مقام التبكيت لأهل الكتاب - من اليهود خاصة - الذين كانوا يزعمون أن النبوة لا تكون إلا في أسباطهم أى قبائلهم الاثنى عشر لأن مَنْ عدا ذلك فأميون ، أى أقوام لا يختار الله منهم رسولاً ، والقرآن يقول لهم : ماذا تقولون الآن وقد شئت إرادته أن يصطفى نبياً خارج الحدود التى وضعوها لرحمة الله ، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة :

﴿ يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا يُتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .
[الجمعة ٦٢ / ١ - ٢] .

وأما المعنى الآخر الذى يستعمل فيه مصطلح أمى في القرآن المجيد فهو معنى خاص برسول الله ﷺ ، فإن إرادة الله لم تقف عند اصطفايته نبيه عند اختياره من غير الخط الذى حدده اليهود ، بل اختاره أمياً لا يقرأ تأكيداً لمعنى حكمة الله في اختياره ، فقد كان عيسى ابن مريم في نظر اليهود أمياً لأنه نجم في غير أنساب الأسباط ، ولكنه كان يقرأ ويكتب ، وهنا يأتي محمد أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، والله سبحانه علمه الكتاب والحكمة وكل شيء ، وقرأ هنا قول الله سبحانه في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مِنْ نِشَاءٍ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى ٤٢ / ٥٢) وتوكيداً لهذا المعنى القرآنى الخاص برسول الله ﷺ يقول تعالى في سورة العنكبوت :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت ٢٩ / ٤٨) .

وهنا نفهم حكمة الله في أمية نبيه . فإن المبطلين (أى أهل الباطل) لم

يدعوا طريقاً للتشكيك في نبوة محمد إلا سلكوه ، فهنا وتأكيداً لإرادته سبحانه في وضع رسالته حيث يشاء يضعها في رجل لم يكن يكتب ولا يقرأ ، وهذا كلام يقال لناس عرفوا الرسول قبل البعثة وبعدها ، وهو كان قبل البعثة تاجراً يتعامل مع الناس ، ولو كان قارئاً كاتباً لشهد بذلك واحد ممن عاملوه وما أكثرهم ، ولكننا على رغم اجتهاد الكفار في التماس السبيل على رسول الله لا نجد واحداً منهم يقول : لقد عاملته وهذا إيصال أو كتاب منه ، لأن الحجة هنا كانت تكون فاصلة .

ونعود إلى الآيات التي جعلناها محور هذا الحديث لنقول : إنها أصدق وأوضح دعوة إلى اجتماع الكلمة حول الله الواحد الذي لا إله غيره ، لأن اجتماع الكلمة على عبادة الله الواحد هو الضمان الأكبر للسلام والأخوة بين البشر كما قلناه .

ذلك أن أهل الكتاب جميعاً يقولون إنهم يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً وما قرأت لنصراني أو يهودي على أي مذهب من مذاهب هاتين الديانتين إلا وهو يؤكد ذلك ، ولكن النصارى جميعاً لا يمكن أن يتخلوا عن القول بالثالوث في أي صورة من صوره ، ولا ذكر لعقيدة الثالوث في الأناجيل أو في العهد القديم ، إنما هو الله الواحد ، والمسيح كلمته التي ألقاها في مريم بنت عمران فحملت بعيسى ، كما يقر الله سبحانه كل إنسان في رحم أمه ، وفي الآية السادسة من سورة آل عمران نقراً : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وليس في الإنجيل فيما يتعلق بعيسى ابن مريم إلا هذا المعنى القرآني ، وعيسى ابن مريم لم يقل قط إلا أنه رسول الله إلى البشر ، وعبارة « أبى » التي ترد على لسانه في الأناجيل لا تعنى بالضرورة البنوة المباشرة ، بل إن المسيح عيسى ابن مريم يقول في خطبة الجبل وفي كل حديثه إلى الإسرائيليين : إن إلهنا واحد ، ولكننا لا ينبغي أن ننسى أن المسيح

بعث في عصر اختلاف عقائدى شديد ، وكانت الآراء الفلسفية التى قال بها فلاسفة الفكر الهيلينستى وخاصة في الإسكندرية تملأ الجو وتلقى الشكوك في القلوب . وقد قرر اثنان من أشهر أساتذة تاريخ الأديان هما أدولف فون هارناك Adolph Von Harnach و F.C. Baur فريدريش باور أن القول بالثالوث كان ثمرة تأثر الفكر المسيحى بالفكر الهيلنى ، لأن القول بالثالوث أو ثلثية المعبود نشأ في مصر القديمة ، ولقى قبولاً في الكثير من عقائد العصور القديمة والعصر الهيلينستى Schleiermacher ويذهب فريدريش شلايرمانه Friedrich Schleiermacher أن عقيدة الثالوث نشأت عن محاولة للتوفيق بين المسيحية والآراء الشائعة خلال القرنين المسيحين الأولين ، وفي أيامنا هذه يرجع تمسك الكنائس البروتستانتية بالقول بالثالوث إلى اجتهادات كارل بارث Carl Barth وسلطاناه الواسع على الفكر البروتستانتى في عصرنا ، أما بالنسبة للكنيسة المصرية فإن القول الفصل في الثالوث تحدد بها تقرر في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية من أنه لا بد أن تكون هناك علاقة بنوة بين الله والمسيح عيسى بن مريم لأن الابن - كما قالو - ينبغى أن يكون من طبيعة الأب ، والأب في هذه الحالة هو الله ، وهذا هو القول الذى ثبت عليه الانبا اثناسيوس واضع أسس العقيدة المسيحية على المذهب القبطى القائم على القول بوحدانية الله مع عدم إنكار البنوة في حين تأثرت العقيدة الكاثوليكية بأراء لاهوتيين من أمثال باسيل وجريجورى النازيانسى ، ولهذا فإن للكاثوليكية عقيدة في الثالوث تختلف اختلافاً بيناً عن قول الكنيسة القبطية فيها ، وهذا الخلاف هو الذى أدى إلى طرد الأقباط المصريين من مجمع فلقيدونىة سنة ٤٢٥ م ، وهو مجمع مخرب ، فرق المسيحيين أحزاباً ، وأقباط مصر يسمونه مجمع اللصوص .

وهذه آراء أذكرها لا لكى أشكك مسيحياً في مسيحيته ، ولا لكى أفتح الطريق أمام مسلم لكى يقول في دين آخر شيئاً لا يليق ، فقد سبق أن قلت إن

شأن الإنسان مع دينه شأن وراثي ، فنحن نرث أدياننا كما نرث لغاتنا عن آبائنا ، ثم نتمسك بعقائدنا التي ورثناها تمسكنا بأصولنا التي نفخر بها ، ولا فضل لنا في هذه الوراثة ، ونحن نصر على أن تراثنا هذا هو أساس شخصياتنا ولباب وجودنا فكيف نتحول عنه ، ولا يحدث إلا في القليل النادر جداً أن يبلغ إنسان منا سن الرشد فيقول : الآن إدريس الأديان جميعاً لكى أختار لى الدين الذى أرى أنه الحق فليطمئن أصحابنا الذين يغالون فى حماسهم الدينية ويزعمون أن لهم فضلاً فى إيمانهم بالإسلام مثلاً ، وكل الذى نطالبهم به هو أن يكونوا مسلمين صالحين ، أو يكونوا على خير ما يكون عليه المسلم ، وهذا هو مايقوله الله سبحانه وتعالى فى الآيات التى جعلناها محوراً لهذا الفصل :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا : أشهدوا باننا مسلمون ﴾ .

أجل ! إذا لم يسمعوا لك فكل ما عليك هو أن تشهد الناس على أنك مسلم وهنا ينتهى واجبك بحسب مايقره القرآن ، ولنلاحظ هنا أن الكلام موجه إلى أهل الكتاب ، أى النصارى واليهود ، لأن للإسلام موقفاً آخر من الكفرة عباد الأوثان - فإذا تطرق مسلم إلى ما وراء ذلك فى حديثه مع أهل الكتاب فقد تجاوز حده الذى رسمه الله تعالى له فى هذه الآيات ، وبودى لو قرأ كلامى هذا بعض شبابنا ممن لم يتلقوا ثقافة إسلامية صحيحة ، فيحسبون أن الإصراف فى الحماسة والتعدي على أصحاب الديانات الأخرى من أهل الكتاب فضيلة إسلامية ، وهو فى خروج على مارسم لنا القرآن ، فإن قوة العقيدة الإسلامية تأتى دائماً من منطقيتها ومن أخلاقياتها ، فنحن مطالبون بأن ندعوا لدينا بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالعنف والغلظة ومظهر التدين الخارجى من هيئة وملبس أو جهامة أو عناد وأولى بنا أن نذكر دائماً أن الإسلام واضح بين ، وما إلى ذلك مما يمكن أن

يخدع الناس ، ولكنه لا يجوز على الله سبحانه ، وأولى بنا أن نذكر دائماً أن الإسلام واضح بين ، وأن كل ما علينا حياله - إن كنا نؤمن به حقاً - هو أن نتخلق بأخلاقه ، ونتبع ما يأمر به من سلامة النية والطوية وحب الخير للناس والبعد عن الأنانية ومخالقة الناس بخلق حسن ، كما كان رسول الله ﷺ يعمل حتى نكون نحن خير دعاية للإسلام ، ونعرف الناس بديننا بهذه الطريقة وندهم وشأنهم ، فإن الهدى هدى الله وهو سبحانه أدرى بعبيده ، ولا يذكر التاريخ حالة تعصب ديني واحدة أدت إلى خير أو خدمت المتعصبين أو عقبتهم .

ثم تتجه الآيات القرآنية من سورة آل عمران التي نتابع دراستها الآن إلى أصول عبادة الله الواحدة ، وهي عند إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء ، فهو أول من قال بعقيدة التوحيد الخالص بعد نوح عليه السلام ، وقد قال به في كلام صريح واضح لا يداخله شك :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَـ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ٣ / ٦٥ - ٦٨] .

وهذه الآيات تعطينا مثالا مما كان رسول الله ﷺ يلقاه من عنف أهل الكتاب ، وما كانوا يواجهون به الرسول من مزاعم لا تقوم على علم أو فهم حقيقى ، وهنا يعيننا الحافظ ابن كثير في تفسيره لمعرفة الظروف التي أوجبت فيها هذه الآيات إلى رسول الله ، وهي ظروف يمكن أن يلقاها أى مسلم فيستعين بها على ما يواجه به ، ولقد قرأت من كلام بعض غلاة المستشرقين في تعرضهم للإسلام كلاماً كثيراً في هذا المعنى وخاصة اليهود منهم من أمثال إبراهيم جاجير

Abraham geuger وهو رافضى Horovitz و هـ . هير شفيلىد H. Herschfeld و A.J. Winsinck وتعجبت من تحملهم على الإسلام دون روية ، وعذرت اليهود منهم في هذا البغض للإسلام لأنه بغض تقليدى لا يرجع إلى نزاعنا معهم حول فلسطين ، ومن أمثلة ذلك أن أشد حملات اليهود على الإسلام تجدها في دائرة المعارف اليهودية The Jewish Enyclopedia طبعة ١٩٠٦ ، وكل موادها أعدت قبل ذلك بسنوات ، ولم تكن بيننا وبين اليهود في ذلك الحين أى عداوة ، ولكنها شيء غريب مركب في طبعهم ، واقرأ فيها مواد : محمد وإسلام ومكة والمدينة والعرب وتعجب من عنف الهجوم والافتراء دون مبرر .

ولكنى كما قلت لك تعجبت من عنف رجل مسيحي هولندى هو فانسينك Wensinck في نقد الإسلام وعداوة رسوله ، ولم أجد قط ما يدعوه إلى الرد عليه ، لأنك ترد على شيء منطقي بمنطق مثله ، ولكنك لا تدرى كيف ترد على شيء عاطفى إلا بالأسلوب الذى أمرنا الله به وهو إهماله ، لأنه لغو أو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأحيانا تجد الحملة على الإسلام ترجع إلى أسباب سياسية ، كما تجد عند الكونت ليونى كاتيانى Leona Caetani وخاصة في كتابه المسمى بحوليات الإسلام Annali dell Islam فقد كتبه الرجل بينما كانت إيطاليا قد استولت على ليبيا ، ومضت تحاول تحويلها إلى بلد مسيحي ، فكتب هو يهاجم الإسلام ويهون أمره ، وقد انتهت المعركة السياسية بانتصار الإسلام نصراً مؤزراً على أيدي السنوسيين الذين اجتهدوا في الدعوة ومدوا رواق الإسلام على كل وسط الصحراء الكبرى وإقليم تشاد ، وما دام الإسلام قد رد عليه أبلغ رد فقد انتهينا من أمر كاتيانى وأمثاله .

وينفعنا في فهم هذه الآيات المؤرخ المحدث ابن كثير ، فهو يقول هنا - راوياً بسنده إلى ابن عباس - اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأخبار ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى

ماكان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل الله على عبده هذه الآيات التى تدحض مايقولون بالحجة البالغة ، فإن التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم فكيف يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ ونزيد نحن كلام ابن كثير بياناً فنقول إن اليهود منسوبون إلى يهودا أو يهوفا ، وهو عندهم اسم الله الذى تصوروه وصوروه على هواهم ، فهو إلههم وحدهم دون غيرهم من أصناف البشر ، أما النصرارى فمنسوبون إلى يسوع الناصرى أو المسيح ، ومن ثم فلا يمكن أن ينسب إبراهيم إلى شىء كان بعده ، أما الإسلام فهو اسم عقيدة إسلام الإنسان وجهه لله وتسليمه نفسه لمشيئته ، وهو لا ينسب إلى محمد ﷺ ونحن لا نحب أن نوصف أو نسمى بأننا محمديون Muhammedans وإنما نحن ومحمد أتباع الحق سبحانه ، وتأمل قول الله سبحانه فى الآيات التالية ، لتعرف حقيقة طريقة الإسلام فى الدعوة : ﴿ إِن أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويستوقف نظرى فى هذا المقام أننى قرأت الكثير من كلام اللاهوتيين اليهود والمسيحيين فما وجدت عندهم انتساباً حقيقياً إلى إبراهيم عليه السلام ، أما اليهود فقصاصاراهم التوراة والبحث عنها وعن أصولها والرجوع إلى موسى وتبع أخباره والانتهاء بعقيدتهم عنده ، ومن غريب مايلحظ فى دراسات كتابات أحبار اليهود Tabbinical literature هو أن إبراهيم عندهم سابق على موسى ومعهده له ولا زيادة ، وبعد ذلك تنتهى رسالة إبراهيم لأن الله فى رأيهم أوحى إلى موسى الألواح وهى جزء من التوراة ، ثم أكمل التوراة بما تجده عند أنبياء بنى إسرائيل سواء فى الكتابات اليهودية أو العهد القديم ، أما اللاهوتيون المسيحيون بمن فيهم الكاثوليك فجهدهم كله موجه إلى الأناجيل وما لدينا من أخبار عيسى ابن مريم ؛ لأن رسالة إبراهيم وكل الأنبياء من بعده رسالة ناقصة ، فهى الوعد والتمهيد لمجىء عيسى ابن مريم بالبشارة على الصورة التى يحكونها ،

ومن غريب ما ذكر هنا أن أوفى أخبار عيسى ابن مريم نجدها في القرآن الكريم لا في الأناجيل ، لأن الأناجيل لا تقص علينا من أخبار عيسى ابن مريم إلا شهوراً وربما أسابيع فحسب ، فكلها تبدأ بأخباره منذ بدأ يدعو عند بحيرة طبرية ، وكيف بدأ الحواريون ينضمون إليه ومن غريب ما تقرأ عندهم أن عيسى ابن مريم كان يحس بقرب منيته فنقل كل ما منحه الله إياه من قوى على الإتيان بالمعجزات إلى الحواريين ، قال أحد كبار شراح إنجيل مرقس « ثم صعد - يريد المسيح عيسى ابن مريم - إلى الجبل ودعا إليه هناك الذين أرادهم ووقع عليهم اختياره من بين أتباعه الكثيرين ليكونوا تلاميذه الأحقاء الملازمين له ليؤهلهم بتعاليمه وإرشاداته ليكونوا رسلاً له وليكرسوا أنفسهم لخدمة بشارته ، فجاءوا إليه فأقام منهم لهذه الغاية اثني عشر رسولاً ، وقد منحهم سلطاناً لأن يشفوا المذسى ويطردوا الشياطين أى أنه منحهم سلطانه الذى خوله الله إياه ليستخدمه في صنع المعجزات ، فأصبحوا ممثلين له وتواباً عنه ومنفذين لمشيئته ، وقد جعل عددهم اثني عشر ليكونوا بعدد أسباط بنى إسرائيل الاثني عشر ، إذ أنه دبر حكمته أنهم في يوم الدينونة يدينون أسباط بنى إسرائيل الاثني عشر ، وكان أولئك الرسل هم سمعان الذى لقبه بطرس ، ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا أخو يعقوب اللذين لقبهما بوا نرجس أى ابنى الرعد ، لحماستهما الشديدة ، وأندراوس ، وفيلبس ، وبرقلمياوس ، ومتى ، وتوما ، ويعقوب بن حلفى ، وتداوس ، وسمعان القانونى ، ويهوذا الأسخريوطى الذى خانته فيما بعد وسلمه لأعدائه ، ثم يلى ذلك تصميم أحيار اليهود على القضاء على عيسى ابن مريم خوفاً من دعوته ومحاوله حواريه وآله وأتباعه إنقاذه من أذاهم ، ثم القبض عليه ومحاكمته والحكم بموته ثم صلبه في قولهم .

وهذا كلام لا أقوله ليستعمله المسلمون في الحجاج ، وإنما لكى يتأمله المسلمون ويقارنوه بما عندهم ، وقد يحدث أن يوفق الله أحدهم إلى الخروج

للدعوة للإسلام في بلد أفريقي أو آسيوي ، فهناك سيجد قطعاً مبشرين نصارى فيكون على علم بما عندهم ، وهذا كله يتفعه فيها هو قد رصد نفسه له من الدعوة للإسلام ، وأحب أن أذكر أولئك الإخوة إلى أن كل اليهود والنصارى متمسكون بدينهم ولا معنى لمجادلتهم فيه ، فلا يكونون همنا الإساءة إلى الناس في أعز مآلديهم ، وهو أديانهم ، وكما نعتز نحن بديننا فإن غيرنا حقيق بأن يعتز بدينه ، وعلينا احترام هذا الاعتزاز ، لأن الله سبحانه إذا كان قد خلقك مسلماً فهذه نعمة لا يد لك فيها . وإنما أنت تشكرها بأن تكون على مستواها وأهلاً لها وإذا كان سبحانه قد خلق غيرك على غير الإسلام فإن له من وراء ذلك حكمة ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، والهدى هدى الله . وإنما هذه كلها معلومات تنفع الداعي للإسلام بين عبدة الأوثان أو عبدة الأرواح أو المجسمين من البدائين ممن يراهم على غير دين ، ولا أجد ماؤيد به كلامي في هذا المقام إلا الآيات التالية من نفس نسق آيات آل عمران التي تتبعها الآن :

﴿ وَلَا تَوَمَّنُوا إِلَّا مَنِ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾

[آل عمران ٧٣ / ٣] .

وهذا هو نهج الإسلام في الكلام مع أهل الكتاب : حكمة وموعظة حسنة وطهارة في القول دون استعلاء أو غرور أو عدوان ، لأن الهدى بيد الله لا بأيدينا واللجاجة في الدين لا تؤدي إلى خير أبداً .

وعسانا لا ننسى أبداً أن الدين لله وأن الوطن للجميع ، وأن الله سبحانه إذا كان قد جعل الهدى بيديه فإنه جعل أوطاننا بين أيدينا ، فلندع ما لله لله ولنهتم بما ألزمتنا به الله ، ولنجتهد في الحفاظ على وحدة أوطاننا ، لأن أعداء هذه

الأوطان كثيرون ، والله سبحانه عندما قال لرسوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ كان يريد أن يزيده بصيرة بحدود مسئوليته ، والآيات بتمامها فى سورة القصص وسأتلوها عليك فهى ترسم لك حدود كلامك فى الدين :

﴿ وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ . إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

[القصص ٢٨ / ٥٣ - ٥٦] .

وهذه الآيات الكريمة ترسم لك المنهج الذى ينبغى عليك اتباعه فتأملها ملياً واعمل بها ، ولا تأخذنك الجاهلية فتتخطى حدودك وتظلم نفسك ودينك ووطنك ، واذكر أنك إذا استطعت أن تكون مسلماً صحيح الإيمان والطوية ، سليم دواعى الصدر ، خالص النية لله ، كافأ عن الناس أذاك ، فهذا حسبك ، ولينا كلنا كنا كذلك إذن لكنا فى حال غير الحال .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[سورة إبراهيم : الآية ٣١]

في هذا المقال وما يليه نتحدث عن عبادات الإسلام : فضائلها ومراميها ونواحيها الحضارية ، فإن هذه العبادات جميعاً تنشئ بين العبد وخالقه علاقة مباشرة تنفع العبد أكثر ماتنف ، وترفع قدره وتفتح أمامه آفاقاً واسعة للخير والأمل .

وسنبداً هذه المرة بالكلام عن الصلاة والزكاة فنلاحظ أنها تردان في الغالب متلازمتين ، فإذا ذكرت الصلاة جاء معها ذكر الزكاة لحكمة رفيعة أرادها الخالق فإن الصلاة حق الله على عباده ، والزكاة حق المؤمن على أخيه المؤمن ، والله سبحانه يربط بين حقه جل وعلا وحق العباد ، حتى يشعر الإنسان أن الإسلام في بعض معانيه علاقة شاملة بين المؤمنين في مجلتهم وتضعهم على صلة دائمة ، فإله سبحانه خالقهم ، والصلوات المفردة تربط بين الإنسان وربه ، وصلوات الجماعات تربط الأمة كلها إلى خالقها ، وتوقف أفرادها صفوفاً مترابطة متساوية تخاطب ربها ، وتعلن إليه خضوعها ، وتسأله الخير والبركة ، والإمام هنا لا يقوم

بدور القس أو الوسيط وإنما هو ضابط لوحدة المسلمين في الصلاة ، لأن الإسلام عندما حلت بركاته على الخلق أراد أن يجمعهم في وحدة إيمانية ، وهي روحية وشكلية معاً ، فنحن نصلى على نسق واحد حدده رسول الله ﷺ وقال : « صلوا كما رأيتموني أصلى » بل إن الله سبحانه وتعالى يربط بين التنظيم العسكري لجماعة المؤمنين وإعدادهم الروحي ، فهو يرينا في آيات كريمة من سورة المائدة كيف نصلى صلاة الخوف ، لأن إعداد الأمة للجهاد كان من مرادات الله من وراء نعمة الإسلام .

فإن أمة الإسلام في تقديره لا بد أن تكون أمة مجاهدة ، وكل مسلم قادر على حمل السلاح ينبغي أن يتأهل للحرب ويقوم بواجب الدفاع عن الأمة ويشارك في إبلاغ كلمة الحق إلى ملايين الخلق ممن ينتظرونها ، وخلال السنوات العشر التي قضاها رسول الله عاملاً في المدينة كان تحويل الأمة إلى جيش مجاهد في سبيل الله من أوليات غاياته ، وهو لم يقصد من وراء الغزوات النيف والثمانين التي قادها أو أرسلها لم يقصد إلى الغزو أو الغلب أو الغنيمة بقدر ما قصد إلى فتح المسالك للإسلام إلى بلاد الناس وقلوب الناس ، وهو لم يقصد قط إلى إنشاء جماعة صغيرة من المحاربين المدربين يقومون بواجب الجهاد وبقية الأمة قعود ، لأن ذلك كان من شأنه أن ينشئ أقلية عسكرية قوية منفصلة أو متميزة عن بقية الأمة ، وذلك كان يؤدي من تلقاء نفسه إلى سيادة الأقوياء على المستضعفين داخل أمة الإسلام ، وهذا يتنافى مع روح الإسلام ولا يتفق بحال مع روح البذل والعطاء والجهاد التي ينبغي أن تعم أمة المؤمنين وتميزها عن غيرها من الأمم ، وإنما قصد رسول الله إلى تحويل الأمة إلى أمة مقاتلة ، ومن النتائج الباهرة التي حققها قبل وفاته أنه بمواصلته المستمرة للجهاد وحرصه على أن يشارك الناس كلهم فيه أنه جعل أمة الإسلام كلها أمة جيشاً أو جيشاً أمة .

وأتيك بآيات صلاة الخوف لكي تبين الربط الدقيق بين الصلاة والجهاد

وهذه الآيات حافلة بالحكم والمعاني الإسلامية ، فلنقرأها على مهل ، فإن للقرآن أعماقاً لا يدركها إلا القارئ المتمهل المتدبر ، والإسلام كما نعرف دين القلوب ودين العقول جميعاً .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾

[النساء / ١٠١] .

وهنا نلاحظ أن الله لم يحل للمؤمنين أن يرجئوا الصلاة عند خوف العدو ، لأن إرجاءها معناه أنها عند الله شيء آخر غير الجهاد ، فهي عنده سبحانه وتعالى جهاد من نوع آخر ، وإنما الذى شرع للمؤمنين فى هذه الحالة هو أن يقصروها فحسب ويصلوها فى وجه العدو وفى ميدان الحرب وساعة الخوف ، وأول ماضيت صلاة الخوف كان فى غزوة ذات الرقاع فى المحرم سنة ٥ هـ / يونيو ٦٢٦ م ، وهى إحدى الغزوات التى قادها ﷺ أو السرايا التى بعثها على أعراب نجد ممن غدروا بالمسلمين فى مأساتى بشر معونة والرُّجُيع ، وكان أولئك الأعراب أو الأعراب قد اجتاحتهم خوف من قوة أمة المدينة ، فقد تعودوا أن يفرضوا أنفسهم على الجماعات المستقرة فى شمال الحجاز ، أو على طرق التجارة الصادرة إلى العراق وجنوبى الشام ، فجاءت أمة المدينة وفرضت نفسها على شمال الحجاز كله ، وانتدبت نفسها لتحرير العباد من سلطان أولئك البدو وفرض الإتاوات على الناس وإرهابهم بالغلظة والقسوة وأساليب الغارة والسلب ، فدعتهم أمة الإسلام إلى دخول الإسلام ، ورفضت أن تؤدى لهم إتاوة أو خفارة ، وكانوا يأملون أن تستطيع مكة قهر أمة المدينة فى غزوة أحد ، ولكن أمة المدينة خرجت من محنة أحد قوية ظافرة ، وأبو سفيان زعيمها أحجم عن لقاء المسلمين فى « بدر الموعد » كما وعد ، وأقام المسلمون سوق بدر عشرة أيام باع الناس فيها

واشترُوا في أمان أمة المدينة .

وهذا الغيظ من أمة المدينة كان وراء غدرتي بشر معونة والرجيع التي احتملت وزرها بعض قبائل عالية نجد من لحيان ومحارب وعامر ، فخرج الرسول إلى ذات الرقاع وسط منازل هذه القبائل المتمردة بل في منازل أقواها وهي أنمار وتعلبة ، فتهارب رجالها أمام قوات المسلمين واختفوا يرقبون المسلمين من وراء آكام الرمال ، وإن قلوبهم لترعد وهم يرون المسلمين يستاقون أنعامهم ويأسرون من قدروا عليه من أهلهم ، وهنا وتحت بصر أولئك الجامدين الذين ذلوا لعزة الإسلام يقوم المسلمون بصلاة الخوف وسط ميدان القتال ويصلونها على النحو الذي أمرهم به الله سبحانه فيها يلي :

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يَصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِزْزَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ . وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أُنْذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِزْرَكُمْ إِنْ اللَّهُ أَعَدَ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ .

[النساء ٤ / ١٠٢]

وهكذا أدى المسلمون صلاتهم في نحر العدو وهو يتأملهم في دعر الخائف ورعب المتلصص الذي يخشى أن يدركه العقاب ، وقد تركت هذه الصلاة أثراً عميقاً جداً في نفوس أولئك المعريدين ، فقد رأوا أنه لا قبل لهم بأمة الله ، وإن أوان العريدة وإرهاب الناس ونهبهم قد انتهى ، ولم يعد أمامهم إلا الدخول في أمة الإسلام والإيمان والنظام والعزة أو الفناء ، هنا وعلى ضوء هذا الربط التاريخي يتجلى لك معنى جديداً من معاني الصلاة ، فهي ليست معرضاً للإيمان

فحسب بل هي معرض للقوة ، وهي هيئتها ونظامها وترتيبها مظهر من مظاهر عزة المؤمنين .

وقد درجنا على أن نفصل في دراستنا بين العقيدة والشرعة ، مع أن الإسلام كل واحد في ذاته ، فعقيدته أخلاق وحضارة كما رأينا في كلامنا عن التوحيد ومعانيه الحضارية ، والشرعة (وتدخل فيها العبادات) أخلاق وحضارة ، والصلاة التي نحن بصدددها هي رأس العبادات ، ولكنك لا تستطيع النظر إليها على أنها مجرد فرض مقرر على المسلم ، وأن المسلم يقوم بها لأن الله سبحانه أمر بها ورسول الله ﷺ نظمها وقتنها . وتطيل كتب الفقه الكلام عن تفاصيل إقامة الصلاة ، حتى إن باب الصلاة في كتاب مثل موطأ مالك يقع في مجلد كامل ، ومسند أحمد عندما يورد أحاديث الصلاة يسترسل في الكلام والروايات والأحاديث والآثار حتى يحسب الإنسان أنه لن يفرغ ، وهذا كله عظيم ولكنه لا ينبغي أن يشغلنا عن الحكمة الكبرى من فرض الصلاة ، وهي أنها تربية وتهذيب وأخلاق وتكوين لشخصية المسلم ولجماعة المسلمين ، وعندما أرى المسلمين يهرعون لأداء الصلاة في وقتها خطفاً كأنها واجب يتخلص منه الإنسان لينساه يتملكني العجب ، ويقع في خاطري أننا ينبغي أن نعيد النظر في الصلاة لكي يزداد استمتاعنا بها وانتفاعنا منها .

وأنا عندما أنهض للصلاة أشعر بفرحة ، لأنني سأقف لحظات بين يدي خالق الكون أدعوه وأناجيه لأن الصلاة في أصلها الدعاء أو طلب الرحمة وما قضيت فريضة الصلاة مرة إلا أحسست بعد أن أسلم منها أنني أحسن حالاً بعدها ، وقد تعجبت مرة وأنا في الحرم النبوي من رجل واقف يصلي في ركن المسجد وقيل لي : إنه يصلي كل يوم مائة ركعة بين الظهر والعصر ، ومائة أخرى بعد صلاة العشاء ، وقلت في نفسي كيف يعدد الركعات المائة ، وهلى هو يصلي أو يحسب ؟ هل هو مؤمن أو عداد ؟ ومثل هذا الرجل لم يقرأ قول الله تعالى :

﴿ ليس البرَّ أنْ تُولُوا وجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ . وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة ١٧٧ / ٢] .

فهنا نجد الصلاة في إطار عام إنساني أخلاقي شامل يصور لنا لباب الإسلام عقيدة وشريعة ومكارم أخلاق مجموعة بعضها إلى بعض على نحو تحس معه أن صلاتك جزء من أخلاقيات وسلوكيات شاملة لا يصح إسلامك على الوجه الأكمل بدونها ، فأنت تصلي لأنك تزكي ، وتزكي لأنك تصلي ، لأن العبادة الواجبة عليك لله سبحانه وتعالى لا تتم إلا إذا قمت بالعبادة الواجبة عليك نحو أخيك المسلم المحتاج وهي الزكاة ، ثم إن البر - وهو الوفاء بعهدك مع الله - لا يتم بمجرد توجهك في الصلاة نحو المشرق أو المغرب ، وإنما هذا الوفاء لا يكتمل إلا إذا قام على أساس متين من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب - والمراد به هنا كل كتب الله الصحيحة - والنبين . وهذا الإيمان الشامل بالله وكتبه ورسله لا يكتمل إلا إذا تخلقت بخلق إسلامي إنساني صحيح ، فأعطيت المال على حبه - أي دون نظر إلا إلى رضا الله سبحانه - وكان عطاؤك شاملاً لكل المحتاجين من حولك على قدر طاقتك ، والعطاء هنا إسلامي أي أنه لا يقتصر على المحتاجين بل يشمل ابن السبيل ، وهو الأخ المسلم الضارب في الأرض منقطعاً عن أهله وناسه ، فأصبح مسئولية أمة الإسلام كلها ، لأن الإسلام دين ووطن ، ولابد كذلك من أن تفكر في أسارى المسلمين والذين يقعون منهم في ضيق وشدة . والأسير في الإسلام لا يقتصر على من يقع في أسر العدو بل يشمل كل من وقع في أسر المرض أو الحاجة أو الهموم ، وقد

سمع الصوفي المشهور أحمد الرفاعي عن امرأة ركبها الموم بسبب ابن لها اغتاله للصوص على الطريق ولم يكن لها غيره ، فنهض إليها مع نفر من أصحابه ليواسوها بالمال والصحبة ، وأوصى بها واحداً من أتباعه وقال له : لا تنس الأسيرة ، لقد أوصانا الله سبحانه بها عندما أمرنا بأن ننفق المال في الرقاب ، فكوا رقة الثاكلة الأسيرة .

بل إن البر لن يتم بذلك كله فلا بد من الوفاء بالعهد ، وقد قال الإمام الغزالي في الإحياء : عجبت ممن ينقض العهد ويعد نفسه في أهل التقوى ، بل إن البر لا يكتمل إلا بالصبر في البأساء ، والإمام الجويني يفسر البأساء هنا بأنها الصبر في الجهاد في سبيل الله ، لأن الله ذكر الصابرين في البأساء هنا ثم فسره بقوله تعالى (وحين البأس) أى عند عدوان المشركين على دار الإسلام أو خروج المؤمنين للجهاد في سبيل الله .

وهذه كلها أخلاقيات وسلوكيات إسلامية مترابطة يكمل بعضها بعضاً ، والله سبحانه يختتم هذه الآية العظيمة بقوله ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ .

هنا ترى أن إقام الصلاة هو في الواقع جزء من واجبات ومطالب وخصال كثيرة جداً لا يكتمل إيمان المؤمن ولا يكون من الصادقين المتقين إلا بها جميعاً ، ولكن الصلاة تتميز من بين واجبات المسلم هنا بأنها العبادة التي تضعك بين يدي الله سبحانه وتعالى ، فتشعر أثناء قيامك بها بمكانك من الله ومكانك من الإسلام ، ولذلك فقد جعلها الله خمس صلوات موزعة على ساعات النهار من الفجر إلى الليل ، حتى يكون حضورك مع الله مستمراً ، ويكون حضور الله سبحانه وتعالى في قلبك جزءاً من كيانك .

وهذا هو جانب الجمال في الصلاة في الإسلام ، إنها تهب المصل راحة نفسية

وترفع عن كاهله أعباء الحياة ، لأنه مادام مقيم الصلاة فهو لا يشعر أنه يقف وحده في مواجهة الحياة ، فإن الله دائماً معه ، وإذا نزل به ضيق فإن الله معينه على الخلاص ، ولهذا يحتاج الإنسان إلى الصبر مع الصلاة ، ولهذا يقول الله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة ٢ / ١٥٣] .

والصبر هنا ليس هو صبر الكسالى الذين يحسبون أن الصبر إنما هو التواكل وعود الإنسان خاملاً حتى يأتي الفرج من عند الله ، وإنما هو صبر المؤمنين المتقين الذين يبذلون أقصى الجهد فى السعى والعمل ، ويتوكلون على الله بعد ذلك ، وكان هذا هو مذهب رسول الله ببذل أقصى وسعه فى أداء رسالته ويستعين بالصبر والصلاة ، وكان يجد فى الصلاة راحة نفسية ويسمىها قرّة عينه وأحياناً كان يستطيل الوقت بين الصلاتين ويشتاق إلى الوقوف بين يدي ربه فيقول : أغثنا يا بلال .

والصلاة من العبد دعاء إلى الله ، وصلاة الله سبحانه على العبد رحمة منه به :

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ . [البقرة ٢ / ١٥٥ - ١٥٧] .

وهذا من أجل معانى الصلاة فى الإسلام ، والله سبحانه يؤكده فى آيات أخرى مثل قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . تحيتهم يوم يلقونه سلامٌ واعد لهم أجراً كريماً ﴿٤٠﴾ .

[الأحراب ٣٣ / ٤١ - ٤٤] .

والمراد هنا ذكر الله في الصلاة وخارجها ، ونحن نرفع أقدار أنفسنا بالوقوف بين يدي الله ونستعين بالمولى جل وعلا ، وهو يشملنا بعطفه ويصلي علينا وملائكته ، وذلك جانب آخر من جوانب جمال الصلاة في الإسلام ، فهي رابطة ولاء وإيمان ورحمة وسلام بين الإنسان وخالقه ، ونحن في الحقيقة عندما نصلي لا نقوم بواجب نحو الله فحسب ، بل نقوم بواجب نحو نفوسنا . فنحن نتطهر بها ونعتز ونلتمس بها من الله قوة وعزماً ورشاداً .

ولهذا فنحن لا نقوم للصلاة إلا إذا كنا على طهارة ، وقد أمرنا بالوضوء عند كل صلاة ، إلا إذا كنا واثقين من أن وضوءنا لم ينقض ، وكان رسول الله على طهارة أبداً لأنه كان مع ربه دائماً ، وقد فصل الله سبحانه أمر الوضوء ، لأنه أراد أن يضيف إلى طهارة النفس قبل الصلاة طهارة البدن .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيَنبِتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾ [المائدة ٦] .

وأنت ترى هنا أن الله ينص نصاً واضحاً على الطهارة مع الصلاة ، حتى تكون الصلاة طهارة ونظافة في نفس الوقت ، وهو يفصل الأمر هنا لكيلا يستهين الناس بأمر النظافة والطهارة ، والنظافة كما نعرف مظهر من مظاهر الحضارة ، ومن عجب أننا مع كثرة تشدقنا بالدين لا نرعى جانب النظافة حق

رعايته ، وكأن علينا أن ننتظر قرناً حتى يأتي أهل الغرب ويعلمونا النظافة وكيف تكون ، بل هم الذين اخترعوا وسائل جلب المياه إلى البيوت ، وتنقيتها وتطهيرها وتيسير أمور الحمامات ، ونحن مع ذلك لا نستحي ، وإلى يومنا هذا مازال الكثير جداً من مساجدنا في حاجة إلى النظافة ، في بلاد الغرب حيث لا تتطلب الصلاة نظافة أو طهارة لا تدخل الكنيسة إلا وجدتها آية في النظافة .

وفي كل حي من أحياء المدن وفي كل قرية جمعية من الناس رجالاً ونساء يهتمون بنظافة الكنيسة ، حتى المساجد الكبرى عندنا تجد لكل واحد منها فرقة من الخدم ومع ذلك فإنك تجد المسجد في حاجة إلى نظافة ، وإنما كل همناً شقشقة اللسان ، وما أكثر المخادعين الذين يتمسكون بظاهر الدين دون لبابه ، وعرفت واحداً من أولئك المنافقين إذا حدث أن اضطرت الظروف إلى لمس امرأة صدفة أسرع يتوضأ مع أن الله سبحانه لم يقل : ﴿ إِنْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ بل ﴿ إِذَا لَمَسْتُمْ ﴾ و الفرق بين مجرد اللمس دون قصد والملازمة التي تطول بعض الوقت وربما أثارت في النفس شيئاً .

والصلاة صلاتان : صلاة المرء في بيته أو مفرداً في أى مكان ، وهى أداء الفرض مع ما لا بد لذلك من خشوع وإحساس صادق بأن الإنسان مع ربه وبين يديه حتى يسلم من صلاته ، **وصلاة الجماعة** ولها معان ووظائف أخرى إلى جانب فضائل الصلاة التى نعرفها ، فهنا يجتمع المسلمون بعضهم إلى بعض ليقوموا الصلاة حتى يشعروا بقوة الجماعة ويذكروا أنهم أعضاء في الأمة الإسلامية الكبرى ، والإسلام - كما قلنا في فصول سابقة أمة وجماعة وجيش ، ورسول الله ﷺ ربى أمتة في المدينة في الصلوات وفي المغازى ، ولهذا فنحن نطالب في صلوات الجماعة بال التزام نظام يشبه نظام الجنود ، فنحن نصطف صفوفاً مستقيمة متجهة بوجوهها وقلوبها نحو الكعبة ، وهنا تأخذ الصلاة معنى وحدة الهدف ووحدة الغاية ، وهذه فضيلة ينفرد بها الإسلام : إنه دين جماعة ، ويد الله مع

الجماعة . ثم إننا نصلى خلف الإمام ، والإمام هنا رمز للقيادة ووحدة الأمة ، ونقف صامتين خاشعين ، ونتحرك حركة واحدة في نية الصلاة والقيام والركوع والسجود .

وإمعاناً في إشعارنا بروح الوحدة أثناء صلاة الجماعة قالت بعض المذاهب إن المصلى خلف الإمام يكفى بقراءة الإمام وهو منصت ، حتى يكون المصلون جميعاً مع الإمام في نفس الآيات . ولا ينبغي أن تنسينا صلاة الجماعة ما ينبغي للصلاة من خشوع وصمت ، وهنا ينبغي أن ننسب إلى مجافاتنا لما ينبغي للصلاة الجامعة من خشوع ، فنحن نسمع قرآن الجمعة كأننا ننصت إلى مطرب ، ولا يكاد الشيخ يتلو آية حتى ينطلق نفر من الناس مستحسنين ، ويصل الأمر أحياناً إلى درجة تمس حرمة الصلاة ، وبعض المقرئين أنفسهم يدعون الناس إلى أن يصيحوا مستحسنين بإسرافهم في التطريب مما يمس حرمة الصلاة ويخرج بنا عن خشوعها ، ولا تخلوا الصلاة في المساجد من ثقل لا يزالون يصيحون : الله الله يفتح عليك ! وصلوا على حضرة النبی ! ووحدوه ! وكل ذلك خروج على ما ينبغي للصلاة من خشوع وصمت وجلال ، وفي السنوات الأخيرة درجوا في صلاة الجمع على أن يقولوا في المذيع إن الصلاة يحضرها فلان الوزير وفلان المحافظ أو الموظف الكبير ، مع أن الناس جميعاً إذا دخلوا المسجد للصلاة انتفت عنهم صفاتهم الدنيوية والوظائفية ، ولم يعودوا إلا عباداً لله يستتون مع غيرهم من عباد الله ، وحبدالو أقبلنا عن هذه العادة التي يشعر الإنسان معها أن هؤلاء المسمين بالكبراء يشرفون المساجد بصلاتهم ، وما أظن أن واحداً منهم يريد ذلك .

وإذا كان الفن الإسلامي يعجبك فاذكر أن كل هذا الفن وما يتميز به من خصائص وشخصية فنية متميزة بين مدارس الفنون في الدنيا إنما ولد في المساجد هنا ولدت العمارة الإسلامية والزخارف الإسلامية التي تعتبر من أعظم مدارس

الفن في تاريخ الحضارة الإنسانية ، وهذا باب واسع ألف الناس فيه الكتب ، وهذا على عظيم شأنه في تاريخ الحضارة إن هو إلا ثمرة جانبية من ثمرات الصلاة ، وهي في صميمها عبادة وعمل وحضارة شأنها في ذلك شأن كل عبادات الإسلام .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ
لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[التوبة : الآية ١٠٣]

تحدثنا في الفصل السابق عن الصلاة ومعانيها وحكمتها الإيمانية ومعانيها الحضارية ، وهذه المرة نتحدث عن الزكاة وهي تؤام الصلاة ، والعبادة الثانية في الإسلام ، ونفصل مغازيها ومراميها الإيمانية وكيف أنها تفتح أمامنا أبواب القول والفكر في المال ووظيفته الإنسانية في الإسلام .

ينفرد الإسلام من بين الديانات بعبادة الزكاة ، فإن الصلاة والصيام والحج توجد في كثير من ديانات البشر ، إلا الزكاة بمعناها ومغزاها الإسلاميين ، فإنك عندما تركى أو تتصدق لا تعطى أخاك المسلم ، بل أنت في الحقيقة تعطى الله سبحانه ، والله يرده على جماعة الإسلام ، وفي ذلك من التكريم والرفعة لك و لجماعة الإسلام فوق ما يستحق البشر ، وقرأ الآيات التالية من سورة التغابن لتقف على جلال هذا المعنى العظيم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لَأَنْفُسِكُمْ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً

يُضَاعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [التَّغَابُن ٦٤ / ١٦ - ١٧] .

وهذه معان عظيمة تريك جوانب شتى من جلال الإسلام وفضائله ، فإن الله تعالى يعرف أن الإنسان شحيح بهاله مع أن المال على الحقيقة ليس ماله ، إنما المال كله لله ، وهو يستخلفنا فيه ، ولكن الإنسان شحيح بهالا يملك ضنين به على الآخرين ، وهذه غريزة فيه ، وهى ككل الغرائز ركبها الله فى طبعه الحيوانى لكى يحافظ على كيانه ، والله يأمرنا هنا بالتقى والطاعة لأن الطاعة تفتح لنا أبواباً من رضا الله وخيره علينا ، ثم يأمرنا بعد ذلك بأن ننفق من مالنا فى سبيل الخير . ويقول إن هذا الإنفاق ليس إحساناً على الآخرين . بل هو إحسان لأنفسنا ؛ لأننا فى الحقيقة لا نعطى الآخرين بل نقرض الله جل جلاله ، لأن المال الذى سنعطيه ليس مالاً ضائعاً ، بل هو قرض يرده الله علينا بأحسن مما أعطينا ، فهو يضاعفه لنا ويتفضل علينا بمغفرته ، والمغفرة فى ذاتها خير لا يقدر ولا يكتفى الله بمضاعفة القرض والمغفرة ، بل هو يشكرنا على ذلك ، لأن الله على رفيع قدره شكور حلیم . والله عندما يشكر عباده المحسنين يعلمنا الشكر ، وهو من أعظم الفضائل .

وقد أحسن الخليفة هارون الرشيد على رجل بشيء من المال عندما حدثه بأمره القاضى أبو يوسف يعقوب ، فأخذ الرجل المسال ومضى ، فقال له أبو يوسف : لم أرك شكرت أمير المؤمنين فقال الرجل : إنما أشكرك أنت لأنك أنت الذى كلمته فى شأنى ، فقال له أبو يوسف لو عرفت هذا من جحودك لما كلمت أمير المؤمنين فى شأنك قم يارجل فاشكر أمير المؤمنين ، فإن القلوب ترتاح إلى الشكر ، والله سبحانه أحب الشكر من عباده وجعل قلة الشكر مقابلة للكفر ، قال جل وعلا مخاطباً بنى إسرائيل : ﴿ وَإِنْ تَاذَنَّا رَبُّكُمْ لَنِشْكُرَنَّكُمْ لَازِيْدِنَكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٧] .

وفي عصرنا هذا الذي عظم فيه شأن المال واشتدت حاجة الناس إليه تزداد إدراكاً لمعاني الزكاة وفضيلة الإنفاق في سبيل الله ، وتزداد فهمها لوظيفة المال في الإسلام ، لأن المال كما نعرف ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لجلب المنافع ، ومن ثم فإنك لا تملك إذا ملكك المال لذاته ، ولا يغني مال الدنيا كلها عنك شيئاً إذا أنت جعت أو عطشت أو مرضت ولم تجد الطعام أو المال أو الدواء . وأنت كذلك لا تشعر بطعم السعادة إذا أنت ملكك المال وحدك ، والناس من حولك فقراء ، والله سبحانه خلقنا - نحن المسلمين - أمة واحدة ، وأحب منا أن تكون قلوبنا واحدة ، ولا شيء يرقق القلوب كالعطاء الكريم يقدمه الإنسان للمحتاج عن نفس طيبة راضية .

وهذا فقد فتح الإسلام قلوبنا على الحقيقة الكبرى وهي أن المال كله لله ، وهو سبحانه يعطى منه من يشاء قرضاً حسناً منه لعبده لينتفع به في معاشه ، ويعين به أخاه ماعاش ثم يعود المال بعد ذلك لله ، والإنسان زائل ، ولكن المال باق في الأرض ، والباقي يبقى مع الباقي الدائم وهو الله . والسعيد العاقل منا هو من ينتبه إلى هذه الحقيقة ، وهذا فإن الله يقول لرسوله الكريم في الآيات التي جعلناها مذكراً لهذا الفصل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ، والرسول لن يأخذ المال لنفسه ، بل هو يأخذها لكي يعين بها صاحب الحاجة ، بل هو لا يأخذها أصلاً ، لأن الزكاة ليست ضريبة ، والإنسان لا يؤديها كما تؤدي الجبايات ، ولهذا فإن الفعل الذي يستخدمه القرآن في شأن الزكاة هو « أتى » أى أخرج من ماله طوعية ومحبة لله :

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة ١٧٧ / ٢] .

وفي هذه الآيات التي استشهدت بها في مقام آخر من تلك الدراسة نجد ان إيتاء المال للمحتاجين يأتي بعد الإتيان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبين ، لأن المال كما نعرف عصب الحياة ، وهو الشيء الوحيد الذي يعاني الإنسان عندما يخرج عنه ، فإنك قد تدعو صاحباً لك للطعام في بيتك وتنفق في ذلك نفقة كبيرة ولكنك تفعل ذلك عن مسرة ، ولكن نفس صاحبك إذا طلب منك قرضاً عشرة جنيهات فحسب وجدت صعوبة في العطاء ، ثم إنك لن تنسى قط أنه استدان منك هذا المال ولن تستريح إلا إذا رده إليك فإذا هو لم يرده بقي في نفسك من ناحيته شيء .

وهنا تتجلى لك فضيلة الإسلام الذي يقول إن المال الذي في يدك ليس مالك وإنما هو مال الله ، وليس لك فيه إلا حق الارتفاق أى الانتفاع ، وفي النهاية ومهما طال عمرك وكثر مالك فأنت راده إلى الله وخارج من الدنيا عرياناً كما دخلتها ، ولا يبقى لك من هذا المال إلا ما تصدقت به ، فهذا يبقيه الله عليك ويثيبك عليه ، أما ما أنفقت في طعامك وشرايك ومتاعك فهو زائل بزوالك ، فإن المال كله لله ، وفيما أمرنا الله به في شأن ماملكت أيأنا نقرأ : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [النور ٢٤ / ٣٣] .

فالمال كله عطاء الله سبحانه ، قد سئل أحد الصالحين عن بيت يملكه فقال : إنه لله في يدي ، ومهما بلغ مالك فكله لله في يدك ، وأنت لا تملك منه شيئاً ، فإذا أنت لم تؤمن بهذا وتتصرف على أساسه فقد خرجت على حكم الإسلام في المال ، لأنك ستجد بعد ذلك أن المال الذي تحسب أنك تملكه هو الذي يملكك وأنت عبده . أعاذك الله من رق المال وذله .

وأنت إذ تخرج الزكاة من مالك فأنت تطهره وتجعله حلالاً ، فإذا أنت لم تخرج الزكاة من مالك ظل المال نجساً غير طاهر ، ومن هنا فأنت لست حُرّاً في

شأن الزكاة تؤتيها أو لا تؤتيها ، فهي حق المال عليك ، وأنت تعطيتها لمن يستحقها ، وقد حدد الله لك ذلك ووكلك في ذلك إلى نفسك ، فهي مسألة تقدير ، ومن هنا فإن الأحناف أجازوا إيتاء الزكاة للرجل القوى القادر على العمل إمعاناً منهم في إطلاق حرية الإنسان في العطاء ، ويسرف بعض الفقهاء في تصوير تطهير الزكاة للمال فيقولون إن الصدقات أوساخ الناس ، أى هي الخبز من المال الذى إذا خرج منه طهر ، وهذا إسراف منهم في التخريج لأن المال نعمة من نعم الله ، والنعمة لا توصف أبداً بأنها وسخ ، ومن مذهبهم في ذلك قولهم إن الصدقة لا تجوز على آل البيت ، لأنها مال غير طاهر ، وهذا أيضاً مذهب فيه إسراف ، وما ذنب الرجل من آل البيت تشتد حاجته للمال فيحرم منه لمجرد أنه من آل البيت ، وقد أنكر هذا رأى أبو يوسف في كتاب الخراج ، وجعل لآل البيت نصيبهم من بيت المال على أساس أنهم من ذوى القربى .

والحسن الشيباني : قال إن لكل منا ذوى قربى ، ولكن آل البيت هم ذوى قربى لكل مسلم ، فهم آل بيت الرسول رحمة الله للعالمين ، وكل مؤمن صادق إنها هو على الحقيقة ذو قربى لرسول الله ﷺ ، لأن القرابة الحقيقية في الإسلام إنها هي قرابة الإيمان والروح والإحساس ، وقد قال رسول الله في كتابه بين المهاجرين والأنصار إن المؤمنين المتقين بعضهم موالى بعض من دون الناس ، والولاء لحمه كلحمه النسب ، وقد بلغ رسول الله بسلامان الفارسي غاية التكريم عندما قال : سلمان منا آل البيت .

والزكاة ليست فضلاً من المؤمن على أخيه ، بل هي واجب عليه وقد قرر الله سبحانه ذلك عندما قال في سورة الذاريات : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَقْلًا تَبْصُرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَعْدُونَ ﴾ [الذاريات ١٩ / ٢٢]

وفي هذه الآيات الكريمة من جليل المعاني الإسلامية ما إن شئنا أن نكتب فيها مجلداً لكتبناه ، وما دامت إسلامية فهي إنسانية ، فإن كل ما هو إنساني إسلامي لأن القرآن الكريم - دستور الإسلام - إلهي بمصدره إنساني بغاياته ، وكلماته رباط متصل بين الحق وحقائق الكون ، والله سبحانه هو الحقيقة الكبرى في هذا الوجود كله . . وأظن أن هذا المذهب في فهم عبادات الإسلام كان مذهب الإمام الشافعي ، فقد كان يرى أن كل ما ينفع الناس فهو من الإسلام ما لم يكن في شأنه تحريم من الله ، ومن بديع ما نلاحظه عندما نتأمل آيات الزكاة في القرآن العظيم هو أنها لا ترد وحدها إلا في النادر ، وقد أشرنا إلى أنها في الغالب مقترنة بالصلاة ، وهذا جمع بين حق الله وحق المخلوق ، فلننظر في آيات أخرى من آيات الزكاة لنرى ارتباطها بفضايا حضارية أخرى لكي يتجلى لنا الجانب الحضاري في الزكاة استكمالاً لمذهبنا في هذه الفصول من القول بأن الإسلام كله حضارة .

﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٠ - ٤١] .

فهنا ترى الزكاة مرتبطة بالصلاة ، وهي مرتبطة كذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم إن إيتاء الزكاة يجيء هنا مظهراً من مظاهر شكر الإنسان لله على التمكين له في الأرض ، والتمكين للأمة يكون بتقويتها وتثبيت أقدامها وهدايتها إلى التزام الخط الإسلامي السياسي والسلوكي ، أما بالنسبة للإنسان فهو تيسير الله الرزق للإنسان والتوفيق والسعة فيه وهنا تكون الزكاة - إلى جانب فضائلها الأخرى - رباطاً جديداً من الروابط التي تشد الإنسان إلى خالقه وتزكيه وتطهره ، أما واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فضائل الإسلام الكبرى ، لأنه أمر بالإصلاح ، والأمر هنا موجه إلى الجماعة في المكان الأول . لأن الإنسان المفرد عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وحده لم يصل إلى كثير

أما الجماعة الأمرة بالمعروف الناهية عن المنكر فهي جماعة صالحة تخدم نفسها وتتصلح أحوالها ، وفي المرات الكثيرة من تاريخنا التي انتدب أفراد أنفسهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصبوا أنفسهم مصلحين لم يؤد الأمر إلى خير كثير . لأنهم يجدون أنفسهم لا محالة متجهين إلى طلب السلطان لأنفسهم ، وهنا ينحرفون عما انتدبوا أنفسهم له انحرافاً خطيراً وقد كثر كلام الفقهاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنهم نظروا من زاوية الفقه ، أما نحن فننظر من زاوية التاريخ ، وتاريخ الحضارة بصفة خاصة ، وتجارب التاريخ تقول إن الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يبدوها رجل وتستجيب له الجماعة فتدخل في حركة إصلاحية ، وهنا ينبغي على صاحب الدعوة ألا يتمسك بالرياسة والقيادة ، بل يدع الدعوة عامة لمن يريد أن يدخل فيها ، وذلك حتى لا ينحرف به الطريق فيتحول إلى صاحب سلطان فردي ، وهنا لا تؤمن العواقب

المهم لدينا أن الزكاة تأتي هنا في إطار أخلاقي عام ، لأننا إذا نظرنا إلى نسبة الزكاة من مال الإنسان وجدناها شيئاً هيناً جداً ، فهي لا تزيد على اثنين ونصف في المائة من المال المتحرك في المعاملات والكسب ، أما المال الذي يعيش منه الإنسان فلا زكاة عليه ، فأنت إذا ملكت داراً تسكنها أنت وأهلك ولا تملك غيرها فلا زكاة عليك فيها ، وإذا كان لك راتب على قدر مطالبك فلا زكاة عليك فيه وهنا يكمن الفرق اليسير العظيم في نفس الوقت بين الزكاة والصدقة ، فإن الزكاة هي المفروضة ، أما المال الذي تخرجه طواعية على حب الله فهو الصدقة ، وهنا لا حدود فأنت وإنسانيتك ، وأنت وإيمانك ، وفي الآية التي اتخذناها محوراً لهذا الفصل نجد أن الله سبحانه يأمر بالصدقة التي تطهر النفس وتركيبها عند الله ، لأنك عندما تؤتي الزكاة فأنت تقوم بعبادة مفروضة عليك ، وثوابك عليها عظيم وكذلك يقع علينا العقاب إذا قصرنا فيها ، أما الصدقة فتشمل المفروضة وما

يخرجه الإنسان تطوعاً ، وهذه فضيلة إنسانية وحضارية ، ولهذا يأمر الله رسوله الكريم بأن يصلى أى يطلب الرحمة لأولئك الذين يتطهرون ويتزكون بالصدقة ، وصلاة الرسول علينا سكن لنا وأنس وأمان وفضل من الله عظيم .

وتأكيداً للمعنى الذى قلته من أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحث على العبادات هى فى المكان الأول من واجبات الأمة لا الأفراد نذكر قول الله فى كتابه العزيز :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ .

[مريم ١٩ - ٥٤ - ٥٥] .

فإسماعيل عليه السلام كان نبياً ، ولكنه لم يكن مكلفاً برسالة أو حاملاً كتاباً من الله الذين رفعهم إلى مرتبة الرسل أى المكلفين برسالات إلى الناس الحاملين إليهم كتباً هم الخمسة العظام وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، وهؤلاء كانوا مكلفين لمخاطبة الناس وهداهم إلى الحق وقيادتهم فى معارج الإيمان والرضوان ، أما بقية الأنبياء فواجباتهم أقل ، فهم يدعون فى دائرة من حولهم ومن قرب منهم فحسب ، ولهذا فإن إسماعيل كان نبياً ورسولاً إلى من حوله وأهله ، ولهذا كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان بهذا مرضياً من الله سبحانه ، فإذا صدق هذا بالنسبة للأنبياء فما بالك بأفراد الناس ؟ إن المطلوب منهم هو أمر أنفسهم وأهليهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، أما توجيه هذه الدعوة إلى الأمة فهو شأن الجماعة حتى لا يستخدم كل طامع وطامع موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى إقامة سلطان دنيوى كما حدث مرة بعد أخرى فى تاريخنا الطويل ، ويتجلى لنا هذا المعنى فى قوله تعالى فى سورة الأنبياء فى مقام الحديث عن عدد من الأنبياء منهم إسحاق ويعقوب :

﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنُجَيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَنْعَمَ يَهُودِينَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ . وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٦٩ - ٧٧] .

فإبراهيم عليه السلام هو النبي الرسول حامل الرسالة إلى الناس ، ولهذا تعرض للأذى والإحراق من الناس ، وتداركه الله برحمته فجعل النار برداً وسلاماً عليه ، أما إسحاق ويعقوب فكانا نبيين جعلهما الله صالحين وأرسلهما مؤكدين لرسالة إبراهيم مذكريين الناس بها ، وبهذا كانا صالحين وإمامين يهدون الناس بأمر الله ، أما الذي أوحى إليهم فهو فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله وحده ، ولم يكنفهما الله أكثر من ذلك ، لأن رسالات الله إلى عباده معالم تحول في تاريخ البشر ، وخطوات بالإنسانية إلى الرقى والحضارة ، ولهذا فهي قليلة لا تزيد على خمس ، بدأت بإبراهيم ووصلت قمته على يد محمد خاتم الرسل والنبين وحامل رسالة الله الخالدة إلى عباده ، وهي رسالة واضحة محددة باللفظ في القرآن الكريم . فلا يجوز بعد ذلك أن يجيء إنسان ويزعم لنا أنه مكلف من الله بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو أنه يحمل لنا رسالة تصلح الكون ، لأن صلاح الكون منحصر في القرآن الكريم وسيرة نبيه الكريم ، وإصلاح الكون يكون باتباع هدى القرآن والرسول .

والتأمل في عبادات الإسلام كلها يجدها إلى جانب فضائلها الإيمانية جماعية اجتماعية في نفس الوقت ، فهي جماعية ، لأن بركتها لا تتم على أحسن صورها إلا إذا أدت جماعة ، وقد ذكرنا فيما مضى فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد ، أما الناحية الاجتماعية في الصلاة فتبدو في اجتماع الناس بعضهم إلى بعض في المساجد ، وهي بيوت الله ، فيكون ذلك أدعى إلى صفاء القلوب وزوال

الخلافات إذا عرف الناس أفضال صلوات الجماعة على حقيقتها ، ولعلك تعرف أن المسلمين اتخذوا مساجدهم مدارس ومواضع للدراسة ، بل جامعات ، واتخذوها في نفس الوقت دور قضاء ، ففي المساجد كان يجلس القضاة ويصدرون الأحكام ، والسبب في ذلك هو أن المساجد هي بيوت الله وبيوت الناس في آن معاً ، والإنسان عندما يذهب للصلاة في المسجد إنما يزور الله سبحانه في بيته ، وهذا تشریف للإنسان أى تشریف ، ثم إن أهل العلم والقضاء في الإسلام أرادوا أن يستقلوا بالعلم والقضاء عن سلطان الدولة حتى لا يكونوا في خدمتها ، بل في خدمة العلم والشرية ، ولم نعرف في حضارتنا المدارس إلا من القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، وقد أنشئت دور العلم الخاصة بالتدريس أول الأمر لتعليم غير العرب اللغة العربية والشرية ، وأول من أنشأها رجل غير عربى هو نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، وهو تركى سلجوقى أراد أن يستعرب هو وقومه ، أما دور القضاء التى تبنيتها الدولة للقضاء فقد رفضها فقهاء المسلمين من أول الأمر واتخذوا مجالسهم في المساجد وهى المباني العامة الوحيدة التى ملكتها الأمة ، لأن المسجد حتى لو بناه السلطان فهو يصبح بمجرد الفراغ من بنائه ملك الجماعة ، ولا سلطان للحكومة عليه : ولهذا لزم القضاة المساجد حتى يكونوا أحراراً في تطبيق الشريعة ويقال إن من أسباب مأساة ابن المقفع هو أنه نصح الخليفة في رسالة الصحابة بأن يجمع الفقهاء ويجعلهم يسنون تشريعاً عاماً للدولة تحت إشراف السلطان وبهاله ، وقد نفر الفقهاء من هذه الفكرة ورفضوها ، فظل أفاضل الفقهاء وأتقياؤهم وأهل الفقه والورع فيهم مستقلين سواء في التشريع أو القضاء ، بل رفضوا كذلك رواتب الدولة ، وعندما كانت الدولة تثقل عليهم لقبول القضاء كانوا يهربون ويظلون متأبين حتى كان رجال الشرطة في بعض الأحيان يأخذون القاضى مقبوضاً عليه ويجلسونه في مجلس القضاء في المسجد ، وإذا كانت

العدالة هي أساس صلاح الجماعة وأمان المجتمع ، فهذا يبين لك الفضائل الحضارية للمساجد التي هي ثمرة من ثمرات الصلاة .

أما الجانب الاجتماعي للزكاة فيتجلى في آيات كثيرة من القرآن مثل قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤١] .

فهنا يذكرنا الله ببعض آياته في خيرات الزروع ، وهنا حث على العمل في الزراعة وتذكير بخيرات هذا العمل ، ولكن الأهم من الزرع والفاكهة هو أن نؤتي حقها يوم حصادها ، وحقها هو أداء زكاتها حتى تطيب وتحل لنا وتحصل بركاتها ، فإذا نحن لم نخرج من ماها حقه ، وهو حق الفقير والمحتاج وهي الزكاة لم يحل لنا ولم يصبح نعمة ، والله يأمرنا هنا بأن نشعر بأننا أمة واحدة يعين القادر منا غير القادر ، وهو لا يعينه تفضلاً منه وإحساناً ، بل يعينه بأمر الله خالقه ورازقه ، وفي آخر الآية أمر بعدم الإسراف ، لأن المال مال الله ، ولا بد من إحسان التصرف فيه بالاعتدال ، وأنت ترى في هذه الآية المباركة ميزة الإسلام في النظر إلى المال على أنه خير جماعي ، فالأمة الفاضلة المؤمنة أمة لا فضل فيها لغنى على فقير ، فالقادر يعين غير القادر بإخراج الزكاة المفروضة . وإذا أراد الزيادة في الخير جعلها صدقة أي زاد فيها تطوعاً .

وقد أتيتك بالآية الكريمة التي تقول : إن في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فالعطاء هنا حق مفروض ، وهذه أروع نظرة في شئون المال ، فإن الرأسماليين جعلوا المال نعمة ، لأنهم جمعوا المال لذاته واستخدموه أداة

لإذلال الفقراء فأقروضوهم بالربا ، وهو جريمة ، وجاء الشيوعيون فأفقروا الشعوب وجعلوا المال كله للدولة تستخدمه في إذلال الرعية وحرمانها من الحرية ثم تستخدمه في النهاية لصنع أدوات الدمار لكي تدخل الناس كلهم في باطل الشيوعية الظالم الذي لا يقيم للدم الإنسانى حرمة ، ومن أسوأ ما أضرب لك من الأمثلة على نقمة الرأسمالية الجامدة القاسية أذكرك بأن الولايات المتحدة الأمريكية وهى أم الرأسمالية حولت أمريكا الوسطى وأهلها إلى مزرعة فواكه وأن تملكها كلها شركة واحدة هى الأمريكان فردت كوبانى أى شركة الفواكه الأمريكية التى استولت دول أمريكا الوسطى بقوة الدولة وجهاز المخابرات المسمى باسم CIA وهو اختصار Central Inuestigation Agency أى الوكالة المركزية للتحقيقات ومثيلها المسمى FBI وهو اختصار Federal Bureau of Imuestization أى المكتب الاتحادى للتحقيقات ، وكل منهما جهاز يخدم المال الأمريكى وأصحابه ، ومعظمه كما ترى مال حرام ، ثم يشكون من ضيق أهل أمريكا الوسطى وثورتهم على رأسمالية أمريكا التى ذاقوا الأمرين منها وميلهم إلى الرأسمالية الشيوعية التى لم يعرفوا ويلاتها ، ويزعمون أنهم أى الأمريكيين يحاربون هناك الشيوعية ، والناس ياسيدى تحيروا وضاقوا بين ظلم الرأسمالية من ناحية والشيوعية من ناحية أخرى ، ولا مفر لهم من ظلم إلا إلى ظلم أسوأ منه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فأين هذا من عدل الإسلام وروعة نظرتة إلى المال عن طريق الزكاة والصدقة والعمل والاعتدال فى الإنفاق .

أما مثل ظلم الشيوعية الرهيب هذا ماحدث بالفعل لشعب أفغانستان عندما احتلت روسيا أفغانستان : يريدون أن يبدوا شعباً ليزرعوا على أنقاض مذهبهم الكافر غير الإنسانى ويزعمون مع ذلك أنهم دعاة عدل وحضارة وسلام .

وأختم هذا الحديث عن الزكاة والصدقة وفضائلها الجماعية والاجتماعية أى

الحضارية بهاتين الآيتين :

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

[الإسراء / ١٧ - ٢٦ - ٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿ أَقْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

[الروم / ٣٠ - ٣٧ - ٣٨] .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[البقرة : الآيتان ١٨٣ و ١٨٤]

حديثنا هذه المرة عن الصيام في الإسلام وخصائصه وفضائله ، ففى كل أديان الدنيا صيام ، ولكنه فى بعض الأديان إحياء لذكرى حادث من حوادث تاريخ العقيدة ، كما نجد عند المسيحيين فى صيامهم الكبير الذى يمتد أربعين يوماً من اليوم الذى يقولون إن المسيح صلب فيه إلى عيد الفصح ، وهو عيد حلول بركة الخلاص على النصارى ، ومع ذلك فهو ليس صياماً بالمعنى الصحيح لأنه صيام عن أكل كل ما أصله فيه روح كاللحوم والطيور والبيض واللبن أحياناً ، وكل ما عدا ذلك مباح ، وعند اليهود يوم الصيام الكبير وهو تعذيب لأنفسهم صيام أربع وعشرين ساعة كاملة ، وعند بعض طوائف الهندوس تعذيب للنفس ، فتجد الرجل يصوم أسبوعاً كاملاً يقتصر فيه على الماء ، وهم يقولون إن ذلك تنقية للنفس وتقريب لها من الآلهة ، وبعضهم يسرد الصيام الأسابيع الطويلة ، فتجده نحيلاً هزيللاً لا يكاد يقوم على رجله .

وهو يسمى ذلك تعبدًا ، ولقد زرت معبدًا في أمر يتسار في الهند خاصاً بطائفة من الهندوس تحرم على أنفسهم كل شيء تقريباً ، وكل من رأيته في معبدهم مهزول تعد أضلاعه بيدك ، وهو من فرط الهزال في حالة غياب أو عدم تركيز ذهنى .

أما صيام الإسلام فعبادة وتطهير وموعظة ورحمة وتنظيم اجتماعى ، وهو - ككل عبادات الإسلام - تربية جماعية واجتماعية .

وقبل أن أستطرد في الكلام أحب أن أنبه مرة أخرى إلى أننى عندما أقارن بين الصيام في الإسلام والصيام في الديانات الأخرى لا أريد أن أمس مشاعر أحد من غير المسلمين ، لأننا نحن المسلمين أمرنا بأن ندعو إلى ديننا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وليس من الحكمة والموعظة الحسنة أن تمس أديان الناس ، بل عليك أن تعرف الناس بفضائل دينك دون تعال أو مقارنة ، ثم بعد ذلك تدعهم لأنفسهم يتأملون مقالتك ويتدبرون حكمتها ، واذكر دائماً أن الحكمة لا تكمن في أنك مسلم . بل هى تكمن في أن تكون مسلماً مؤمناً بحق ، وأن تكون صالحاً نافعاً للناس ، فليس بمسلم حقاً من لم يكن صالحاً نافعاً للناس .

وصيامنا في الإسلام محبة في الله وفي جماعة المسلمين ، فإن فيه تلك الرحمة الإلهية التى هى ميزة الإسلام الكبرى ، ورسول الله صلوات الله عليه عندما قال : « إنما أنا راحة مهداة » ، أراد أن يقول شيئين : الأول أن الله عندما اختاره لحمل رسالة الإسلام وزينه بالفضائل وطهره بالكمالات أصبح شخصه فعلاً رحمة للعالمين ، وقد أحس بذلك المسلمون الذين أراد الله لهم سعادة صحة رسوله ، فقد كان وجوده بينهم جنة لهم وأمن ، وما قصده أجدهم في مشكلة نزلت به إلا أوجد له المخرج وأراحه ، سواء أكان رجلاً أو امرأة ، بدوياً جلفاً أو حضرياً مهذباً ، وفي موقعة أحد طارت عقول المسلمين عندما نادى منادى الكفار بأن

رسول الله قد قتل ، فلما عرفوا أنه معافى بخير قرت قلوبهم في أمكتها وعادوا إلى المعركة ودحروا غيظ الكافرين فانصرفوا من المعركة التي حسبوا أنهم كسبوها . انصرفوا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى بأبلغ بيان في قوله في سورة الأنبياء ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

[الأنبياء ٢١ / ١٠٧] .

وصيام الإسلام بصورته التي وردت في القرآن الكريم صورة من صور رحمته تعالى بالمؤمنين ، فهو خير للمؤمنين كافة ، فالمسلم الغنى الذى يجد نفسه في وفرة من الطعام طول العام ، فيسرف على نفسه في الإفطار والغداء ، ويقيم الولائم أو يحضرها في العشاء ، ويتخم معدته بالطعام ، يجد في شهر الصيام علاجاً أى علاج إذا هو عرف معنى الصيام وقام بحقه ، فنحن في الحقيقة نصوم لنصح ، وقد كان لنا صديق موسر نيف على التسعين ، وكان إلى يوم وفاته نشيطاً يقطاً دائم الحركة ، وكان يقول : مانفعنى إلا الصيام ، فأنا أصوم الشهر المفروض ويومى الاثنين والخميس كل أسبوع ، وسحورى شىء خفيف أتناوله قبل نومى في العاشرة والنصف ليلاً ، وأتحرى في إفطارى سنة رسولنا الأكرم : شىء من تمر وفاكهة أو سلطة خضراوات ، ثم أصلى المغرب ، وقراءة الثامنة ليلاً آكل وجبتى الوحيدة ، ثم أتمشى قليلاً وأختم يومى بقراءة من القرآن .

وأما أوساط الناس أصحاب العيال فتلك فرصتهم لتصحیح صحة أولادهم ، فلا إسراف في سحور أو إفطار ، وهناك التزام بالقدر الضرورى من الطعام فتعبط نفقة البيت والعيال إلى النصف ، وأما الفقير المجهد في طلب رزقه فيجد نفسه في هذا الشهر أقرب إلى ربه ، فإذا كانت قلة الطعام محنة طول العام فهي قربة إلى الله في رمضان ، فتأمل هذا وانظر ماذا نفعل نحن في شهر الصيام ! لقد جعلناه شهر الطعام وأسرفنا على أنفسنا فيه ، والمستولون عنا يعينون الناس

على الإساءة إلى أنفسهم في شهر الصيام ، فهم يضاعفون لهم كميات الطعام استئلافاً لقلوبهم فيما يقولون ، وهذا خطأ جسيم ، وقد لاحظت أن معظم أهل الأسواق عندنا من صغار الباعة والحرفيين لا يصومون ، وما دخل بيتي عامل لإصلاح شيء في رمضان إلا وجدته مفطراً ، هذا مع سوء الخلق وبذء الكلام ولا أدري من أين أصابتهم هذه الطامة ، وكتبت أكثر من مرة موجهةً نظر الشيوخ والأئمة إلى هذه الظاهرة ، ثم أقصرت لأننى وجدت أن هؤلاء الناس نادراً ما يتصرفون عن فكر ، إنما هم محفوظات لديهم ، فما يقولونه في رمضان هذا العام هو نفس ما قالوه في الذى قبله والذى قبله ، وهو نفس الذى سيقولونه في رمضان من العام المقبل .

ولو تنبه أولئك الإخوة لوجدوا إلى جانب ما يقولونه تقليداً مذاهب من القول ذات سعة في فضائل الصيام الجماعية والاجتماعية والحضارية ، فنحن لا نصوم في نفس الشهر فحسب ، بل نمسك عن الطعام في نفس الساعة ونفطر في نفس الدقيقة ، وهذا تنظيم جميل وإشعار بوحدة الأمة عظيم . وصيامنا لا يقتصر على الامتناع عن الطعام في ساعات الصوم بل هو صيام أدب وتهذيب ، فمن مضيعات ثواب الصيام سوء القول وسرعة الغضب وإيذاء الناس واغتيالهم ، وهذا كله تهذيب وتأديب ، ثم إن الله سبحانه استحب منا كثرة الصدقة والجلود بالمال والطعام على إخواننا من المعانين من قلة الرزق ، لا على سبيل التفضل أو الإحسان بل قربة إلى الله ، فنحن في هذا كله نحسن إلى أنفسنا قبل أن نحسن إلى غيرنا .

وقد كانت لنا في هذا الشهر الفضيل مذاهب جميلة وفضائل حسنة لا ندرى كيف وأين ذهبت ، فأين المطعمون المحسنون ، وأين الكرماء الأتقياء ؟ وأين أولئك الذين كانوا يمدون الموائد للفقراء ساعة الإفطار ؟ إننى أذكر أننى كنت أقرأ في دار الكتب في باب الخلق إلى الرابعة بعد الظهر في رمضان وأعود إلى

بيتى فى شارع جنينة قاميش سيراً على الأقدام قبيل الإفطار فأعد نحو عشر موائد
 مدها أهل الخير لإفطار الراغبين ، ولا يخلو باب مسجد من رجال يفرقون الطعام
 على الناس ، وفى شارعنا كنت أعد أربع موائد ، وفى قريتنا كان الناس يتنافسون
 فى الإطعام ، فأين ذهب ذلك كله ؟ إننى ألاحظ أن التغير إلى الأسوأ يتسارع
 إلينا ، وخير القلوب يقل والتقى ينذر ، وكل ذلك فيما أحسب ناشئ عن
 ضعف التربية الدينية فى تنظيمنا الاجتماعى الراهن والتربية الدينية لا تقتصر على
 درس الدين فى المدرسة أو خطبة الخطيب فى المسجد يوم الجمعة ، بل هى تكون
 بالقدوة ، ففى الماضى كان رؤساء الناس من أهل البيوت الكريمة ، وكانت
 رياستهم للناس تربية وتهذيباً ، أما اليوم فقد انقلب الحال وأصبحت الرياسات
 والقيادات الاجتماعية والأموال بيد الأراذل الذين أصبحوا أكبر دون فضل ،
 ورؤساء دون فضيلة ، وأغنياء دون تعفف ، وسكان قصور لا يستحقون أن
 يكونوا خدماً فيها ، وركبوا سيارات مطهمة لا يصلحون أن يكونوا سائقها ،
 فانقلب النظام وضاعت القدوة وفقد المجتمع رباط الشرف والإيمان الذى كان
 يحميه من التدهور والانحدار ، ومن أسف أن هذا قائم فى الكثير من بلاد
 الإسلام ، وهم يكثر الحديث اليوم عن النقص فى مدرسى مادة التربية الدينية
 وأحب أن أقول هنا إن النقص ليس فى العدد إنما فى النوع ، لأن مدرس مادة
 الدين ينبغي أن يكون فى شخصه وسلوكه - بالإضافة إلى علمه - على مستوى
 الدين الذى يعلمه ، ولقد كنت أقرأ من أيام كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن
 سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ / ٨٢٠ م ، فقرأت الخبر التالى يرويه القاضى
 أبو العلاء الواسطى : كان أبو عبيد مع عبد الله بن طاهر والى خراسان للمأمون
 أى أنه كان يعلم ويؤلف له ويخدمه بالعلم ، فبعث إليه أبو دلف يستهديه أبا
 عبيد شهرين ، فأنفذه إليه فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين
 ألف درهم فلم يقبلها ، وقال أنا فى جنب رجل لم يحوجنى إلى صلة غيره

(يريد عبد الله بن طاهر) فلما عاد إلى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار فقال : أيها الأمير . . . قد قبلتها ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرك ، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها إلى الثغر ليكون الشواب متوافراً على الأمير ، ففعل . فقلت في نفسي : إن مجرد سيرة هذا الرجل تعلم الإنسان الدين .

ومن جميل مذهب الإسلام في الصيام أن الله سبحانه وتعالى جعله كفارة ومثوبة ، قال سبحانه وتعالى في بعض آيات الحج :

﴿ وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْضِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِذِيَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة ١٩٦ / ٢] .

وهذه آية لو قرأها جاهل بالإسلام ولكنه مفتوح البصيرة لأمن به ، فنحن هنا في مقام الحج وهو عبادة جليلة كما سنرى ، والله سبحانه يخفف مؤنته علينا ، ويمجد لنا المخرج في حالة المرض ، فعلينا هنا الفدية من صيام أو صدقة أو نسك ، وعبادة الصيام هنا فدية وتكفير وهي في مقام الصدقة ، فمن يعسر عليه هذا أو ذاك فعليه أن ينسك ، لأن النسك أو النسكة أو المنسك التزهد والتعبد ، وقد يكون النسك ذبح ذبيحة وإطعام لحمها للفقراء تقرباً إلى الله ، وكل هذه بركات وأفضال من الله على عباده ، وإذا كان الحج عبادة وتطهيراً فإن العبادات يغنى بعضها عن بعض ، وكلها خير على العباد ، فالصيام والنسك خير على المخلوق ، والصدقة خير على الفقير المحتاج ، وليس هنا صك غفران يشتره الإنسان بالمال ويأخذ ثمنه القس ويزعم له في الصك أن الله قد غفر له ، بل في كل ذلك أنت موكل إلى ضميرك لا يعرف سريرتك إلا خالقك ، ولقد هب

مارتن لوثر محارباً صكوك الغفران وقال أنها شيء باطل ، ولكنه أجاز لطالب التوبة أن يؤدي مالا للفقراء ، ولكنه اشترط أن يشهد القس على العطاء فكأنه لا يكل المؤمن إلى إيمانه ، ولا يترك الطريق مفتوحاً بين الخالق والمخلوق ، ولا بد أن يكون القس شاهداً ، أما في الإسلام فنحن مع الله في كل حين ، ونحن مع قلوبنا أو ضمائرنا في كل حال ، والإسلام دين قلوب ، والعبادات قوت القلوب كما قال أبو طالب المكي في كتابه البديع الذي يحمل هذا الاسم .

واقراً الآية التالية لترى كيف أن الصيام فدية وتوبة :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ يُؤْمِنُ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

[النساء ٩٢ / ٤] .

فانظر إلى روعة تشريع الإسلام في أمر القتل الخطأ ، وهنا نجد التوبات مقاولات ، فتحريير الرقبة المؤمنة توبة مع الدية المسلمة إلى أهل المقتول إلا إذا طابت نفوسهم وتركوا الدية لعجزهم عن أدائها مثلاً ، فيكون تنازل أهل القتل عن حقهم صدقة يحتسبها الله لهم ، إن كان القاتل مؤمناً من قوم معادين للإسلام فيكفى هنا تحرير الرقبة ، ولا محل للدية هنا لأنهم أعداء يستقرون بها على المسلمين ، أما إذا كان من قوم بينهم وبين المسلمين موثق سلام وتعاهد ، فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، وفي هذه الحالة إذا كان القاتل عاجزاً عن الدية وعق الرقبة فإن الجماعة الإسلامية تقوم عنه بأداء ذلك ، وقد فعله رسول الله ﷺ . ولكن لابد للقاتل من أن يكفر عن ذنبه بصيام شهرين متتابعين

تطهيراً لنفسه ، وتعبيراً عن توبته وندمه على ما وقع منه دون قصد ، أما إذا قتل المؤمن المؤمن قصداً فهنا يحق عليه القتل وجهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليماً .

فتأمل هذا التشريع الرفيع البالغ العدالة ، واذكر كم قتل المسلمون المسلمين عن قصد دون أن ينالهم في ذلك ندم ، واذكر كم أزهق حكام المسلمين في الماضي من أرواح الأبرياء ظلماً وعدواناً دون أن يشعروا في ذلك بندم ، ولقد قرأت عن رجل من حكام صقلية الإسلامية يسمى إسحاق القفلة جلس بين الناس يفخر بأنه قتل من رعاياه المسلمين ألف إنسان في يوم واحد ، فقال له أحد الصالحين يا أبا إبراهيم تكفيك نفس واحدة أى يكفي أن تقتل نفساً مؤمنة واحدة لتخلد في النار ويحل عليك غضب الله ولعنته وعذاب عظيم أعده الله لك فما بالك بقتل ألف من المؤمنين .

والذين قضوا أعمارهم - مثلى - في دراسة تاريخ الإسلام لا يتعجبون مما حل بنا من الفقر والظلم وسوء الحال ، لأننا منذ منتصف خلافة عثمان ونحن نقتل بعضنا بعضاً ظلماً وعدواناً ، وليس في التاريخ تشريع حصن النفس والمال بقدر ما فعل الإسلام ، وما هانت النفوس وأموال الناس على قوم كما هانت على أهل دول الإسلام الماضية ، وخذ جزءاً واحداً من تاريخ عام مثل كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير تحس وأنت تقرؤه أن الدم يسيل منه سيلاً حتى الكبراء والعظماء من أولى الأمر فينا كان الكثيرون منهم يستهينون بدماء الناس إلى درجة يتعجب معها الإنسان كيف صدق هؤلاء الناس أنهم مؤمنون وعلى أيديهم كل هذه الدماء ، ومازال المسلمون إلى يومنا هذا يفعلون هذا حتى أساء الناس الظن بالإسلام بجرائم أهله ، وما أبعد هؤلاء جميعاً عن الإسلام ، وإننى لأقرأ كلام المطالبين بتطبيق الشريعة كاملة فأقول حياً وكرامة ، شرع الله وهو واجب التنفيذ ولكن اضمناولى أن تقطع أيدي اللصوص الكبار قبل الصغار واضمناولى قطع

رقبة الكبير المجترىء على دماء الناس قبل أن يسقط السيف على رقبة القاتل الفقير التعيس ، وقولوا لى أيها الناس من يقطع يد مَنْ ؟ ومن يقطع رقبة مَنْ ؟ ونحن نطالب بتطبيق حد الخمر وهو حق ، ولكن هذه صفحات تاريخنا وسادتنا فى الماضى غارقون فى الخمر بل كانوا يثيرون الشعراء الذين يقولون القصائد فى مدح الخمر والتفنن فى ذلك ، ولا أذكر من خلفاء المسلمين من بداية الدولة الأموية عدا عمر بن عبد العزيز واحداً لم يقارف كل المحرمات ، ثم يتعجبون من سوء حال أمم الإسلام وانقطاع بركة الله عنهم ، إن عقابنا لا بد أن يكون أشد من عقاب الكفار الذين لم تصلهم رسالة الإسلام لأن جهلهم بالإسلام قد يشفع لهم ، أما نحن فما عذرنا وعندنا الكتاب وفيما رسول الله ؟ وقد قال الله سبحانه ذلك فى الآية السابعة من سورة الحجرات :

﴿وَاعْلَمُوا أَن فَيْكُم رَسُولُ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضَلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات ٤٩ / ٧ - ٨] .

وما أكثر ما ننسى أن فىنا رسول الله : فكان ماترانا فيه من خذلان . نسأل الله سبحانه ألا يجعلنا من أهل الخذلان .

لقد أمرنا الله بطاعته وطاعة الرسول أكثر من مرة فى كتابه العزيز ولكنه قال مرة واحدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء ٤ / ٥٩] والعلماء مختلفون فى المراد بأولى الأمر منكم ، أهم الحكام ، أم العلماء ، أم الحكماء ، وأهل العقل والرشاد ؟ ولكننا فسرناها اعتسافاً بأن المراد هم الحكام .

فأما الله سبحانه فعصيناه . وأما الرسول فعصيناه . ولكننا أطعنا الحكام

رهباً وخوفاً وذلاً ونفاقاً لأن الله سبحانه يمهّل والرسول يصفح ويستغفر ، وأما الحاكم فيعاقب ، ونحن قوم نخاف ولا « نخشى » كما يقولون ! وبعد ذلك كله فنحن نطمع في توفيق الله . فقل لى بربك من أين يحىء التوفيق للعصاة ؟ !

ولقد عرفنا حكمة الله سبحانه فى تحريم الطعام فى الصيام ، ولكن لماذا حرم الله شرب الماء فى الصيام ؟ هل الماء ترف يختص به الأغنياء دون الفقراء ؟

الذى نعرفه جميعاً أن الماء للشرب يتساوى فيه كل الناس . فإذا وجد الماء شرب الجميع ، وإذا لم يوجد عطشوا جميعاً .

فلماذا إذن أمرنا الله ورسوله بالآلا نشرب فى الصيام ؟ لقد طالما فكرت فى هذا الموضوع .

حتى جاءنى الجواب وأنا فى زيارة لجمهورية مالى ومالى جمهورية إسلامية إفريقية صحراوية حظها من الماء قليل ، فخرجنا مرة فى سيارة نرور مراكز العمران فى الصحراء ، وفى الطريق رأينا عظاماً كثيرة لناس هلكوا عطشاً ، وفى موضع من الطريق رأينا أربع أبقار قعوداً دون حركة ، وسألت فى أمرها فقيل لى إنها تموت عطشاً ، وقلت : إذن نسقيها ، فقيل لى : فات الألوان . إن الحيوان إذا اشتد به العطش لم يشك لأن الله لم يمنحه نعمة الكلام ، فإذا بلغ به العطش درجة معينة جلس كما ترى وأخذ يحتضر فإذا تداركناه بالماء فربما شرب وانتعش ، ولكن تحيىء عليه فترة تحف فيها كبده وطحاله وتتصلب كليته ، وهنا يرقد كما ترى ، ويجود بروحه فى صمت ، ولا يعلم إلا الله ما يعانى . وحاولنا تقديم الماء للبقرات المسكينات فلم تلتفت إلينا لأنها كانت قد دخلت دور النزع .

وعدت إلى السيارة وإن دموى لتنهل حزناً على تلك التعيسات .

وفجأة وجدت نفسى أقول : لهذا أمرنا الله بالصيام عن الماء .

إن الله يعلم أن في الأرض شعوباً أرضها ضئيلة بالماء ، هناك يعانى الناس من العطش ويموتون جفافاً ، هناك تقشعر الأرض ويصوح النبات ، هناك تتعذب الحيوانات وهى أخواتنا وفى ذمتنا ، وتموت صامته ولا يعلم إلا الله وحده ما تعانى .

لهذا أمرنا الله بالصوم عن الماء حتى نشعر بالآلام إخواننا من البشر والحيوان ، ومن المعروف أن الإنسان أثناء الصيام يعانى من العطش أكثر مما يعانى من الجوع وحكمة الله فى منع الماء تعدل حكمته فى منع الطعام .

وأنت ترى أننا نعيش فى زمان تعانى فيه شعوب كثيرة من أهل الأرض من نقص الماء ، فنحن مقبلون على فترة جفاف طويلة ستهلك فيها شعوب ، وبالفعل يهلك تحت أبصارنا ألوف من الحيوانات ومن البشر - وفيهم مسلمون كثيرون جداً ، وفى العالم اليوم معاهد تدرس مشكلة الجفاف وتبحث لها عن الحلول وفى المؤتمر الإسلامى الثالث الذى عقد فى الطائف عرضوا علينا مشكلة أهل الساحل الأفريقى وما تعانى من الجفاف ، والمراد بالساحل هنا ساحل الصحراء الأفريقية الكبرى ، وهى بحر الرمال ، ولهذا البحر ساحلان : ساحل يمر بالثلث الجنوبى من موريتانيا ومالى وتشاد والسودان النيل ، وساحل فى الشمال جنوبى تونس ، أقول عرضوا علينا صورة هذه الشعوب العزيرة وما تعانى من جفاف ، واقترحوا معونة مالية لها ، فتبرعت السعودية وبعض دول الخليج ببضعة ملايين للبحث عن الآبار وإنشاء مؤسسات المياه وتحليتها ، بارك الله فى أولئك الإخوة الأعزة الذين تبرعوا وأعانوا ، فهذا دليل إيمان عظيم .

وفى الكثير جداً من بلاد العالم المتقدم معاهد كاملة للهيدرولوجيا وهو علم المياه ، وفى جامعاتنا كلام كثير عن علم المياه ، ولكنه كالعادة كلام يخلو من العلم والإيمان جميعاً .

وعلم الهيدرولوجيا هو الذى حل لنا مسائل الماء وإيصالها إلى المدن والبيوت وتنقيتها وتحليتها ، كل ذلك صنعوه ويصنعونه ، أما نحن وفيما نزل القرآن وتنبه الله سبحانه على مشكلة الهيدرولوجيا وماهى جدية به من عناية ، ولكننا على العادة لا نتفكر ولا نتدبر ، وهل هناك أعجب من ناس أمرهم الله بالصيام شهراً ليتقللوا من الطعام وتصح أبدانهم فلا يكون منهم إلا أن يجعلوه شهر الطعام والتخمة والإسراف ؟ والحكومات نفسها تعين الناس على هذا الباطل ، كأن أحداً من رجالها لا يعقل ولا يفكر فتضاعف للناس كميات الطعام في شهر الصيام ! .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادِ غَرَضِي
زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَّمَ رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[إبراهيم : الآية ٣٧]

حديثنا هذه المرة عن الحج وهو العبادة الرابعة الكبرى من عبادات الإسلام وهي عبادة جليلة تنظيمية وجماعية واجتماعية ، ولها في سير حضارة الإسلام أبعد الأثر .

والذى جعلنى أختار الآيات التى اخترت أن أجعلها محورا لهذا الحديث أننى فرغت من قراءة واحد من أحدث الكتب التى صدرت فى الإنجليزية عن محمد صلوات الله عليه ، وعنوان هذا الكتاب بالإنجليزية « محمد » وفوقها بالعربية صلى الله عليه وسلم .

والمؤلف هو المستشرق الإنجليزي مارتين لينجز . وهو رجل معروف لنا فى مصر جيداً ، فقد كان مدرساً للغة الإنجليزية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ،

وفى مصر عرف الإسلام وقرأ القرآن وأحبه ودخل الإسلام عن بصيرة وبينه ، وعاد إلى إنجلترا لينقطع للقراءة عن الإسلام والاستمتاع بالقرآن والتأليف فيهما ، والفصل الأول فى كتابه عن رسول الله ﷺ عنوانه « بيت الله » وهو يروى فيه قضية سيدنا إبراهيم على اعتبار أنه نبي الله الذى اجتباه وأنشأ من صلبه ابنه إسماعيل وإسحاق .

وعن كل منهما نشأ شعب كبير : ودين سماوى ، (العرب والإسلام من إسماعيل) و (اليهود واليهودية من إسحاق) ، وإبراهيم عليه السلام هو أول المسلمين ، وهو وإسماعيل هما اللذان بنيا البيت الحرام ، ومارتن لينجز فى الفصل الأول من كتابه هذا يحكى قصة إبراهيم مقتبسة من العهد القديم فى سفر التكوين من الكتاب المقدس مع شىء مما قاله المفسرون المسلمون فى شأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وبهذه المناسبة أذكر أن مؤرخنا الكبير أبا جعفر محمد ابن جرير الطبرى أساء التصرف جداً فى كلامه فى هذا الموضوع فى الجزء الأول من تاريخه ، فبعد مناقشة وكلام كثير انتهى إلى أن الذبيح هو إسحاق ، فكان فى هذا مع اليهود على المسلمين . .

والآن أترجم لك كلام مارتن لينجز فى الفصل الأول من كتابه لكى تقف ياسيدى القارئ العربى على ما فى العهد القديم عن سيدنا إبراهيم قال : يقول سفر التكوين : (إن إبراهيم لم يكن له ولد ولم يكن له أمل فى أن يكون له ولد ، وفى ذات ليلة ناداه الله من خيمته ، وقال له : انظر الآن إلى السماء وعد النجوم إذا كنت قادراً على عدّها » ، وعندما رفع إبراهيم نظره إلى السماء يتأمل النجوم سمع الصوت يتناديه ويقول له : « هكذا ستكون ذريتك » .

« وكانت سارة زوج إبراهيم فى السادسة والسبعين من عمرها ، أما هو فكان فى الخامسة والثمانين ، وقدمت له امرأته سارة خادمتها هاجر المصرية لكى

تكون زوجة ثانية له . وفعل إبراهيم ذلك وحملت هاجر ، ثم وقع الخلاف بين سارة وهاجر ، وهربت هاجر خوفاً من غضب سارة ، وتوجهت إلى الله تسأله العون في محتتها ، وأرسل الله لها ملاكاً يبلغها عنه سبحانه « سأزيد ذريتك زيادة عظيمة حتى تستعصى ذريتك على العد لكثرتها ، ثم قال لها الملاك : اسمعى . . إنك الآن حامل وستلدن ولداً وستسمينه إسماعيل لأن الله قد سمع صوت استغاثتك » .

« ثم عادت هاجر إلى إبراهيم وسارة وبقية أسرتهما وأبلغتهم بما قال الملك . وعندما ولدت سُمى إبراهيم ابنها إسماعيل ومعناه « إن الله يسمع » .

وعندما بلغ إسماعيل الثالثة عشرة من عمره كانت سن إبراهيم قد بلغت المائة ، وكانت سارة قد بلغت التسعين ، ثم كلم الله إبراهيم مرة أخرى ، وقال له سبحانه إن سارة هي الأخرى ستلد له ولداً وأن عليه أن يسميه إسحاق . وخاف إبراهيم من أن يقبض الله محبته عن ابنه إسماعيل (ويقبضه إليه) نتيجة لذلك ، فرفع رأسه إلى السماء ودعا : سألتك جل جلالك أن يبقى ابني إسماعيل « وقال سبحانه : « سمعت دعاءك في شأن إسماعيل فاستمع لى : لقد باركته وسأشئ منه أمة عظيمة وسأخذ ميثاقى مع ابنك إسحاق الذى ستلده لك سارة من العام القادم » .

« وولدت — سارة ابنها إسحاق وأرضعته بنفسها وعندما بلغ سن الفطام قالت لإبراهيم إن هاجر وابنها لا ينبغي أن يظلا فى البيت أكثر من ذلك ، واغتم إبراهيم لذلك غماً شديداً لأنه كان يحب ابنه إسماعيل حباً عظيماً ، ولكن الله كلمه ، وقال له إن عليه أن يفعل ما طلبته سارة ولا يحزن وأعاد عليه وعده بأن إسماعيل سيكون مباركاً) .

ثم يقول مارتن لينجز :

« والآن لا ينظر إلى إبراهيم على أنه أبوه الأعلى شعب واحد بل شعبان عظيمان ، شعبان توجتهما العناية الإلهية ، ويريان أنها أداتان تنفذان إرادة الله لأن الله لا يمنح بركاته لشيء دنيوى ، وإنما هو يمنح بركاته لشيء روى ، وإبراهيم بهذا أصبح منبعاً يفيض منه تياران روحيان لا ينبغى أن يسيرا معا فى تيار واحد ، إن لكل منهما طريقه ، وأحل الله بركاته على هاجر وإسماعيل ووكل العناية بأمرهما إلى الملائكة ، وضمن لهما كل خير » .

تياران روحيان . ديانتان . عالمان . . ربهما الله سبحانه ، دائرتان ومركزان بالتالى . إن مكاناً من الأمكنة لا يصبح حرماً مقدساً بإرادة الإنسان بل الله يختاره ويخلع عليه الحرمه ، وكان فى محيط إبراهيم أو مجاله حرمان : واحد منهما كان موجوداً أمام إبراهيم ، أما الثانى فربما لم يكن إبراهيم يعرف عنه شيئاً ، وإلى هذا الحرم الثانى ساق الله هاجر وإسماعيل فى واد غير ذى زرع فى جزيرة العرب على مسيرة أربعين يوماً على الجمال جنوبى أرض كنعان ، وكان هذا الوادى يسمى بكة ، ويقول بعضهم إن هذا الوادى سمي بهذا الاسم بسبب ضيق المساحة التى يقوم فيها محاطاً بالتلال من كل ناحية إلا ثلاثاً : فله مدخل من ناحية الشمال ، ومدخل من الجنوب ، ومدخل من ناحية البحر الأحمر الذى يبعد وادى بكة عنه بخمسين ميلاً ، ولا تذكر لنا الكتب الطريق الذى سلكته هاجر وابنها إسماعيل إلى بكة ، وربما يكونان قد وصلا إلى هناك فى رفقة قافلة لأن موضع بكة يقع على واحد من طرق التجارة الكبرى ، ويسمى أحياناً طريق البخور . . ولابد أن هاجر انفصلت عن القافلة عندما مرت القافلة بالوادى ، ولم يمض وقت طويل حتى اشتد بالأم وابنها العطش حتى خافت هاجر على ابنها من الموت ، وبناء على ما يقوله أبناؤهما استغاث إسماعيل بالله من موضعه على الرمال ، ووقفت هاجر على مرتفع من الأرض ونظرت لعلها ترى قادمًا ، فلما لم تجد ، جرت إلى

مرتفع من الأرض ونظرت ولكنها لم تر أحداً وملكها اليأس فأخذت تجرى بين التلين سبعة أشواط ، ثم جلست تستريح على صخرة بعد الشوط السابع ، وهنا سمعت صوت الملك يخاطبها قائلاً كما نقرأ في سفر التكوين :

(وسمع الله صوت الغلام ، ونادى الملك أم الغلام من السماء ياهاجر لا تخافى لأن الله سمع صوت الغلام من حيث يكون : قومي واحمل الغلام وامسكى به بيدك لأننى سأنشئ منه أمة كبيرة وفتح الله عينيها فبصرت بعين ماء وقد فجر الله الماء من عين عند قدمي إسماعيل) .

ومن ذلك الحين أصبح الوادى موقفاً من مواقف القوافل المارة بالطريق ، وسميت العين زمزم - وإلى هنا أقف بالترجمة عن مارتين لينجز .



ونشأت إلى جانب وادى بكة مدينة مكة . وتقول الرواية الإسلامية المعتمدة إن إبراهيم ذهب إلى بكة ومكة عندما اشتد ساعد ابنه إسماعيل ، وإبراهيم وإسماعيل رفعاً قواعد البيت . . ونقرأ في سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا . وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرُوا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة ١٢٥ / ٢] وفى سورة آل عمران نقرأ :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَشَهِدَ عَلَى النَّاسِ حِجَّ الْبَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ . [آل عمران ٩٦ - ٩٧] .

وفي سورة الحج نقرأ :

﴿ وَادِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْإِنْعَامِ . فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ . ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتَوْفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ . ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج ٢٢ / ٢٧ - ٣٠] .

ولن أمضى في ذكر بقية آيات الحج التي نعرفها جميعاً لكثرة ماسمعتها وقرأناها . ولكنني أقف هنا وأسأل : ما حكمة الحج ؟ .

لقد قرأت تفاصيل شعائر الحج كما قررها رسول الله ﷺ في حجة الوداع أو حجة التمام في ذي الحجة من العام العاشر للهجرة ، وهي أوضح ما تكون في الصحاح وكتب التاريخ وخاصة مغازي الواقدي ، وتعجبت من حرص رسول الله على التوفيق في كل خطوة منذ الوصول إلى مكة وطواف القدوم إلى العودة إلى مكة وطواف الوداع ، وخرجت بأن الحج عبادة تجمع للناس ، وتنظيم لهم ، فكل الحجاج يتحركون من موضع إلى موضع في نفس الساعة ، وخاصة عند الدفع من عرفات إلى مزدلفة والله سبحانه عندما قال ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٧] و ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٩] ، وعندما نقرأ ذلك نرى أن هذه كلها شعائر دقيقة محسوبة حتى يتعود الناس الدقة والإحكام ، وأي خطأ جسيم في المناسك يفسد الحج . وليس هناك تفسير لهذه الخطوة أو تلك ، ولكن الله سبحانه ورسوله قالوا ذلك حتى يطيع الناس ويتنظموا ويحسوا أنهم أمة الله ورسول الله بعد أن وصل مع الناس إلى منى وأخذوا يرمون الجمرات ، ويترددون بين مكة ومنى . وينحرون البدن ، أباح للناس تقديم بعض الأشياء على بعض لأن أيام التروية أيام طلقة

فيها راحة واستجمام ، وفيها راحة نفس للمؤمن الذي أدى حجه بكل مناسكه ، وحتى السيدة عائشة عندما طلبت إلى رسول الله أن تطوف بالبيت الحرام مرة أخيرة لأنها لم تستطع طواف القدوم عندما وصلت مكة وخاف أن تعطله عن العودة إلى المدينة أمر أخاها أن يطوف بها ثم يلحقه ، وهو خارج من مكة وزحام الحج في أيامنا أضاع الكثير من بهجته ، ولكن الذين حجوا فيها مضى لا يزالون يذكرون طرب النفس أثناء الحج رغم شظفه تلك الأيام ، وأنا حججت أول مرة سنة ١٩٣٨ . ونزلت في بيت مطوف طيب أسكننا في حجرات حول رجة بيته على البلاط . وكان يطعمنا طعاماً متواضعاً جداً ، والأرض كانت متربة غير مبلطة ولكن الحج كان متعة لأننا كنا قليلين ، وكان معظمنا غير ميسور الحال - ولكن القلوب كانت عامرة بالإيمان والنفوس خالية من الهموم .

وعندما قال الله سبحانه ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ كان يخاطب القرشيين الذين أسلموا لأنهم كانوا قبل الإسلام يختصمون أنفسهم بالوقوف عند مزدلفة والدفع منها ، بينما كان بقية الناس يقفون في عرفات ويدفعون منها ، ولكن رسول الله ﷺ كان قبل الإسلام يقف مع الناس في عرفة ويفيض منها معهم ، فهكذا فعل إبراهيم عليه السلام .

وعندما قال الله في سورة البقرة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . [البقرة ٢ / ١٩٠] .

كان يصحح مفاهيم بالغة الخطأ عند المكين قبل الإسلام : فكانوا يتصرفون على هواهم في مواعيد الحج ، لأن الشيء الأساسي عندهم لم يكن الحج بل التجارة ، والبيع أولاً ، ثم العبادة ، فذكر الله الناس جميعاً هنا بضرورة

التزام مواقيت الحج ، لأن الأهلة نفسها كانت مواثيق للناس والحج ، وكان المكيون قد ابتدعوا بدعة سموها الخمس ، واختصوا أنفسهم بها ، وبهذه البدعة فرضوا على الناس ألا يشتروا إلا من مكة ولا يأكلوا إلا من طعام مشترى من المكيين ، ولا يطوفوا بالبيت إلا في ملابس جديدة مشترة من المكيين ، ولهذا كانوا يحرمون على أنفسهم في الموسم أكل السمن ، وما إليه لكي يبيعوها للناس بالثمن الذى يريدونه ، وكانوا لشدة اهتمامهم بالبيع والشراء واستخلاص كل درهم من الحجاج يغلقون أبواب بيوتهم حتى لا يستضيفوا إلا عليه الناس ، وكانوا يدخلون بيوتهم من ظهورها أى من فتحات خلفها ويخزنون الأطعمة والبضائع والأموال ، في البيوت حذراً من الناس .

ومن روائع القرآن وبيانات صدقه دعاء إبراهيم الذى جعلناه محوراً لهذا الكلام الذى يقول الله سبحانه إنه أسكن من ذريته بوادى زرع عند بيته المحرم ليقيموا الصلاة ، وسأل الله سبحانه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأن يرزقهم من الثمرات ، فوادى مكة غير ذى زرع حقاً ، ولكن الله سبحانه بعد أن أقام فيه إبراهيم وإسماعيل بيت الله جعل الله أفئدة الناس تهوى إلى هذا الوادى وأهله ، فكانت جرهم الثانية التى عمرت مكة بعد أيام إبراهيم بزمان قبيلة قوية غنية .

وأبو الوليد الأزرقى فى أخبار مكة يؤكد لنا أن مكة أيام جرهم كانت غنية وافرة بالمياه ، والجرحميون حفروا بعد زمزم نحو عشر آبار ، وهذا الغنى أفسدهم فطغوا فى البلاد ، فذهب الله بهم ، وقبل خروجهم من مكة ألقوا ذخائرهم فى زمزم وطمروها ، وجاء مكانهم بخزاعة ، وخزاعة نصف يمنية ، وكان أهلها أول الأمر على بأس شديد ، وقد عمروا مكة عندما ملكوها ، وقصدها الناس وكثرت فيها الخيرات وهوت إليها قلوب الناس من كل مكان ، ولكن الخزاعيين عندما كثرت أموالهم وعظم رخاؤهم ضيعوا حرمة الحرم ولم يولوه العناية الكافية

فأدال الله منهم بقريش وعلى رأسهم عبقري من عباقرة التاريخ العربي قبل الإسلام وهو قصي بن كلاب ، وكان زعيماً محارباً سياسياً غلب خزاعة ودخل مكة بالقبائل القرشية الكبرى من خط غالب بن لؤى ، وهم عمود النسب النبوي الشريف ، وهؤلاء هم قريش البطاح ثم استدعى بقية القرشيين المتفرقين في الحجاز وحلفائهم من بعض بطون خزاعة ، وجعلهم كلهم قرشيين وأنزلهم حول مكة ، وهؤلاء هم قريش الظواهر من خط عامر بن لؤى ، وهم خارج عمود النسب ، وعمرت مكة على أيامه وأزهرت تجارتها ، وكثرت الآبار فيها ، ثم التفت هذا الرجل الذكي إلى خزاعة وصالحها وأرضاعها ، وقبل أن يموت قصي كانت مكة قد أصبحت من أعظم مدن الجزيرة ، ثم جاء ابنه عبد مناف بن قصي ، وكان رجلاً سياسياً فاستأنف القبائل في الحجاز ، وعقد حلف الأحابيش ، والأحابيش خمس قبائل أساسية : ثلاث من خزاعة واثنان من كنانة ، ثم جاء هاشم وهو الذي نظم التجارة المكية ، وأحيا طريق التجارة من اليمن إلى الشام ماراً بمكة . وعلى بدء انتظمت رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، ونظم طرق التجارة الكبرى إلى الشام والعراق كالجادة والنجدية والتبوكية ، وبفضله أصبحت مكة من أغنى مدن العالم التجارية .

ثم جاء عبد المطلب بن هاشم ، وهو رجل الدين الذي أولى الكعبة وبيت الله أعظم العناية ، ونظم الوثنية العربية ، وجعل مكة مركزها والكعبة مدارها ، وأنشأ تنظيماً عظيماً للوثنية العربية سمى بدين عبد المطلب ، وأعاد حفر زمزم ، وحفر آباراً أخرى ، وفي أيامه بلغت مكة ذروة قوتها في الجاهلية وعبد المطلب هو جد نبينا محمد صلوات الله عليه .

وهو الذي رعاه بعد أن مات أبوه ثم أمه عليها رحمة الله ، واحتضن عبد المطلب حفيده وأحسن رعايته ، ومن عجب أن رسول الله ﷺ عندما نادى بالإسلام وهو دين الله ، وهو بعث للدين القيم وهو ملة إبراهيم عندما نادى

بالإسلام كان عليه أن يهدم دين جده عبد المطلب .

فانظر كيف رعى الله مكة منذ قام فيها بيته ، وجعل أفئدة من الناس تهوى إلى أهلها ورزقهم من الثمرات ، وأقرأ هذه العبارة الجميلة التى قالها ابن بطوطة عن مكة فى وصف رحلته ، وكانت مكة قرة عين هذا الرجل العظيم الذى يعتبر أعظم رحالة فى التاريخ البشرى قبل العصور الحديثة ، كانت مكة مركز رحلاته يطوف ويطوف ثم يعود إليها حتى لقد حج ست مرات . واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى المكى ، قال عن مكة : (ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والمثول بمعاهدها الشريفة . وجعل فيها أنساً وحبا فى القلوب ، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه ، ولا يفارقها إلا آسفاً لفراقها متولها لبعاده عنها ، شديد الحنان إليها ، ناوياً لتكرار الوفاة عليها ، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف فى طريقها ، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مستبشراً مسروراً كأنه لم يذق لها مرارة ، ولا كابد محنة ولا نصباً ، إنه لأمر إلهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة) ، ثم يقول بعد ذلك : (إن الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون مكة بواد غير ذى زرع . ولكنه ساق إليها الخيرات من كل صوب . فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شىء تجبى لها ، وقد أكلت بها من الفواكه : العنب والخوخ والتين الطيب والرطب ما لا نظير له فى الدنيا ، وكذلك البطيخ المجلوب إليها ما لا يمانله سواه طيباً وحلاوة ، واللحوم بها سمان لذیذات الطعوم ، وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه ، وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة وبطن سر لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين مجاورى بيته العتيق) .

وهذا كلام قاله ابن بطوطة عن أول زيارة له لمكة سنة ١٣٢٥ م ، ولم يكن هناك بتروى ولا كانت هذه البركات التى أكرم الله بها بلاد العرب ، ألا نبخيل إليك

أن ابن بطوطة يتحدث بلساننا نحن اليوم عندما نزرر مكة والمدينة ونجد خيرات الله مجموعة فيها ، لقد كانت أزمان ابن بطوطة وأمثاله أزماناً مخوفة ، والرحلات كانت مخاطرات ومغامرات ، وكان اللصوص والبدو والجياح ينقضون أحياناً على القوافل وينهبونها ويقتلون أهلها ، وكانت حكومات مكة والحجاز ضعيفة لا تستطيع حماية الحجاج ، ولكن قوافل الحج لم تتوقف أبداً ، والناس حتى في أوقات الحروب والأخطار لم يتوقفوا عن الحج أبداً ، وظل الناس يقصدونها في الموسم أو خارجه أو للدراسة والحج والعمرة قرناً بعد قرن من أقصى الأندلس وساحل الأطلسي ومن جزر أندونيسيا . وكان الألوف يفرقون في البحر ، ولكن أحداً لم يكن يتردد في الحج ، وكانت رحلة الحج من الأندلس والمغرب وأفريقية المدارية والاستوائية الغربية تستغرق مابين ستين إلى ثلاث ، وبعض الحجاج كانوا يقطعون الطريق على أقدامهم وكانت رحلة البحر من الهند وبلاد الملايو وأندونيسيا تستغرق ستين على الأقل . ولكن قوافل الحج لم تتوقف أبداً وهذه من أعجب الظواهر الدينية الحضارية في التاريخ ، وعندما تقف في الحرم الشريف وتأمل الطائفين يدورون حول الكعبة فاذاً أن هذه الحركة الدائرية لم تتوقف أبداً منذ انفتح باب مكة في العام الثامن للهجرة إلى يومنا هذا ، وهي مستمرة ليلاً ونهاراً كأنها حركة أجرام سماوية .

وأنا زرت الحرم في كل ساعة من ساعات النهار والليل لأتأمل هذا المشهد الفريد وأنعجب من تحقيق رجاء إبراهيم ربه ، وفي ذات مرة وأنا جالس على الدرج الرخامي أتأمل الكعبة والطائفين حولها وجدت نفسي أقول سبحانك ربي لقد جاء في التاريخ يوم لم يكن فيه من المسلمين إلا اثنان : محمد صلوات الله عليه والسيدة خديجة رضوان الله عليها ! .

ولم يجعل الله تعالى عبادة كانت أوسع بركة على الحضارة الإسلامية وجماعة المسلمين مثل الحج . ولولا الحج لما كانت هناك أمة إسلامية واحدة تنتشر في

بقاع الأرض ، بل لما علم مسلم عن مسلم في بلد آخر شيئاً ، فإن رجال السياسة لم يفعلوا في سبيل توحيد المسلمين وجمع الصفوف إلا القليل في الماضي ، ولكن الحج حقق المعجزات ، والدول الإسلامية استثنينا السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي عمرت درب زبيدة من العراق إلى الحجاز وأنفقت الألوف في حفر الآبار وتعبيد الطرق إذا استثنيناها فلا أذكر أن واحداً من حكام المسلمين في الماضي عنى عناية تذكر بشيء يسمى المرافق وأولها الطرق ، ولكن الحج عمر الطرق وجمع المسلمين بعضهم إلى بعض ونقل أخبار بعضهم إلى بعض ، وإذا كان هناك اليوم شيء يسمى عالم الإسلام فإن الفضل فيه يرجع إلى الحج إلى مكة ثم جهود علماء المسلمين ، فالحج هو الذي نظم الطرق بل هو الذي شققها من أقصى عالم المسلمين إلى أقصاه وجاء ببعضهم إلى بعض ، وهو الذي وحد القلوب والألسنة على لغة الإيمان .

وفي أطلس الإسلام وضعت خرائط طرق الحج ، وأنا أتعجب ، فهذه الطرق كلها طرق بشر لا طرق منشآت ، فإن الرومان كانوا يبنون الطرق بناء بالحجارة على عمق مترين وثلاثة ، أما نحن فإن تمهيدنا للطرق كان قليلاً ودليل ذلك أنهم يقولون في الغرب : بناء الطرق ونحن نقول شققها ، والفرق بين الاثنين عظيم ، ولكن أقدام المسلمين ودوابهم هي التي مهدت الطرق ، وأهل الخير على كل مرحلة من مراحل الطريق هم الذين حفروا الآبار ورعوها حسبة لله تعالى ، والتجار والحجاج وأهل العلم ساروا في هذه الطرق وعمروها وربطوا عالم الإسلام بعضه ببعض ، وكل هذه من فضائل الحج الدينية والحضارية ، وصدق رب العزة عندما قال ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَآرِزِهِمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتَوْفُوا نَدْوَاهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴿٣٠﴾ . [الحج ٢٢ / ٢٧ - ٣٠] . والتفت ما يصيب المحرم بالحج من ترك الأدهان والغسل والحلق وإزالة مناسك الحج بعد الإحلال .

وكانت بركات الحج على التجارة والحضارة الإسلامية ذات آثار أبعد مما ذكرنا ، فقد كانت طرق الحج طرق قوافل وتجارة أيضاً ، وهذا معروف ، ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون هو أن قوافل الحج نفسها كانت عظيمة الأثر على التجارة ، لأن معظم الحجاج كانوا فقراء ، وحتى الموسرين منهم لم يكونوا يستحبون حمل المال الكثير معهم لكثرة الأخطار ، وكان الفقراء وضعاف الحال يأخذ الواحد منهم مع المال القليل بعض منتجات بلده الصناعية والزراعية ، فإذا حطت القافلة فى بلد باع الناس ما أرادوا مما معهم من البضائع التى يحتاج الناس إليها فى البلد الجديد ، وأنفق بعضها فى حاجاته واشترى بضائع من منتجات ذلك البلد ، فإذا بلغ بلداً آخر عمل نفس العمل ، ولا يزال يبيع ويشترى وينفق من فروق الأسعار حتى يتم رحلته ويحج ، ويفعل نفس الشيء على طريق العودة : وكان تعداد القافلة لا يقل عن ألفين ليأمنوا على الطريق ، فإذا فرضنا أن كل حاج خرج من بلده بما قيمته خمسون ديناراً فحسب من الأموال والبضائع ، وكانت القافلة من ثلاثة آلاف ، فهذه مائة وخمسون ألف دينار من البضائع والأموال تتحرك على طول الطريق ، وهذه القوافل كانت تحمل كل شىء ، والكميات الصغيرة تصبح كبيرة مع كثرة العدد . فكانت نتيجة هذا أن منتجات العالم الإسلامى كله كانت موجودة فى كل البلاد ، ومكة هى سوق التجارة الأكبر . هنا كان كبار التجار يتلاقون فى الموسم ليسوى كل منهم حسابه مع أمثاله . وبعض تجار العالم الإسلامى كانوا يصدرون صكوكاً أو مانسميه اليوم خطابات ضمان بمبالغ كبيرة أو صغيرة . والمسافر ينفق على حساب خطاب الضمان هذا ويسجل فيه ، حتى إذا وصل مكة عمل حسابه مع

مراسل تاجر بلده في مكة . وكان هذا نظاماً عجيباً وناجحاً جداً .

وكانت قوافل الصحارى أكثر أمناً على أنفسها وأموالها من الطرق المارة بالمدن والحضر ، لأن رجال الدول كانوا يعتدون على أموال الناس في تلك الطرق أما القبائل البادية فكانت دائماً حريصة على أن تمر القوافل بأراضيها لأنها تأتيها بها تحتاج إليه من الآنية المعدنية والصناعات التي لا تحسنها القبيلة في الصحراء ، والقافلة كانت تحمل منها ما تريد بيعه من منتجاتها كالجلود والصوف والجن والنباتات الطبية والماشية وما إلى ذلك ، فكانت القبائل تحرس القبائل دون خفارة تذكر ، ولهذا فقد كانت طرق الصحارى القاحلة التي تنتقل من أرض قبيلة إلى أرض قبيلة أخرى أعمر من طرق الحضر وأكثر أمناً .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ
تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ
وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِر لَّكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ
قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

« صدق الله العظيم »

[الصَّف : الآيات ١٠ - ١٣]

حديثنا هذه المرة عن الجهاد والقتال في سبيل الله أو دفاعاً عن دار الإسلام
وآيات الجهاد في القرآن الكريم كثيرة ، لأن الجهاد ركن من أركان هذا الدين ،
وقد جئت بالحديث عن الجهاد بعد أن تحدثنا عن العبادات الإسلامية الأربع :

الصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام ، لأننا سنرى أن الجهاد فرض مكتوب على كل مسلم ، وأنه فرض عين لا فرض كفاية ، والأمر هنا لا يقتصر على الجهاد لنشر الدين أو القتال ذوداً عن حوض الملة ، ولأن القتال للدين والوطن والكرامة فيه عزة وسمو بنفس المؤمن لا يتيسر إن بدونه . فإن من أكبر ماضر أمة الإسلام مذهب بعض الفقهاء في أن الجهاد فرض كفاية تنوب فيه القلة عن الغالبية ، لأن هذا المذهب حرم المسلمين من شرف الدفاع عن دار الإسلام وديارهم ، وجعلهم رعية مستذلة لحكام أراذل يعتمدون على جند مرتزقة ملاعين وسننصل الأمر في ذلك تفصيلاً .

وقد اخترت الآية التي تراها في رأس هذا الفصل ، لأنك ترى أن الله سبحانه قرن بين الإيمان بالله ورسوله والقتال في سبيل الله دون ذكر لصلاة أو صيام أو أى فرض آخر ، لأنه سبحانه أراد هنا أن يبين أن الجهاد فرض واجب يلزم كل مسلم ، مثله في ذلك مثل أى عبادة أخرى من المفروضات ، فكما أن على المسلم أن يصلى ويصوم ويحج فإن عليه أن يجاهد في سبيل دينه ، وإن يكون دائماً على الأهلية للقيام بهذا الفرض العظيم الذى تتوقف على القيام به حياة الأمة عزيزة قوية ، والأمة القوية العزيزة أمة شريفة نشيطة عاملة محسنة عالمة تسير مع أمم الطليعة على هذا الكوكب .

وقبل أن أسترسل مع هذا الحديث أحب أن أنبه إلى ما تتضمنه هذه الآيات من بلاغة قرآنية معجزة ، فأنت ترى هنا أن الله سبحانه يعبر عن دخول الدين بلفظ تجارة ، وهو سبحانه يأخذ هنا اللفظ العادى ويرتفع به فيعطيه معنى شريفاً ، فالإسلام هنا صفقة عدل ، أو هو موثق بين الله وعبده ، فهو يدخل الدين عن إيمان صادق ويجاهد في سبيل الله بآله ونفسه ، وهو يفعل لنفسه بذلك خيراً عظيماً ، ولكن الله يزيده على ذلك نعمة كبرى ، فهو يغفر له ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ويهبه مساكن طيبة في جنات عدن ،

وذلك في ذاته هو الفوز العظيم . . لا يقف هنا كرم الله بل إنه يعد المؤمن بالنصر من الله والفتح القريب .

والجهاد في كل آيات القرآن فرض على المسلم ، واقرأ الآيات التالية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ٩ / ١١١] .

فهنا ترى بكل وضوح أن الجهاد في سبيل الله فرض لازب ، وأنه جزء من موثق المؤمن مع الله ، وهذا الموثق الذي يبيع الإنسان فيه نفسه في سبيل الله ويقا تل فيقتل أو يقتل ، فيفوز في مقابل ذلك بالجنة ، وهى فوز له عظيم . فليستبشر المؤمنون هذ الميثاق الجليل مع خالق الكون سبحانه .

ولكى ترى أن الجهاد فرض عين يلزم المؤمنين جميعاً اقرأ هذه الآيات :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

[التوبة ٩ / ٣٦] .

فهنا ترى أن علينا كافة أن نقاتل المشركين كما يقاتلوننا كافة .

وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ يفسره ابن كثير ومحمد فريد وجدى بأن تحريم القتال في الأشهر الحرم هو الدين العظيم ، وقد يكون هذا هو المراد ولكنه في رأى ليس كل المراد ، فإن السياق يدل على أن المراد بالدين القيم هنا الدين

الفائم أبد الدهر الذى يعزه الله بأهله وبالجهد الدائم فى سبيله ، وبمراعاة قانون الجهاد فيه ، ومن هذه القواعد مراعاة الأشهر الحرم ، وإيقاف القتال فيها إذا سمحت ظروف الحرب بذلك ، لأن السنة كلها لا يمكن أن تكون جهاداً للمسلمين فلا بد لهم من فترة راحة واستعداد وتدبير ورسم خطط .

واقراً هذه الآيات من سورة آل عمران وهى تدور حول موقعة أحد :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النُّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاتَّهَ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

[آل عمران ٣ / ١٦٦ - ١٧٠] .

وهاهنا معان عظيمة تكشف عن مرادات الله سبحانه من أمته . فالجهاد فرض على المسلم . والنكوص عنه كذب وضعف ونفاق ، بل إن الناكص عن الجهاد أقرب إلى الكفر منه إلى الإيثار ، وعود الإنسان عن الجهاد لا يدركه الموت ، وعود الإنسان عن القتال فى سبيل الله مصادرة لقدرة الله فى الآجال . ثم تجيء بعد ذلك الآية التى تقول إن الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وهذا كلام صدق يفسره الله فى الآيات التى تلى هذه الآيات ، فإن الذين يستشهدون فى سبيل الله يذهبون إلى جنات عرضها السموات والأرض وهم فى نفس الوقت يؤمنون سلامة الأمة ، ولذلك فهم يستبشرون بالذين لم

يلحقوا بهم في الشهادة وبقوا خلفهم ، فهؤلاء مستمر عن طريقهم حياة الأمة ، وهم بشهادة من سبقوهم آمنون لا خوف عليهم ولا يحزنون ، وهم يقولون مستعدين للقتال والجهاد إذا دعا الداعي ، فامة الإسلام لابد لها أن تكون على أهبة القتال ماعاشت ومابقى زمان .

وإذا كنا نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا ونعتبر تصرفه سنة نتبعها ، فلننظر في حياته الشريفة ، ونرى موقفه من الجهاد ، فنرى أنه منذ استقر به المقام في المدينة وقامت أمة الإسلام من حوله بدأ بعملية طويلة ، أول غاياتها توسيع وطن الأمة بإدخال الناس وأوطانهم فيها ، لأننا عندما نقول إن رسول الله بمجرد استقراره في المدينة وعقد الميثاق بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهد معهم من اليهود ، أرسل عبد الله بن جحش في سرية كبيرة إلى بلد قبيلة جهينة ، وكانت من أكبر وأقوى القبائل القضاعية النازلة في الحجاز من ينبع جنوباً إلى ذى خُشب قرب تيماء شمالاً ، فمضى عبد الله في قوة كبيرة ونزل بأرض جهينة وسارع للاتصال به مجدى بن عمرو رئيس جهينة ، فطلب مجدى إلى عبد الله بن جحش أن يعطى رسول الله الجهنين موثقاً « نأمنك به وتأمنا » فأوثق لهم رسول الله الموثق الذى طلبوه ، وعاد عبد الله إلى المدينة ولم يسلم الجهنيون هذه المرة ، ثم وفد مجدى على رسول الله في المدينة فحياه وأكرمه ، ويظهر أن مجدى ومن معه أسلموا حينذاك لأننا سنجد بنى جهينة بعد ذلك مسلمين ، وبعد إسلام جهينة أصبحت أراضيها جزءاً من وطن أمة الإسلام ، وليس معنى ذلك أن المسلمين امتلكوها ، بل المعنى أن منازل الجهنين ظلت لهم ولكن المسلمين أصبحوا مسئولين عن سلامتها ، وأصبح مجدى بن عمرو وبقية الجهنين مواطنين في أمة الإسلام ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال لمجدى : هل أقطعك ينبع ! ورسول الله لا يستطيع أن يقول هذا إلا إذا كانت أرض جهينة أرضاً إسلامية ، ورسول الله أراد أن يختصه ينبع . فقال مجدى ، إني رجل قد كبرت سننى فأقطعها لابن أخى

وكان معنى ذلك أيضاً أن أرض بنى جهينة أصبحت أرضاً محرمة على قريش وقوافلها ، بدليل أن رسول الله عندما خرج في غزوة بواط لمح اعوجاجا في سلوك مجدى وأحس فيه ميلاً إلى مواصلة العلاقات الطيبة مع قريش ، فقال له : أتريد أن ننبد إليك ! أى أحب أن نقطع العهد الذى بينك وبيننا ؟ فقال مجدى : لا حاجة بنا إلى قتالك . وكل ذلك حدث في العام الأول للهجرة .

ومن ذلك الحين بدأ رسول الله يخرج في غزواته ويرسل سراياه بمعدل اثنين تقريباً في الشهر ، لأن أكبر غاياته كان تحويل أمة المسلمين كلها إلى جيش مجاهد فلم يدع مسلماً قادراً على القتال إلا خرج في سرية أو غزاة .

ومن سرية سيف البحر التى قادها عمه حمزة بن عبد المطلب في رمضان سنة ١ هـ / مارس ٦٢٣ م . إلى سرية نخلة التى قادها عبد الله بن جحش في رجب سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م . وهى الثامنة من مغازيه ﷺ وهى السابقة على بدر والمهدة لها ، كانت أمة المدينة قد دخلت فعلاً في التحول إلى أمة جيش أى أمة مجاهدة ، ثم كانت بدر الفاصلة في ١٩ رمضان ٢ هـ / ١٥ مارس سنة ٦٢٤ م . وهى التى اشترك فيها المهاجرون والأنصار وبعض القضاة في القتال لأول مرة ، وبها بدأ السير الحثيث في طريق الجهاد ، ولم يترك رسول الله عضواً من أعضاء الأمة إلا أعطاه فرصة القتال والتدرب عليه ، وأصبح الجهاد في سبيل الله والإسلام جزءاً أساسياً من واجبات كل مسلم قادر على القتال ، فلما كانت غزوة تبوك (رجب - رمضان سنة ٩ هـ / أكتوبر - ديسمبر سنة ٦٣٠ م) ونزلت بعدها سورة براءة وهى سورة التوبة أيضاً ، تقرر فيها أن القتال أصبح فرضاً واجباً على كل مسلم ، ويعاقب من يتخلف عنه أو يتهاون في أمره أو ينافق فيه . ولا مجال للقول بعد أن نزلت سورة التوبة بأن فرض القتال قد نسخ ، لأن سورة التوبة بإجماع معظم علماء القرآن كانت آخر ما أنزل على رسول الله من سور القرآن الكريم .

فلتقف لحظات عند سورة التوبة .

ولكى نفهم سورة التوبة حق الفهم . ونضع أيدينا على ماتضمنه من الحكم والمواظب والمعاني الجليلة ، نقول كلمتين عن غزوة تبوك التى سبقتها ، وقد بدأت آيات سورة التوبة تنزل على رسول الله وهو عائد من تبوك ، وسورة التوبة على أغلب الأحوال هى آخر ما نزل على رسول الله من سور القرآن ، فأحكامها قائمة سارية إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، إذ لا يمكن القول بأن الله أنزل بعدها ما ينسخ بعض أحكامها .

تبوك هى الرابعة والثمانون من مغازى رسول الله ﷺ وقد خرج بها رسول الله فى رجب وعاد فى رمضان سنة ٩ للهجرة / أكتوبر - ديسمبر ٦٣٠ م ، وهى تسمى ضمن عدد من المغازى قام بها رسول الله أو أرسلها إكمالاً لتوحيد الجزيرة تحت راية الإسلام وقضاء على ما بقى ناشزاً من القبائل ، مع الاهتمام الخاص بشمال الجزيرة وحدودها مع الروم ، وكانت تسكن هذه الحدود وفى دواخل الشام قبائل تنصر معظمها ودخل فى جملة ما يسمى بعرب الروم أو نصارى العرب أو عرب الضاحية ، ضاحية قضاة ، وهى قبائل عربية كانت تسكن على وجه التقريب ما يعرف الآن بأراضى المملكة العربية الهاشمية .

ويبدو أن رسول الله ﷺ كان يمهّد فى ذلك الحين للخروج بالإسلام إلى خارج الجزيرة ، فنحن الآن فى العام التاسع للهجرة وهو عام الجماعة ، والوفود تقبل على المدينة وتعلن انضمام قبائلها إلى أمة الجزيرة ، ثم إن رسول الله ﷺ لم ينس ما وقع للمسلمين فى مؤتة بأرض البلقاء جنوبى البحر الميت قبل ذلك بعام فاستقر رأيه على أن يسير بالمسلمين إلى تبوك .

وكان رسول الله قد قرر القيام بهذه الغزوة البعيدة ليختبر أمة الإسلام ويعجم عودها ويدربها على القيام بالأعمال العسكرية الكبيرة العسيرة ، وفى

تقدير الحق سبحانه أن تكون هذه الغزاة تمهيداً لتشريعات وتوجيهات أساسية بالنسبة لحياة الأمة ومستقبلها ، وإذا كانت غزوة تبوك هي المحنة أو الامتحان ، فإن سورة التوبة وهي براءة هي نتيجة الامتحان ، وهي نتيجة حافلة بالتشريعات والتنظيمات والتوجيهات للمسلمين عليهم طاعتها والعمل بها حتى يطوى الله الأرض وما عليها ، وقد أوحى الله إلى رسوله بأن يحتفل بهذه الغزاة أعظم الاحتفال ويعد لها ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ليرهب عدو الله وعدو الإسلام ، فأعلن الرسول عن وجهته ودعا أهل المدينة جميعاً ومن حولها من الأعراب للاشتراك في الغزاة ، وتطوع القادرون بالمال والسلاح ، وجاءت النساء بالمصوغ وبسطة ملاء خارج حجرة السيدة عائشة ليضع فيها القادرون ما يريدون التبرع به .

واجتمع لرسول الله ﷺ ثلاثون ألف مقاتل فيهم عشرة آلاف فارس ، وتحلف عن رسول الله ناس وقعد عن الخروج ناس دون عذر ، وكانت قد بلغت رسول الله أنباء عن استعداد الروم وجمعهم قوة عظيمة للمسير لحرب المسلمين ، ولكن رسول الله عندما وصل إلى تبوك تبين له أن هذه الأخبار غير صحيحة ، فتلبث عند تبوك حتى أتاه عدد من قبائل عرب الروم مسلمين وانحاز بعضهم إلى الروم ، وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في قوة أدخلت اكيدر صاحب دومة الجندل في طاعة الإسلام ، وعاد الجيش الجرار إلى المدينة ، وقد عانى الناس أهوالاً في الذهاب والعودة ، فقد كان الوقت نهاية الخريف وبداية الشتاء والأراضي لا لزروع فيها ، وكانت الحرارة إلى جانب ذلك شديدة في بعض الأيام ، وقلت الأقوات والمياه في مناسبات كثيرة ، ولهذا وصفت غزاة تبوك بأنها غزوة العسرة . وقد كانت نتيجة استسلام دومة الجندل أن استسلمت بعد ذلك أبله على طرف خليج العقبة ، واستسلمت تيماء وجربا واذدرج ثم مقفا على البحر الأحمر .

ولكن عبرة تبوك كلها في سورة براءة أو سورة التوبة التي قلنا إنها بدأت تَنْزَلُ على رسول الله وهو في طريق عودته إلى المدينة ، واستمرت تنزل بعد وصوله كاشفة للناس أسرار ما فعلوا ومنبهه إلى الأخطاء ومنذرة بالعقاب للمخالفين ومبشرة بالثواب للمحسين ، ولهذا سميت بالكاشفة والفاضحة والمنذرة والمبشرة والجانب الكبير من آياتها يتضمن تشريعات خاصة بالجهاد وفرض وجوبه على المسلمين ، فلننتقل إليها الآن . فهذا هو بيت القصيد من فصلنا هذا عن الجهاد .

سورة التوبة جليلة حافلة حاسمة في تاريخ الأمة وسنخترى منها هنا بما يخص الجهاد وتشريعه وتنظيمه مع الإشارة إلى مواقف المنافقين وما أعد الله لهم من سوء العذاب ، وسندع من آيات الجهاد ما سبق أن أتيناه فيما سلف . قال الحق سبحانه في سورة التوبة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۚ إِنَّا تَنَفِّرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ إِنَّا تَنَصَّرُوهُ فَقَدْ تَصَرَّه اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۚ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِآلِهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّه لَكَاذِبُونَ ۚ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَا لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ ۚ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن

يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿

[التوبة ٩ / ٣٨ - ٤٧] .

هذه آيات بينات تبين دون أدنى شبهة أن الجهاد فرض عين ، وأن كل مؤمن قادر على القتال مكلف بالخروج والاستعداد للجهاد في سبيل الله ، وهذا الاستعداد ينبغى أن يكون صادراً من داخل النفس ، فلا يتوقف لزومه على أمر أمر أو رغبة رئيس يدعو للخروج عندما يريد ويأمره بالعود عندما يريد . لأن هذا داعى الجهاد في سبيل الله لا في سبيل إنسان أو وجه غير وجه الله ، والجهاد المفروض هنا ينبغى أن يكون بالنفس والمال ، فيجود الإنسان بنفسه وماله في سبيل الله عن نفس راضية ، أما إذا خرج الإنسان للجهاد عن غير إيمان أو رغبة صادقة فلا خير في جهاده ، لأنه في الحقيقة غير مؤمن إيماناً صحيحاً ، لأن الجهاد والجود بالنفس والمال في سبيل الله هو الدليل البين على الإيمان ، وهل هناك أعز على الإنسان من نفسه وماله ؟ فإذا هو كان على استعداد للجود بهما عن رغبة صادقة فهنا يكون الإيمان الصحيح ، وهنا يكون الجهاد عظيم القيمة . هنا تغلب الفئة القليلة الفئة الكبيرة بإذن الله .

ومن غريب الأمر أن المقاتل الصادق المقبل على الجود بنفسه نادراً ما يقتل ، إنما الذى يقتل ويصاب هو الجبان المتردد الذى يخرج للجهاد مكرهاً ، ومن أكبر الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخسروا في معركة حنين - وكان عددهم فيها فوق العشرة آلاف - إلا أربعة شهداء ذكرهم المؤرخون بالاسم . وحين كانت من المعارك العسيرة التى خاضها المسلمون تحت راية رسول الله ﷺ فقد طالت

ساعات أو بدأت في وادى حنين ثم استمرت في سهل أوطاس وانتهت قرب المغيب .

ونحن مأمورون أن نفر خفافاً وثقالاً . أى سواء أكان علينا سلاح خفيف أم ثقيل ، لأن الأسلحة لا تنتصر بنفسها ولكنها تنتصر بالناس ، وفى أيامنا هذه التى نتصور فيها أن المسألة مسألة سلاح تنتصر جماعات صغيرة مجاهدة فى سبيل قضايها عن إيمان ، على أمم ضخمة السلاح والعتاد . وإذكروا كيف انتصر الجزائريون بالسلاح الخفيف على الفرنسيين ومعهم سلاح الدنيا ، وانتصر الملك عبد العزيز آل سعود على قوى تفوق قواته بكثير بقوات قليلة وسلاح أقل ، وانتصر أهل فيتنام على الفرنسيين فى ديان بيان فو ثم على الأمريكيين ، وانتصر المصريون والسوريون على إسرائيل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولدى إسرائيل ترسانة رهية من الأسلحة وراءها ترسانة أضخم هى ترسانة الولايات المتحدة .

والله سبحانه يعتب على رسوله أن أذن فى التخلف عن الخروج إلى تبوك لنفر سألوه الإغفاء . وتعللوا بتعللات واهية ، وكان لابد أن يتركوا لأنفسهم حتى يتبين له البذين صدقوا والكاذبين ، ومجرد استئذانهم دليل على ضعف إيمانهم وشاهد على أن فى نفوسهم ريياً فهم فى ريبهم يترددون . وعدم خروج هؤلاء أفضل لأنهم يضعفون قلوب المجاهدين .

فهل يبقى بعد ذلك شك فى أن الجهاد فرض عين ؟

إن الإنسان ليتعجب كيف لم يجمع الفقهاء على فرضية الجهاد .

حقاً إن هناك آية تقول ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة ٩ / ١٣٢] . وهذه الآية لا تبيح لأى من المؤمنين أن يقعد عن الجهاد لأن القتال فرض ، ولكن تنفيذه لابد أن يتم على نظام ، فليس

من الممكن أن ينفر كل المؤمنين في كل حين ، لأنه لا بد أن يبقى في الوطن من يسير أموره ويمد المقاتلين بالزاد والعتاد ، وإنا المطلوب أن نخف للقتال من عليه الدور حسب نظام يضعه المشرفون على مسائل الدفاع في الأمة ، وها نحن أولاء اليوم جعلنا الخدمة العسكرية إجبارية على جميع المواطنين وكل منا يقوم بالخدمة العسكرية لفترة معينة ثم يعود إلى حياته العادية ، وفي معظم بلاد الدنيا يعود المواطن إلى الخدمة العسكرية فترة قصيرة كل عام لكي يتدرب على الآلات المستخدمة ثم لكي لا تموت في قلبه حماسة القتال والرغبة في المشاركة في شرف الدفاع عن الوطن .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٠ - ١٢١] .

ومن أغرب ما قرأت عند بعض المفسرين أن يقولوا إن هذه الآيات خاصة برسول الله وعصره والأعراب الذين كانوا ضاربين حول المدينة . وهؤلاء يغيب عنهم أن رسول الله هنا هو رمز الإسلام ، فالمجاهدون في الحقيقة لا يجاهدون في سبيل رسول الله بل في سبيل الإسلام ، أما الأعراب حول المدينة فكل أمة الإسلام في منزلة الأعراب حول المدينة ، فالحكم هنا قائم أبد الدهر .

أنتدري أن عدم إصرار أهل الفقه جميعاً على فرضية الجهاد كان من أكبر أسباب تدهور الدول الإسلامية وتأثيرها ؟ .

فإن ذلك فتح أمام الحكام باب استخدام الجند المرتزق ، فدرجوا عليه من بداية الدولة الأموية ، ومعاوية بن أبي سفيان جعل الأعراب المجاهدين جنداً مرتزقاً يحاربون في سبيله وسبيل دولته ، فقتل في نفوسهم عرق شرف الجهاد ، وجعل يضع في يد الأعرابي المرتزق مائة دينار ويسلطه على المسلمين من أعدائه فيضع فيهم السيف ، وجاء ابنه يزيد فوضع في يد الأعراب نفس المال وأمرهم بقتل الحسين وآله فساروا وقتلوا الحسين ومن معه من آل البيت ، وجاء مروان بن الحكم فسلط مسلم بن عقبة المرى على الحرم الشريف ومدينة الرسول ﷺ فسار إليهما وفعل بهما ما لم يفعله كافر قط .

ونتيجة لذلك أخرجت أمة الإسلام من ميدان الشرف ، وتسلمت عليها الجبابرة بالجند المرتزق ، وقد وفق الله سبحانه رسوله في تحويل أمة الإسلام إلى جيش مجاهد في سبيل الله وبعث فيهم بذلك عزة ونخوة وقوة ، فجاء هؤلاء المفسدون فأخرجوا الأمة من ميدان الجهاد بل استخدموا الجند المرتزق في إذلال الأمة ، وعلى هذا درجت كل دول الإسلام ، فكانت كلها دول ظلم وإذلال وخروج عن شرع الله ، والعباسيون الذين أخرجوا العرب من ميدان الشرف واعتمدوا على الجند الإيراني ثم التركي المرتزق ، جاء عليهم يوم أصبحوا فيه أذل من الكلاب بين أيدي الجند المرتزق .

إن الجهاد في سبيل الله والوطن يبعث في النفس العزة والشهامة والشعور بالكرامة ، والأُمم التي تراها اليوم فائدة وسيدة وصلت إلى ذلك عن سبيل القتال في سبيل أديانها وأوطانها ، ومن العزة والشهامة والكرامة تنبع كل فضيلة وكل ميزة عقلية أو نفسية ، فهذه الأمم نفسها هي التي تقود في ميدان العلم والفكر والاختراع والمال .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[آل عمران : الآيتان : ١٠٢ و ١٠٣]

نتكلم هنا عن وحدة المسلمين على اعتبار أنها فرض على كل مسلم على حدة وعلى المسلمين جماعة ، والخلاف بين المسلمين مخالفة لواحدة من أساسيات الإسلام ، وهي وحدة الأمة ، والأمة الإسلامية المتنازعة المتدابرة المتحاربة ليست أمة إسلامية أو يصعب أن تكون أمة إسلامية حقاً ، لأن الإسلام دين وحدة واتحاد .

والحبل في الآيات البيئات التي جعلناها مداراً لهذا الحديث هو العهد أو

الموثق أو الميثاق ، وأنت في الإسلام على موثق مع الله وعهد ، ولابد أن تتمسك بهذا الميثاق لأنه عاصمك من الزلل ومن الضياع ، وفي سورة المائدة آيات محكمات تؤكد لنا هذا الميثاق بيننا وبين الله ، وما ينطوى عليه من معان وفضائل أحب أن آتيك بها هنا على نسق لتستقر معانيها في نفسك إن شاء الله :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور . يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَكُمْ شَنْتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون ﴾ .

[المائدة / ٥ - ٧ - ٨] .

فهنا نرى أن الإسلام يرفع قدرتك ، ويجعلك على موثق شريف مع بازيء الكون سبحانه ، وأنت إذ خرجت على وحدة المسلمين ، فأنت تكسر ميثاقك معه . وتتخلى عن حبل الله جلا جلاله ، فتعرض لأشد الأخطار ، وأنت ترى أن المسلمين لم يؤتوا على طول تاريخهم إلا من ناحية التفرق والاختلاف والخصام فالمسلمون المتحدون المتمسكون بحبل الله مسلمون أفاضل أقوى لا يناههم أحد بشر ، لأن التمسك بميثاق الله أساس الفضائل كلها ، وقاعدة القوة كلها ، وأنت إذ ظللت على العهد والميثاق ، وقلبك مع الله سبحانه ويدك في يد أخيك المسلم لن يصيبك شرقت ، ولا دخل على إيمانك ريب أو وهن تخشي مغبته ، وأنت بهذا الميثاق تجدد نفسك قواماً لله شاهداً بالقسط ، وأحسست في نفسك من القوة ما يجعلك تتمسك بالحق والعدل دون أن تخشى أحداً ، لأنك مادمت معتصماً بالله فهو عاصمك من الزلل ، وهنا تجد نفسك عادلاً منصفاً قوياً .

وأنا أعرف أن ائتلاف كل المسلمين بعضهم مع بعض عسير ، فالقلوب تتجذب وتتنافر ، وتدافع الحياة وصراعها يوقع بيننا العداوة والبغضاء بين الحين

والحين ، وهذه سنة الحياة ، ولكن المصيبة الكبرى هى وقوع الخلاف والانقسام - فضلاً عن الحرب - داخل الأمة ، لأن الإيذان بالإسلام لا يصح إلا مع الاتحاد .

وأريد أن أوضح هذه النقطة لأن كثيرين من المسلمين فى الماضى والحاضر قد حسبوا أن المسلمين جميعاً ينبغي أن يكونوا دولة واحدة تخضع لرئيس واحد ونظام واحد ، وهذا وهم أتاننا من نجاح الخلافة الراشدة الأولى أيام أبى بكر وعمر ، فقد كنا فعلاً أمة واحدة قوية ذات نظام واحد ورياسة واحدة فى عهد هذين الصحابييين الجليلين ، وعندما وقع الخلاف وقامت الفتنة أيام عثمان ، ووقع فى ظننا أننا لابد أن نعود دولة واحدة لنستعيد قوتنا أيام الرسول الأكرم وخليفته الأولين ، وعندما عادت الجماعة ونادى معاوية بن أبى سفيان بنفسه خليفة عام الجماعة سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م . ظن معاوية أن واجبه توحيد أمة الإسلام كلها تحت لوائه ، فإذا رفضت ناحية أو جماعة الطاعة له أرسل عليها الجيوش وعاقبها وأذلها ، ومازال بها حتى يرغمها على الطاعة ، وقد فتح معاوية بذلك على نفسه وعلى خلفاء الإسلام من بعده باب بلاء بلا حدود ، وفى محاولة إخضاع المسلمين جميعاً لطاعته وقع معاوية - والسفانيون من بعد - فى أخطاء شنيعة ، وقارفوا جرائم بشعة قضت عليهم ، وكذلك وقع للمروانيين من بعدهم ، فقد ارتكبوا من الفظائع فى سبيل إخضاع الناس جميعاً لطاعتهم ما لم يكن أحد يتصور وقوعه بين المسلمين ، وليتهم مع ذلك وصلوا إلى توحيد المسلمين ، بل العكس هو الذى حدث ، فإن أمة الإسلام زادت تفرقاً وخلافاً وعمتها الشرور ، وبنو أمية أنفسهم احترقوا بنفس النار ، والعباسيون أقاموا هم المذابح ، ثم ساروا فى نفس طريق الخلاف والدماء .

والحقيقة هى أن الإسلام لا يتطلب الوحدة السياسية الكاملة لكل شعوبه بل الوحدة الإيمانية والقلبية ، ورسول الله فى كتبه التى أعطاها لبعض الرؤساء لم يطلب إليهم شيئاً بعد الدخول فى أمة الإسلام ، وترك الكثير من الرؤساء على

حالمهم ورياستهم ماداموا قد دخلوا الإسلام وأصبحوا جزءاً من أمته ، يلبنون داعى الجهاد إذا دعاهم ، ويؤتون الزكوات ويظنون إخوة لكل المسلمين ، وأذكر لك هنا مثال جيفر وعبد ابنى الجلندى ، وكان جيفر منها ملك عُمان (بضم العين) وأخوه عبد يساعده ، فكتب إليهما رسول الله ﷺ يدعوهما لدخول الإسلام ، قال عمرو بن العاص رسول رسول الله إليهما : « فدخلت عليه - أى على جيفر - فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدقاً بالنبي ﷺ وخلياً بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانالى عوناً على من خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها فى فقرائهم ، فلم أزل مقيماً فيهم حتى بلغتنا وفاة رسول الله ﷺ » (طبقات ابن سعد ١ / ١٨) .

فها هنا نرى أن رسول الله قد ترك المَلِكَ على مُلْكِهِ مادام قد دخل هو وقومه فى الإسلام ، وأطاعا وسمحاً لمندوب الرسول ﷺ بأن يشرف على إخراج الصدقات ويحكم بينهم بشريعة الإسلام ، وهما إنما سمحا لعمرو بالحكم بين الناس فى عُمان لأنهما لم يكونا يعرفان شريعة الإسلام بعد وعمرو هنا لم يكن حاكماً ولا والياً ، وإنما هو مجرد عامل على الصَّدقات ومُعَرِّفٍ للناس بأحكام الشريعة .

أما الحكم فظل فى يد جيفر وأخيه ، لأن الأزد - أهل عُمان كانوا راضين عنهما - ولم يفكر رسول الله فى نزح الرجل عن ملكه ، لأن الإسلام لا دخل له فى شكل الحكم ونظامه مادام قائماً على العدل والتراضى محافظاً على شريعة الإسلام .

أقول ذلك لأطرد وهم السياسة من عقول المسلمين ، لأن إدخال السياسة فى الفكر الإسلامى انتهى بغلبة السياسة على الإسلام نفسه فى تاريخنا ، فتجد تاريخنا كله أصبح نزاعاً بين الطامعين فى الملك والقوة والأموال ، وفى سبيل

السياسة ضحينا بالإسلام ، فللقضاء على الحسين بن علي رحمه الله كانت مأساة كربلاء ، وللقضاء على ابن الزبير انتهكت حرمة الكعبة والبيت الحرام ، بل أصر مسلم بن عقبة المرمي أن يقر أهل المدينة على أنفسهم بأنهم (خُوِّل) أى عييد ليزيد بن معاوية فهل هذا من الإسلام ؟ بل هل هذا من الشرف والإنسانية ؟ .

وعلى طول العصور الماضية لم تتوقف الحروب بين حكامنا قط ، بل نجد أن الدولة تقوم في مكان ما ويستقيم لها الأمر ، فلا تكاد تطمئن على نفسها حتى تدخل في حروب مع جارتها تريد أن تستولى عليها ، وتستعبد أهلها ، ولم يكن بضائرها في شيء أن تعيش هي ، وتعيش جارتها ، ويكون بينهما التعاون والتفاهم والتآزر على الأعداء من القاصدين أذى الإسلام ، وقد أوغلنا في طريق السياسة الفاسد حتى فسد فكرنا السياسى الضار بالإسلام ، وكان لابد أن ننتظر حتى يستولى أهل الغرب على بلادنا ، ويستعمروها ويعلمونا طرائقهم في السياسة ، وينقلوا إلينا فكرهم السياسى ، وحتى بعد أن تحررنا منهم واستقلت بلادنا وقامت فيها الدول المحلية ظل العداء بين دولنا هو القاعدة ، أما المودة والتعاون فهو الاستثناء ، وما من بلدين عربيين مسلمين متجاوين إلا بينهما أشياء وأشياء ، وهذه هي جامعة الدول العربية لا تكاد دولها تجمع على رأى ، مع أن أهل الغرب وهم ليسوا مسلمين قد عقلوا وفهموا بعد تجارب السنين الطوال ، وبعد الحروب والعداوات والاثارات أدركوا في النهاية أن الصداقة بين الدول أجدى وأعون على القوة والخير ، والجماعة الأوربية جماعة ناجحة تتعاون دولها على ما فيه خيرها جميعاً ، بل إن دول الجماعة أصبحت وحدة سياسية واقتصادية قائمة بذاتها تحمى بلادها واقتصادياتها من ضغط الدولتين العظميين .

هل تصدق أنه لم يحدث مرة في تاريخنا الماضى أن زار ملك عربى مسلم بلد ملك عربى مسلم آخر ؟ لأنهم جميعاً كانوا يعرفون أنهم أعداء بمجرد أنهم أمراء

أو ملوك ، وأن الواحد منهم إذا دخل بلد ملك أو أمير مسلم آخر فلن يخرج منه حيًا ، هكذا دون سبب ، بل إن ملوك الإسلام كانوا لا يحجون إلا فيما ندر ، ولكي يحج الواحد منهم كان لابد أن يكون الحجاز في ملكه حتى يطمئن على نفسه ، وكل أمراء الأندلس وخلفائه لم يحجوا ، لا ولا حج من الفاطميين أحد حتى بعد أن أصبح الحجاز داخلاً في دولتهم ، ولم يحج من سلاطين المغرب إلا واحد هو السلطان عبد الحفيظ ، وقد حج بعد تخليه عن العرش ، وهؤلاء السلاطين لم يتوقفوا عن الحج عن تقصير في جنب الله ، وإنما لأن الطريق غير مأمون ، فهناك سلاطين مسلمون آخرون في الطريق ، وكل السلاطين وأصحاب الدول أعداء بعضهم لبعض ، لمجرد أنهم سلاطين ، لأن السياسة عندنا تفسد القلوب .

ومن غريب الأمر أن ملوك النصرانية في العصور الوسطى كانوا في بلادهم على مثل حال أصحاب الدول عندنا من العداوة والحروب ، فلما كانت الحروب الصليبية اتفقوا على حربنا فحسب ، وتلاقوا وتفاهموا على حرب الإسلام والعدوان على أراضيهم ومقدساتهم وأهلهم ، بينما نحن لم تكف عن العداوات أبداً ، وقد قضى واحد من أبطال حركة التجمع والتوحيد عندنا وهو نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى أكثر من عشر سنوات من سنوات جهاده يحاول ضم دمشق إلى جبهة الجهاد دون جدوى ، وقد وقف له في الطريق حاكمها معين الدين أنو ، كان حليفاً للصليبيين على إخوانه المسلمين ، وقد أشجاهم بعداوته فلم تنضم دمشق إلى جبهة الجهاد إلا بعد موته ، وعندما انضمت دمشق وتوحدت ببلاد الموصل والجزيرة الفراتية والشام انفتح الطريق لضم مصر ، وبانضمامها على يد نور الدين ، ثم صلاح الدين كان النصر العظيم ، وكان يوم حطين وانكسر ظهر الصليبيين واستعاد المسلمون القدس ، فكان العدو الحقيقي لم يكن الصليبيين بل كان العدو هو داء التفرق السياسى الوبيل .

وأمة الإسلام لم تتهز في الميدان أمام عدو من أعدائها أبداً ، أما الذين انكسروا فقد كانوا أصحاب الدول وأصحاب المطامع السياسية ، ونصر حطين الذي نفخر به كسبه المجاهدون والمتطوعون المسلمون الأحرار الذين خفوا للقتال ألوفاً حسبة لوجه الله ، ولم يكن من المقدر أن تدور المعركة في سهل حطين ، إنما كان صلاح الدين وجيشه في طريقهم للقاء العدو عندما تعرض عشرات الألوف من المجاهدين المسلمين لجيش الفرنجة وأوقفوا سيره وتحيفوه وناشروا جوانبه وساقته وتحطفوا فرسانهم ، وحالوا بينهم وبين الماء ، وكان الجو حاراً وهم في دزوع الحديد ، فخلع الكثيرون منهم دروعهم فأصابتهم سهام النبال خاصة التركمان منهم ، وقرابة الظهر وبعد أن أهلكهم الحر والمتطوعون هجم فرسان صلاح الدين ومشاته فأجهزوا على الألوف منهم واستسلم الباقون وكان النصر العظيم .

ذلك أن لباب الوجود الإسلامى هو الأمة ، هو الأصل ، وهو القوة ، وهو مستقر الإيوان ، وقاعدة الإسلام ، ثم تحيى الدولة بعد ذلك تنظيمياً إدارياً لا دخل له بكيان الأمة ، والله سبحانه في محكم تنزيله لم يخاطب المسلمين قط كدولة ، بل كأمة أى جماعة المؤمنين المتآلفة قلوبهم المستمسكة بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله لا يخاطب الإنسان الفرد في موقف الرضا إلا نادراً ، أما الأمة فهى دائماً موضع محبة الله وعنايته ورعايته وتوجيهه ، لأن الأمة هى المعتصمة بحبل الله دون تفرق ، فإذا هى تفرقت لم تعد أمة مسلمة ، ولم تعد محل عناية الله ورعايته ، ولم تعد تستحق نصره ، وعادات كما كانت قبل نعمة الإسلام على شفا حفرة من النار ، بل تدهورت في النار .

وفى سورة آل عمران نحو ستين آية متوالية تشير إلى ما وقع للمسلمين في يوم أحد ، والذي حدث في أحد هو أن المسلمين بعد تبادل للرأى طويل بين رسول الله ﷺ والمسلمين انتهى أمرهم إلى الاتفاق على لقاء العدو خارج المدينة ، وكان

الرسول لا يرى بأساً في أن يكون القتال بين المسلمين وخصومهم داخل المدينة ، ولكن الاتفاق تم على ما قلناه ، وأراد بعض المسلمين - بعد الاتفاق - أن يعودوا إلى رأى الرسول مخافة أن يكونوا قد اضطروه إلى قبول ما لا يجب ، فأبى ، وكان من رأيه أن المسلمين إذا اتفقوا على شيء فلا مجال للاختلاف بعد ذلك بحال ، لأن الاتحاد في الرأى والعمل هو سرقة أمة الإسلام ، قال سبحانه في آيات آل عمران التي نحن بصددتها :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

[آل عمران ١٠٥ - ١٠٧] .

فهنا يعتبر التفرق والاختلاف بعد الاتفاق بمثابة الكفر بعد الإيمان ، والذين يختلفون مع إخوانهم تسود وجوههم ، ومصيرهم إلى النار ، إلى هذا الحد يبلغ اهتمام الإسلام بوحدة المسلمين ، ويذهب بعض الذين يصرون على أن يروا في رسول الله صورة الحاكم السياسى الذى يأمر ولا بد أن يطاع ، يذهب هؤلاء إلى أن الرماة الذين أوقفهم رسول الله على جبل عينين لرد الفرسان عن المسلمين (وكان معظمهم يجاربون على أقدامهم ، فلم يكن لدى المسلمين يوم أحد إلا فرسان اثنان يذهب هؤلاء إلى أن الرماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ وبارحوا مواقعهم فكان ما كان ، والحقيقة أن الرماة لم يخالفوا أمر رسول الله ، بل خالفوا ما اجتمع عليه رأى المسلمين وقام بتنفيذه الرسول . .

وفي آيات آل عمران هذه ، نقرأ إشارة إلى ما كان من نصر الله للمؤمنين يبدر بسبب اتحاد قلوبهم :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

[آل عمران ٣ / ١٢٣ - ١٢٦] .

فهنا ولأن قلوب المؤمنين اتحدت كان نصر الله للمؤمنين لا بثلاثة آلاف من الملائكة فحسب ، بل بخمسة آلاف ، لأن النصر كله من عند الله ، وهو لا يكون إلا للأمة المتحدة المعصمة بحبل الله جميعاً دون تفرق ، فما الذى حدث فى أحد ، الذى حدث هو أن جماعة من المسلمين خالفت ما وقع عليه الاتفاق فكانت النتيجة ما دار على المسلمين من هزيمة وقتل ، لولا أن رسول الله بشجاعته النادرة ورباطة جأشه الذى لا يتزعزع - ثبت ونادى المسلمين فتابوا إليه وجمعهم حوله من جديد .

وسار بهم على مهل ، فدخل هو وبعض أصحابه خلف حائط صخرى قصير ، وتترس المسلمون أمامه وظهرهم إلى الجبل ، وعاد الرماة يرمون ويردون الخيل عن المسلمين ، فأنقذ رسول الله جماعة المسلمين وحول إلى نصر ما بدا وكأنه هزيمة فى الدور الثانى من أدوار المعركة .

وقد سمعنا قول الحق سبحانه للمسلمين المتحدين يوم بدر ، فلنسمع ما يقوله للمسلمين الذين اختلفوا يوم أحد :

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ

شهداء والله لا يُحِبُّ الظالمين ﴿ [آل عمران ١٣٩ - ١٤٠] .

إن الله هنا يعزى المسلمين عما أصابهم ، ويذكرهم بأنهم إذا كان قد مسهم جرح فقد مس القوم مثله ، فلا ينبغي إذن أن يحزن المسلمون أو يضعفوا وهم الأعلون (بإيمانهم واتحادهم) وليعلموا أنهم إذا اختلفوا فيما بينهم فقد قصروا في حق إيمانهم وأصبحوا بهذا في مثل مرتبة غير المسلمين ، وأصبحوا ناساً من جملة الناس ، وهنا تجوز عليهم الهزيمة ، لأن الله جعل الأيام دولاً بين الناس ، أما المؤمنون الذين ينصرون الله فهو سبحانه ناصرهم وممدهم بكل ما هم بحاجة إليه من العون .

ومرتان في القرآن الكريم نقرأ قول الحق سبحانه . ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٩٢ - ٩٣] .

والمرة الثانية في سورة (المؤمنون) :

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونَ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ .

[المؤمنون ٢٣ / ٥٢ - ٥٤] .

في المرة الأولى ترد الآية في سياق الكلام على السيدة مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام فهي تذكر المسيحيين بأن أمة الله واحدة ، ولكنها اختلفت فيما بينها فخرجت عن مرادات الله ، والمرة الثانية ترد في سياق الكلام عن موسى عليه السلام فهي تشير إلى اليهود .

وهذا يلفت نظرنا إلى أن آيات القرآن لا تتكرر ، ولو خيل إلينا أنها ترد أكثر

من مرة بنفس اللفظ ، لأن السياق هنا هو الذى يعطى الآية معناها الخاص فى كل مرة ، وهما نحن أولاً نرى هنا أن الكلام فى المرة الأولى يرد فى سياق الحديث عن مريم بنت عمران والمسيحية ، وفى المرة الثانية يرد فى سياق الحديث عن موسى واليهود ، والمعنى المراد هنا ، هو أن أمة المؤمنين واحدة ، وهى أمة تعبد الله وتلتف حول لوائه وتعصم بحبله اعتصام المسلمين ، والحقيقة البعيدة التى يؤكدتها القرآن هنا ، هى أن النصرانية واليهودية والإسلام دين واحد ، هو دين الاعتصام بحبل الله تعالى وعبادته ، ولا يجوز فى هذه الحالة أن يختلف المؤمنون ويتقطعوا أمرهم بينهم أحزاباً أو أدياناً وإذا كان النصارى ينسبون إلى عيسى أو يسوع الناصرى ، واليهود منسوبين إلى يهوذا أو يهوفا وهو إله اليهود الخاص بهم فى عقيدتهم ، فإن الإسلام هو دين إسلام الإنسان وجهه لله وهو مؤمن ، فالنصارى الصادقون العابدون لله الواحد المسلمون وجوههم لله هم مؤمنون ، واليهود الصادقون العابدون لله الواحد المعتصمون بحبله المسلمون وجههم لله هم مسلمون ، ومن هنا نفهم على ضوء جديد قول الله للمؤمنين :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة ٣ / ٥] .

فإن الإسلام - كما رأينا - تمام الديانات السماوية ، وقد أكمل الله سبحانه به الدين ، لا على المسلمين فحسب ، بل على المؤمنين جميعاً ، إذ الحق أنه لا يهودية هناك ولا نصرانية ، بل هناك إسلام الإنسان وجهه لله لهم الإسلام ديناً وإذا كان الله واحداً فكيف تكون رسالته إلى أنبيائه شتى ؟ ومادام الله قد أرسل محمداً بالقرآن كلمة الله الصادقة التى أنزلها إلى البشر صدقاً وعدلاً ، فكيف يكون هناك مؤمن غير مسلم لله وجهه ، وكيف نأتى الله سبحانه وكل منا يدين بدين خاص به ؟ وهل فى القرآن حرف يتعارض مع ما عليه اليهود ؟ وهل فيه حرف يتعارض مع حرف فى العهد القديم أو العهد الجديد ؟ وهل يقول عيسى بن

مريم في الأناجيل شيئاً يختلف مع ما في القرآن ؟ أكل المشكلة هي أن كلمة الله حملها هنا محمد العربي ؟ أم هو عناد وعصية عنصرية إذن ؟ أم هو موقف من محمد صلوات الله عليه ؟ هنا نفهم في ضوء جديد مرة أخرى لماذا يقول الله سبحانه في سورة آل عمران :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران ٣ / ١٨ - ١٩] .

لأن المسألة هنا تصبح مسألة بغى على الله ومصادرة لمشيئته في وضع رسالاته حيث يشاء ، والله لا يرضى أن يُبغى عليه أو تصادر مشيئته ، ولهذا فهو يقول هنا قولاً حاسماً لا ريب فيه ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ثم يقول الحق سبحانه في نفس السورة مؤكداً هذه المعانى كلها :

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرِقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

[آل عمران ٣ / ٨٤ - ٨٥] .

ولكن موقفهم الظالم هذا من محمد ﷺ الرسول العربي لا ينبغي ألا يحفزنا على أن نرد عليه بموقف ظالم مثله ، لأننا نحن المسلمين مأمورون دائماً بأن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذا الأسلوب الهادئ الحكيم في الدعوة ميزة من ميزات الإسلام ، فلندع الحائق المغيظ في حنقه وغيظه حتى يتولاه الله بهدأته ، فإن الهداية لا تأتي إلا من الله ، وأنت مهما فعلت فإنك لن تهدي

من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ولا تنس أن الآيات البينات التي أوردتها لك أنفا يعقبها قول الله سبحانه :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران ٨٦ / ٣] .

ويستوقف نظرنا هنا أن الخلافات والأحقاد والحروب بين المسلمين لم تكن قط بين الشعوب الإسلامية ، فلم يحدث قط أن تحاربت مصر مع الشام ، أو الشام مع العراق ، أو شعب العراق مع شعب إيران ، ولكن الحروب كانت دائماً بين رجال السياسة وأصحاب الدول ، وأصحاب الدول كانوا في تاريخنا الماضي دائماً غاصبين مكروهين من شعوبهم ، وبعد اخلفاء الراشدين لم نعرف حكاماً عادلين إلا في النادر ، والطريق الوحيد للوصول إلى السلطان أصبح طريق الدماء ، ودماء عثمان الشهيد والحسين الشهيد وآل البيت الشهداء ودماء المسلمين الأتقياء الشهداء ظلت تخرج تاريخنا كله إلى حين قريب .

السبب أننا نسينا - من منتصف خلافة عثمان - أن الحكم الإسلامي لا بد أن يكون جماعياً شورياً هكذا كان رسول الله يتولى أمور أمة الإسلام ، وتبعه في ذلك الشيخان ، وعمر - على رغم ما يروى من شدته وحزمه - كان لا يقطع أمراً دون رأى كبار الصحابة الذين قاموا على رأس الأمة ﴿ أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران ١٠٤ / ٣] . وهكذا كان ينبغي أن يظل الأمر دائماً حتى تسير سياسة المسلمين في الطريق الإسلامي السليم والحكم الجماعي ، أي إسناد رئاسة الجماعة إلى نخبة مختارة من أهل الرأي والحكمة والفضيلة ، وهذه النخبة تختار واحداً منها للرئاسة فترة محددة من الزمن ، هذا كان ولا يزال أسلم الطرق لقيادة الجماعات ولم تخل الأمة أبداً من الجماعة التي تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن

المنكر ، بل لم يخف أمر هؤلاء الأفاضل قط عن الناس ، ولكن تحول الخلافة إلى سلطان مستبد أفسد كل شيء ، والخليفة الملك جعل أول همه القضاء على أهل الخير والفضل ، ليخلو له الأمر ، والمستبدون جعلوا مهمهم إخضاع أمة الإسلام كلها لإرادة واحدة ، فنهض لهم المنافسون في كل مكان ، وأصحابنا الفقهاء لم يوجهوا مهمهم إلى إعادة الأمة لمنهج الشورى وحكم أمة الخير ، بل جعلوا يتناقشون فيمن يستحق الخلافة الملكية ، ومن لا يستحقها ، من هنا نجمت كارثة الحرب الأهلية التي لم تحمد نيرانها داخل أمة الإسلام أبداً ، ومن هنا أيضاً نجمت محنة الشيعة ، وهي محنة ما كان ينبغي أن تظهر في كيان عالم الإسلام قط ولكنه الاستبداد والأنانية والعناد ، والعناد يورث الكفر كما يقولون .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا
مَاتَوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ
الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ . ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ
فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[ق : الآيات ٣١-٣٥]

من فضائل القرآن على اللغة العربية أنه أخذ من ألفاظها الجارية وأعطاه
معاني جديدة نبيلة ، وبعثها بذلك بعثاً جديداً ، كما ترى في ألفاظ الصلاة
والزكاة والتقوى والتشهد ، وصاغ ألفاظاً جديدة من أصول قديمة كالجنة والبعث
والنشور والآية والسورة ولفظ القرآن نفسه ، ومن هذا كله ومن غيره تكونت لغة
القرآن ، ونشأ ما يسمى بالألفاظ القرآنية ، وهى الألفاظ ذات المعانى الدينية
والإيمانية التى لا توجد إلا فى القرآن ، فإذا استعملت فى غير القرآن عادت إلى
معانيها العادية الأولى كالحساب والرباط والوحى والهوى والسريرة والعزة
واليقين .

ومن هذه الألفاظ حروف ارتفعت عندما دخلت القرآن وأصبحت لها معان شريفة ، ومن ذلك « لدن » ومعناها عند ، ولكنها تأخذ مقاماً رفيعاً في مثل قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود ١ / ١١] وقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشِداً ﴾ [الكهف ١٨ / ١٠] وقوله : ﴿ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء ٤ / ٤٠] ، ومن هنا جاء تعبير « العلم اللدنى » ذو المعنى الرفيع .

ومن هذه الألفاظ القرآنية لفظ القلب وجمعه القلوب ، فإن له في القرآن الكريم معاني عظيمة من بينها « الضمير » في مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٨ - ٩٠] وقوله سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَتَعَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد ٤٧ / ٢٤] .

وأمثال هذه الآيات تضع أيدينا على سر من أسرار الإسلام عظيم ، وهو أنه دين القلوب ، حقا إن للضمير مكاناً عظيماً في النصرانية واليهودية ، ولكن القسس والكواهن هناك هم الذين يقومون بتنبيه الضمائر وإيقاظ القلوب ، لأنهم هم الواسطة بين المؤمن وربّه ، وهم الرقباء على الناس ، وفي الكاثوليكية يقوم القس بدور الضمير للمؤمنين ، فإذا ارتكب واحد منهم خطيئة واعترف بها للقس فإن للقس القدرة والسلطة على إعفائه منها ، وهذه السلطة لا تأتيه من الله ، بل من الكنيسة ، وعلى رأسها البابا الذي يقوم بدور الضمير للجماعة كلها وهو مفوض في منح المغفرة والبركات للمؤمنين ، بل إن له سلطة الحرمان من رحمة الله . وفي صراع البابوات مع الأباطرة على السلطان الدينى استعمل البابوات هذا السلاح ، فأصدروا قرارات بحرمان خصومهم السياسيين من رحمة الله وطردهم من الكنيسة ، وهى - أساساً - جماعة المؤمنين ، بل استعمل البابا

هذا السلاح مع قس لا شك في إيمانه المسيحي ، وهو مارتن لوتر .

لا شيء من هذا في الإسلام ، فأنت مسئول عن نفسك وأعمالك أمام الله سبحانه بلا واسطة ، والرقيب الأكبر عليك هو قلبك أو ضميرك ، فأنت وحدك تعرف حقيقة نفسك وما فيها ، وأنت تعرف أن الله يعرف ما في نفسك ، فأنت لا تستطيع أن تكذب على نفسك ولا على الله ، وهذا هو القول الفصل ومقطع الحق في الإسلام .

وللمحارث المحاسي كلام بديع عن القلب والإيمان في كتاب « الرعاية لحقوق الله » ، وكذلك لأبي طالب المكي في كتاب « قوت القلوب » ، أما أحسن من تحدث عن القلب والقلوب والإيمان فهو الإمام أبو حامد الغزالي في « الإحياء » وغيره من كتبه الصغار ، وخاصة « كيمياء السعادة » و « مشكاة الأنوار » .

وكان أهم الأكبر لرسول الله ﷺ أثناء بعثته ورسالته في مكة ، ثم في المدينة هو إحياء قلوب الناس ، وتوفيقه الأكبر هو نجاحه في تحويل أمة الإسلام إلى قلب نابض وضمير حي ، وهو صلوات الله عليه ، لم يقصد قط إلى أن يكون رقيباً على الناس ، وإنما كان مثلاً على يقظة الضمير وتقوى القلوب ، وكان الصحابة من حوله يرون كيف يتعبد وكيف يعامل الناس وكيف يراقب ربه ، والسعداء منهم هم الذين وصلوا إلى قرب مستواه من يقظة القلب ، وانظر إليهم كيف أصبحوا من حوله ضميراً حياً يتحرك ، والواحد منهم يحاسب نفسه ويراقب ربه ، انظر إليهم ، كيف كانوا يشتركون معه في بناء مسجد الرسول ويتنافسون في ذلك وهم يغنون وينشدون ، وكيف ساروا معه إلى بدر وهم قطعة من الضمير الحي ، ورسول الله يرقبهم ويدعو الله ليؤيدهم ، لأنه يعرف أن إيمانهم أيقظ قلوبهم ، فأصبح الواحد منهم بهيمة من البشر . وقد كان ينبغي أن

نستمر في طريق القلوب هذا حتى تظل أمة الإسلام قوية في صدر الأمم ، وإذا رأيت أننا ترحزحنا عن مكاننا في صدر الأمم فاعلم أننا لابد أن نكون قد فقدنا ميزة المسلم الكبرى ، وهى حياة الضمير ويقظة القلب ، لأن الله سبحانه لا يرضى إلا أمة الضمير والقلوب .

وإذا كنت من أولئك الذين يعينهم أمر هذه الأمة ، ويحيرهم ماهى فيه من تفرق واختلاف رأى وقلة توفيق ، فاقرا قول الحق سبحانه فى سورة الفتح :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ نَكَثَ فَمَنْ نَكَثَ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْنَةِ الَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾ .

[الفتح ٤٨ / ١٠ - ١١] .

فهنا ترى صورة ناس مثلنا شغلتهم أموالهم وأهلهم عن الخروج مع المسلمين للجهاد ، ففسدت ضمايرهم ولم يعودوا يستحقون عون الله ، لأنهم خرجوا عن أمة الضمير والقلوب ، فأصبحوا ناساً من الناس لا يستحقون عون الله ورعايته ، وذلك هو مانحن فيه من قرون طويلة منذ فقدنا صفاء الضمير .

ذلك أن الإسلام هو دين الضمير الحى والقلب السليم ، والذى فعلته أمة الإسلام يوم صحا قلبها فى ظلال رسول الله والخلفاء الراشدين من بعده لا يصدق ، فقد كان رسول الله يرى أن قوة الأمة فى يقظة قلبها أى ضميرها ، فكان لا يهوله شىء ولا يستكثر على أمته شيئاً ، لأنه كان يرى المؤمنين من حوله ضماير حية يشعرون بواجبهم ويقومون به دون أن ينبههم هو إليه ، ونحن نعرف القوة العسكرية التى وصلت إليها أمة الإسلام أيام الرسول ، ولكن الذى لا

نعرفه هو تحول المدينة العظيم خلال السنوات العشر التي قضاه فيها الرسول ، فقد تضاعف سكانها فوق المرات الأربع ، وزادت فيها الأراضي الزراعية حتى كفت المدينة نفسها بنفسها من عمل أيدي أفرادها ، وأنشئت الطرقات والشوارع والجسور على وديان الماء فيها ، وقامت المساكن على جوانب الطرق ! ونشأت في المدينة سوق عظيمة على الطريق المبلط الممتد من مسجد رسول الله ﷺ إلى جبل سلع ، وفي هذه السوق كان أهل المدينة يجدون كل ما كان يحوجهم من طعام وآنية وسلاح ، وكان الناس يتبايعون بأمانة وصدق ، وكانت معظم بيوعهم مبادلة ، وكانت مغنم المغازي كثيرة ، وكل المسلمين كانوا جنوداً مجاهدين ، فالرجل يغنم في الغازية ناقة أو شاتين ، فيذهب إلى السوق ويشتري السيف والآنية دون مشاحة ، فكل واحد يعرف قدر ما بيده ولا يطالب بأكثر منه ، وإذا وقع خلاف حمله الناس إلى رسول الله فيقضى فيه بنفسه أو يتركه لعل بن أبي طالب أو أبي بكر ، ويعرض عليه قضاء الصحابي ، فكان يقره في الغالب لأنه كان يعرف أن معظم من حوله من رجال أمة الإسلام يتصرفون عن قلوب حية ، وكتب الحديث والآثار النبوية حافلة بالأقضية والأحكام ، وهذه الأحكام هي الأساس الذي قام عليه قضاء المسلمين فيما بعد ، لأنها كلت أحكاماً سليمة صادرة عن قلوب صافية لأنها مؤمنة .

ولم يكن في أمة الإسلام أيام الرسول جهاز إداري ، فبيت المال شيء بسيط بيد بلال الحبشي ، وهو يتصرف فيما تحت يده بحسب ما يرى أحياناً ، ولكنه كان يطلع الرسول على كل ما يعمل ، ولم تكن هناك دفاتر أو دواوين ، ولكن كل شيء كان واضحاً ، وكانت الأمة تملك ألوف الأنعام ترعى في الأحياء (جمع حمى) والحمى مساحة من الأرض يخصصها الرسول أو خليفة من بعده لأنعام الأمة التي تتحصل لها من المغازي ، ولم يكن يحرس الحمى الطويل العريض إلا ثلاثة رجال أو أربعة ، فإذا أغار نفر من البدو على الحمى وسرقوا شيئاً مما فيه

نفرت الأمة كلها في الطلب ، وكان رسول الله ﷺ يقود أحياناً تلك المطاردات ، والمؤمنون من حوله ينافسون في الإخلاص والحمية ، فهذا مال الجماعة وهو ما لهم ، لأن الأمة كانت قوة واحدة وضميراً واحداً ، وفي مدى يومين أو ثلاثة على الأكثر تكون الأمة قد استردت ما سرق منها أو معظمه ، ثم ينصرف كل مؤمن إلى حياته بعد أن أدى واجبه نحو أمته . والأعراب الذين تذكركم الآية غابت عنهم هذه الحقيقة ، لأن قلوبهم لم تصح بعد ، وما في قلوبهم غير ما تجرى به ألسنتهم ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فِتْرَاهُ مُصْفِراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ . أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

[الزمر ٣٩ / ٢١ - ٢٢] .

فهناك ترى كيف يجمع الله بين الماء الذي ينزله من السماء فيجري في باطن الأرض ، ثم يخرج الله به زرعاً مختلفاً ألوانه ، والذي شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، وهذا النور ينير القلب ويبعث صاحبه على العمل الصالح ، فيقبل عليه ويتنفع بهاء ينباع ليخرج النبات الذي ينفع الناس ، ثم يذبل ما بقي من النبات ثم يجف ويكون حطاماً ، وهذه الحطام تعود إلى الأرض لتتحول إلى نبات آخر بإذن الله ، فهكذا يكون قلب المؤمن الصالح المتيقظ بذكر الله ، فهو يعمل ويزرع ويخرج الخيرات لنفسه وللآخرين ، أما القاسية قلوبهم ، أولئك الذين لم تستيقظ قلوبهم ، فهم بعيدون جداً عن هذا النور وهم في ضلال مبين

وفي هذه الايات ترى قوة الإسلام الكبرى ومعناه العظيم ، فهو قلب حي

وضمير يقظ. ونفس صافية ، وهو لهذا قوة وعمل وخير وعلم ، وأنت ترى أن الله لا يذكر العمل في هذه الآيات لأنه مفروض ، فالمسلم الصالح مسلم عامل ، وعمله صادر عن قلب واع ، فهو يدرس ويبحث ويفكر ويتنبه أثناء ذلك إلى ما فيه خيره وخير أمة الإسلام معه ، وانظر إلى أمة الإسلام في واقعة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة ، وعندما اجتمعت قريش وغطفان وأسد وغيرها من القبائل وسارت جحفاً لجباً للقضاء على أمة المدينة ، واهتدى سلمان الفارسي إلى فكرة الخندق ، ووجد الرسول فيها خيراً قدما للمسلمين للمبادرة إلى العمل ، وتدارسوا خطة الخندق ، وشرعوا في حفر الخندق ، وأقبل الرسول يعمل معهم بيده ، وخطة الخندق تتطور مع العمل ، فوجدوا أن بعض جوانب المدينة محصنة بالبيوت ، وكل ما ينبغي هو تشييكها أى سد الفراغات بينها ، ووصل الأعداء ليجدوا أنفسهم أمام شيء لم يكن يخطر لهم على بال ، وخطر لبعضهم أن يطفروا الخندق بالخليل ، وطفروا فعلاً ليجدوا أن القوة الحقيقية ليست في الخندق بل في الأمة التي وراء الخندق ، فهي أمة صاحبة بقعة ، وهذا رسول الله قائم في قلبه إلى جانب جبل سلع ، وأبو بكر فوق الجبل يرقب قوات الكفار وبينه المسلمين ، والمسلمون أصبحوا فرقاً مقاتلة تطوف بأجزاء حددت لهم من الخندق ، وإذا تبين أن هناك جزءاً من الخندق لا بد من توسيعه تم ذلك أثناء الليل ، وهناك قوتان طيارتان إلى جانب قبة الرسول ، يقود إحدهما عباد بن بشر ، والثانية محمد بن مسلمة ، والاثنان من أسود الأمة ، ورسول الله لا يكاد ينام من الليل ساعة حتى توقظه هبة فينهض ويرد الأعداء ، ثم يعود إلى خيمته ليستريح ، وجماعة من فرسان الأعداء تقفز فوق الخندق فيتصدى لها على بن أبي طالب ونفر من المؤمنين معه ، وينقلب الأعداء عائدين ، وواحد منهم يرتطم في الخندق فيهيط رجل من المؤمنين يقتله فيه ، وتهب الرياح العاتية ويشتد البرد والأعداء يعانون من ذلك ، ولكن المؤمنين لا يكادون يشعرون به لأن

قلوبهم مستيقظة للعمل العظيم ، وبعد نحو أسبوعين من هذه المعركة الحامية يتبين أبو سفيان صخر بن حرب أن ولوج هذا العرين مستحيل ، فهذه أمة حية باعت نفسها لله ، ثم إن عينه بن حصن الفزاري شيخ غطفان لم يقدم ليخوض معركة طويلة المدى ، فهذا شيخ قبل بدوى يريد أن يضرب ضربة يوم ويفوز هو وقومه بما تصل إليه أيديهم ثم يعودون إلى منازل قبيلتهم ، فأما وهذه الغاية لم تتحقق فهو يجمع رجاله ويكر راجعاً ، وكذلك تفعل القبائل الأخرى ، ويظل أبو سفيان وحده مع كفار قريش ولا يجدون مندوحة عن الانصراف بأقل من خفى حنين ، وقبل انصرافه عائداً إلى مكة والغيط يملأ قلبه كتب إلى رسول الله « باسمك اللهم فإنني أحلف باللات والعزى لقد سرت إليك في جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري من علمك هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ، تبقر النساء » وبعث بالكتاب مع أسامة الجشمي ، فاستدعى رسول الله ﷺ ، أبي بن كعب وأمله « من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب . أما بعد فقد بدأ غرك بالله الغرور ، أما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم وأنك تريد أن تستأصلنا ، فهذا أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمك الذي صنعنا من الخندق فإن الله تعالى أهنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تدافعنا بالراح ، وليأتين يوم أكرس فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، حتى أذكرك ذلك » (مغازي الواقدي ٢ / ٤٩٣ - ٤٩٤) .

فهذه أمة صاحبة القلب يقظة الضمير ، أفرادها يقاتلون بقلب واحد وإرادة واحدة ، وخلال أيام الخندق هذه ما بين خمسة عشرة وعشرين يوماً ، لم يطمئن لفرد واحد من أفراد الجماعة جنب ، فهم كلهم يقاتلون أو يقومون بما يحدم إخوانهم في ساعة المحنة ، والقلوب اليقظة تفتح مغاليق الذهن ، فكل فرد

من أفراد هذه الأمة يبتكر وينفذ ، ورسول الله ضمير هذه الأمة الصاحي وقلها
اليقظ يقوم وسطها ويرعاها ويوجهها ، وعندما نجح الأعداء في اجتذاب بني
قريظة إلى جانبهم ، وأعلنوا الحرب على المسلمين أسرع رسول الله فأرسل محمداً
ابن مسلمة في قوة حراسة يقف عند رأس الطريق من منازل بني قريظة إلى وسط
المدينة ، فما استطاعوا حراكاً حتى انهزم الأعداء وانصرفوا ، وهنا تقدم الرسول
بعد ساعات قلائل بمن معه من المسلمين للنظر في أمر أولئك القرطيين الذين
كسروا العهد وخانوا الأمة التي هم حلفاؤها ، وكان ما كان من عقابهم على
ما صنعوا .

ذلك أن مدار العمل كله في أمة الإسلام هو القلب أو الضمير ، وليس
المراد بذلك ضمير كل مسلم على حدة ، بل المقصود قلب الأمة كلها وضميرها
جميعاً ، فإن قوة أمة الإسلام لا تنجلي إلا إذا كان المسلمون جميعاً قلباً واحداً
وضميراً واحداً ، فلا خيانة ولا غدر ولا أنانية ، لأن هذه الأمة هي أمة التوحيد
وأمة الوحدة ، والقلب اليقظ الصاحي هو قوة المسلمين ، ولا يصح أمرهم أبداً
إلا إذا كانوا جميعاً قلباً واحداً ، ففكرة الخندق كما رأينا فكرة بسيطة ، وكل ما
فعله الخندق هو أنه حال بين الكفار واقتحام المدينة ، وكان الكفار قادرين أن
يقتحموا الخندق . ولكن القوة الحقيقية كانت في تلك الأمة الإسلامية الصاحية
وراء الخندق ، فخلال أيام الخندق ليس لدينا خبر عن مسلم واحد فكر في نفسه
أو اتجه إلى ما فيه خيره وحده ، وإنما كانت الأمة كلها ضميراً واحداً وقلباً واحداً
فاستحقت نصر الله ، وأمر أمة الإسلام كلها لا يصلح إلا إذا تصرف كل مسلم
على أنه عضو في أمة واحدة ، وهذا شيء لا يكون إلا إذا كان قلب كل مؤمن
واعياً له مدركاً إياه .

وكل شيء في الإسلام رهين بما تقول القلوب ، فالإيمان إيمان القلوب
لا إيمان الشفاه ، والأعمال في الإسلام قائمة على النيات ، فالتية هي ما يتعقد

عليه القلب ، فأنت تنوى الصلاة والصيام والحج ، والحساب يكون على النيات قبل الأفعال ، لأن الإسلام دين قلوب ، وأمة أمة قلوب ، وهذا هو السر الذي يغيب عن الكثيرين فيحسبون أنفسهم مؤمنين صادقين دون أن يذكروا أن الإسلام الحق هو يقظة الضمير ، هو أن تكون واعياً إلى أن نجاح أمة الإسلام وعدم نجاحها متوقف على تقوى القلوب ، وعلى يقظة الضمير ، فإن أمة الإسلام واحدة ، ولا يوفق مسلم وحده أبداً ، فلا بد أن تكون قلوبنا نحن المسلمين واحدة مجتمعة على الخير ، فإذا كنا كذلك نجحنا كما نجحنا في بدر والخندق ، وفي كل ما فعلناه أيام الرسول الأكرم وخلفائه الأولين ، وما أيسر النجاح للمؤمن الذي يريد ، فما عليه إلا أن يذكر دائماً أنه جندي في جيش الإسلام الذي يخوض معركة الخير مسلحاً بخلاص النية وسلامة القلوب ، وما أتى الإسلام والمسلمون إلا من ناحية التفرق ونسيان وحدة القلوب ، ويقظة الضمير ، ولقد قال الحارث بن أسد المحاسبى « إن ميزان المؤمن قلبه » وهو يريد ضميره .

ودعا إلى وحدة القلوب ، لأن الله عندما أرسل محمداً برسالة الحق أراد أن يسير البشر في طريق الخير ، والقرآن كلام الله في أيدينا وصدورنا ، وهو ضميرنا ومرشدنا إلى كل خير ، ففى القرآن مفاتيح العلم كله ، والعلم مفتاح كل عمل صالح ، فلو أن كل مسلم على حده أدرك هذه الحقيقة وتصرف على مقتضاها لوجدنا أنفسنا أعلم الناس وأصلح الناس عملاً وأنجح الناس وأغنى الناس ، هذا إلى رضا الله عنا وما ادخره لنا من جميل الثواب ، وأنت عندما تقول : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله فأنت تدخل بهذا في جماعة الخير والإيمان ، وعليك بعد ذلك أن تحافظ على يقظة ضميرك وتتصرف على أنك واحد من أمة واحدة هي أمة الخير ، فلن يصح لك عمل إلا إذا صدرت فيه عن قلب سليم ، أى نية حسنة خالصة لوجه الله وصالح المؤمنين ، ولقد كان قتيبة بن مسلم يقول لرجاله قبل

كل معركة يا أمة محمد . . أمامكم أمة كافرة لا تجد طريقها إلى الله فافتحوا لها الطريق بالسيف ، وأبها واحد من هؤلاء ينطق بالشهادة فهو منكم وأخوكم ، فارفعوا السيف عنه ، قولوا لا إله إلا الله فينصركم الله على اسم الله ، ثم يكر على أعداء الله فيجعلهم بدداً ، وفي طريقه إلى سمرقند مربيقة فوجد أهلها جميعاً ينتظرونه خارجها ، وقال له رئيسهم : هل أنتم رجال قتيبة ؟ قال : نعم نحن قوم قتيبة . وأنا قتيبة . قال الرجل : فنحن معك ونريد أن نقاتل معك ، فقال قتيبة ومنذ متى أنتم مسلمون ؟ قال : من ساعة سمعنا بعبورك النهر وأنت في الطريق إلينا ، قال قتيبة فاغسلوا في هذا النهر وصلوا معنا ، ففعلوا وسار منهم أكثر من خمسة آلاف في جيش قتيبة ، فكانوا خير المجاهدين في سبيل الله .

ما أكثر ما نسأل أنفسنا عن السبب في كثرة ما أصابنا منذ قرون ، فهذا هو السبب : نوم القلوب ، فنحن ننسى دائماً أن الإسلام قلب وضمير ، وأن ضمير أمة الإسلام كلها واحد . أو ينبغي أن يكون واحداً ، فإذا كان واحداً تفتحت السبل أمام أمة الإسلام ، ونحن عندما نقول تقوى القلوب فالمراد بذلك خشية القلوب لله سبحانه عن حب وخوف معاً ، فإن الحب الصادق لا يخلو من الخوف أبداً ، فنحن نتقى الله لأننا نحبه ولا نريد أن نفقد هذا الحب ، وقد كان عقبة بن نافع يغتسل ويصلي ركعتين لله قبل كل معركة ، وكان يقول : اللهم إنني أحبك وأخشاك . فارزقني المزيد من حبك حتى لا يغلبني خوفى منك ، ثم يخوض المعركة ويكسب النصر فيعود ويصلي ركعتين ويقول : اللهم زدني من حبك وتقواك . فكان أعداؤه الذين انتصر عليهم يقبلون نحوه ويدخلون الإسلام ، وينضم الكثيرون منهم إلى جيشه ، وقد رزقه الله لهذا من النصر مازقه القليلون .

لنذكر دائماً أن الإسلام دين قلوب ، وأن قلوبنا إذا كانت صاحبة فلاحوف علينا ولا نحن نحزن إن شاء الله ، إن طريق السلامة الوحيد لأمة الإسلام هو

طريق القلوب السليمة والضمائر الحية اليقظة التي تشعر دائماً أنها أعضاء في أمة واحدة ، أمة تحب الله وتخشاه وتتقيه وتلتف حوله وتعتمص بحبله لتصل إلى النجاة ، وتكون من أولئك الذين عناهم الله سبحانه بقوله :

﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا . حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّاءُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

[الزمر ٣٩ / ٧٣ - ٧٥] .

أرأيت كيف جعل الله للمؤمنين الصادقين الأرض والجنة جميعاً ؟
﴿ وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّاءُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أجل فهذا جزاء المؤمن صادق القلب حتى الضمير ..



﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ
مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ
صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضِلُ بَعْضَهَا
عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الرَّعْد : الآية ٤]

انتهينا في مقالنا الماضي من الكلام على فرائض الإسلام : فرائض العبادات
وفرائض الواجبات التي لا بد منها لبقاء أمة الإسلام بين أمم الصدارة والقيادة على
هذه الأرض ، لأن الإسلام قوة وعزة وفتح ونور وريادة وقيادة .

واليوم نتكلم عن واحدة من خاصيتين يتميز بها الإسلام . هما العلم ، ثم
العمل ، وستحدث عنه في فصلنا التالي إن شاء الله .

والآيات التي جعلناها بداية لكلامنا عن الإسلام والعلم آتيت بها من سورة
الرعد ، وأنت إذا قرأت السورة ملياً وجدت أنك تستطيع أن تسميها سورة العلم

أو سورة العلوم على اعتبار أننا اصطلاحنا في يومنا هذا على أن لفظ العلوم بالجمع يراد به علوم المعاش من فيزياء وكيمياء وزراعة وطب وصيدلة وكل ما ينفع الناس في دنياهم ، ومن الواضح أن صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح أخراه كما رأينا عندما تكلمنا عن قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ فهنا يرتبط الوجود الأرضي بالوجود الفردوسي ويتلازمان ويصبحان شيئاً واحداً ، وعبرة (فنعم أجر العاملين) في آخر الآية تدل على أن الذين أورثهم الله الأرض عملوا فيها أحسن العمل فتبوءوا بعد ذلك من الجنة حيث يشاءون .

وفي الناس من يقولون إن المراد بالعمل هنا هو العبادات ، وهذا معقول ومقبول ، ولكن الله سبحانه خفف أمر العبادات المفروضة في الإسلام ، فجعلها لا تستغرق من وقت الإنسان إلا أقله ، وإذا أنت أخذت الصلاة مثلاً وجدت أن كل صلوات اليوم المفروضة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة في مجموعها فماذا تفعل ببقية ساعات النهار والليل ؟

الذي تفعله هو النظر في الكون على نور القرآن ، فتجد أن الله سبحانه قد وضع لك في هذا القرآن ما هو كفيلاً بأن يحرك ذهنك إلى العمل ، ويفتح أمامك أبواب النشاط ، ويدفعك إلى التفكير للكشف والوصول إلى ما تضمنه الأرض من منابع الخير ومصادر القوة ، والآيات التي ذكرناها إنها أنزلها الله سبحانه لكي يحرك بها أذهاننا في طريق العلوم وأسرارها حتى تتفتح أمامنا أبواب الكشف ، وكلما وصلنا إلى كشف انفتحت به أمامنا سبل العمل والرزق ، وإلا فلماذا يلفت الحق سبحانه أنظارنا إلى هذه الظاهرة الفريدة ، ظاهرة وجود قطع من الأرض متشابهة وغير متشابهة تنبت صنوفاً من الثمر مختلفاً أنواعه كالأعشاب وصنوف الزروع والنخيل . وقد تتجاور شجرتان : تين وزيتون ، والتين حلو ، والزيتون

مر ، وهما يخرجان من أرض واحدة بأمر الله ، ونحن في هذه الحالة مطالبون بأن نفتح الأرض ونقلبها وندرس النوى والحب لكى نصل إلى ما يأذن الله لنا في علمه من الحقائق التى تعيننا على تجويد الزرع والإكثار من الشمر وحمايته وحماية الأرض وهنا علوم كثيرة : فيزياء وكيمياء وأحياء ، ومن العلوم تتفرع علوم ، وكل علم يأتينا بخير كثير ، وبالحير الكثير تنمو ثرواتنا وتقوى وتعز بلادنا ، وكل هذا يأتينا من العلم ، ولهذا فإن الله سبحانه يختم الآية بقوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أى يستخدمون عقولهم ، واستخدام العقل هو أساس القوة في هذه الأرض ، وخلال القرن الخامس عشر الميلادى وما تلاه ، تعلم أهل الغرب كيف يستخدمون العقل للوصول إلى أسرار القوة ، وأنت عندما تقرأ ما كتبه إبراهيموس وجاليليو جاليليو وميكلانجلو وفرانسيس بيكون وجون لوك وديفيد هيوم وآدم سميث وجون ستورانت ميل تشعر أنك أمام رجال تنبها إلى قوة العقل وقدرته على الكشف ، وهذا هو الحال مع الموسوعيين الفرنسيين من أمثال ديدرو والامبير الذين قاما على تحرير الموسوعة الفرنسية فيما بين سنتي ١٧٧٥ و ١٧٨٢ م ، وتلك الموسوعة الفرنسية حافلة بكل ما كان يعتبر في ذلك الزمان جديداً ، ولكنها اليوم أثر تاريخي ، أما أهميتها الكبرى فهي أنها كانت من الميادين الكبرى التى تعلمت أوروبا فيها كيف تفكر أو كيف « تعقل » إذا استعملنا مصطلح القرآن ، وهذا العقل قاد أوروبا إلى ما أذهل عالماً مثل عبد الرحمن الجبرتي المصرى الذى بهرته مكتشفات الفرنسيين ومخترعاتهم التى عرضوها عليه وعلى غيره من علماء مصر في عصره ، فقال : وهذه أمور لا تفهمها عقول أمثالنا ، مع أنها كلها كانت مخترعات بسيطة ناتجة عن تجارب بدائية في الفيزياء والكيمياء والميكانيكا ، ولو أننا قرأنا القرآن قراءة تدبر وذكرنا أنه خير دليل للمسلم للسعادة في الدنيا والآخرة ، لو أننا فعلنا ذلك لما سبقنا من الأمم سابق في ميادين العلوم والمعارف .

وفى سورة الرعد هذه من الاستحاثات على التفكير والتجريب فى مبادىء العلوم ما كان كفيلاً بأن يجعلنا رواد العلوم فى تاريخ البشر ، وقرأ قول الحق سبحانه فى هذه السورة : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًّ وَانْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنَيْنِ . يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد ١٣ / ٣] .

ثم تلا ذلك الآيات التى ذكرناها آنفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه ، إن هذه آيات لقوم يتفكرون ، وهناك يقول إنها آيات لقوم يعقلون ، والفكر هو وظيفة العقل ، ويعنى ذلك أننا عندما نقرأ أمثال هذه الآيات فإن علينا أن نتعمل ونفكر لكى نتنبه إلى ما فيها من إشارات إلى أسرار الكون ، لأن الله أعطانا العقل لنفكر به ، والفكر ميزة الإنسان الكبرى وسلاحه الذى يمكن له من حل مشاكله ومواجهة معضلات الحياة .

فأنت مثلاً إذا قرأت هذه الآيات وسألت نفسك : ما الذى يجعل شجرة التين تخرج ثمراً حلواً ، فى حين جارتها شجرة الزيتون تخرج ثمراً مرّاً ، مع أن الأرض واحدة والماء واحد ؟ فهنا يجيب ذهنك : إنها البذرة أو الشتلة ، فلننظر فى أمر البذرة ومم تتكون . هنا يبدأ التحليل والبحث ، وهذا هو ما فعله واحد من أكابر النباتين فى تاريخنا العلمى وهو ابن العوام الأشبيلي . فقد كان هذا الرجل عالماً نباتياً بارعاً ، أفنى عمره كله يفحص الأرض والتربة ويحللها على قدر مامكتته الظروف التى كان يعيش فيها فى أشبيلية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى . وعندما تقرأ كتاب النبات من تأليفه تحس بالاحترام لهذا العقل العلمى المرتب المنظم الذى دفع صاحبه إلى تحليل التربة ، فكان يأخذ بضعة من تراب الأرض ويضعها فى الماء ويحركها ليرى ماذا يذوب فى الماء منها ، ويقول : هذه تربة حلوة وتلك تربة مالحة . وهذه تصلح لزراعة كذا وتلك لكذا ، وفى كتابه من التوجيهات للزراع ما لا يقل فى شىء عما تقرأ فى كتب

الزراعة اليوم .

قلت لك إن سورة الرعد يمكن أن تسمى سورة العلم أو العلوم لكثرة ما فيها من الآيات التي تحرك ذهن قارئها إلى التفكير في الخلق وأسرار الله فيه ، وكلها أسرار لا تلبث أن تنكشف عن حقائق إذا نحن ملكناها زدنا قوة ، وأقرأ قوله تعالى في نفس السورة :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَمَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٣ / ١٧] .

فهنا نجد مثلاً من أسلوب القرآن في فتح أذهاننا على أسرار القوة في خلق الله ، هنا نرى السيل الرابى المتدفق الذى يحمل كل شىء في طريقه ، فهو إذن قوة يمكن استخدامها في توليد الطاقة بدليل ذكر الله بعد ذلك لما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ، فكان الله يقول لك : فكر في العلاقة بين قوة الماء المتدفق وقوة النار ، وهذه الإشارة تكفى لكى تدفع الذهن إلى التفكير في القوى المحركة للأشياء في هذه الأرض ، وهنا أذكرك ببدايات الكشوف العلمية الكبرى كالكهرباء مثلاً ، فإن بنيامين فرانكلين الأمريكى كان من هواة تطيير طائرات الورق التى يطلقها الصبيان في الهواء ويمسكون بها بخيط طويل ويمجرون بها لكى تزداد في الهواء ارتفاعاً ، ولكن فرانكلين كان يصنع طائرات ورقية كبيرة يمسكها بخيط من السلك الرفيع ، فكان إذا اكفهرت السماء وتلبد الجو أحس بتيار كهربائى خفيف فى أصابعه فعلم أنها كهرباء الجو التى تصل أحياناً إلى قوة الصواعق ، أليس تحزنى إلى إشارة الله التى ذكرناها إلى إنشاء الله سبحانه للسحاب وتسييح الرعد بحمده . . ألسنت ترى فى هذا كله ما كان يمكن لعالم

مسلم من الاهتداء إلى سر الكهرباء والتفكير في تطويرها لخدمة الإنسان ؟ وهذا هو الذى فعله بنيامين فرانكلين ، فقد انتقل بعد ذلك إلى إنشاء الكهرباء من عجلتين تدوران في اتجاهين متعاكسين ، وتوصل بالفعل إلى الحصول على تيار كهربائى قصير المدى ، ثم جاء غيره من بعده فبدأ من حيث انتهى ، واتصل بالبحث والكشف بعد ذلك حتى وصلنا إلى ما ترى من الدور العظيم الذى تقوم به الكهرباء فى حياتنا اليوم .

ذلك أن الله سبحانه أعطى الإنسان العقل لكى يستخدمه فى حل مشاكله فى حياته على الأرض ، والعقل قوة كبرى ذات طاقات مختلفة ، فالعقل يحفظ وأنت عندما توجه قوة عقلك إلى الحفظ والاستظهار فأنت تقلل من قدرته على الحركة والاستنتاج والاستكشاف ، لأن العقل يتحول عند ذلك إلى عضلات ضخمة كما يحدث لجسد الذى يدرّب جسده على رفع الأثقال ، ومن هنا فإن العقل الحافظ غير قادر على الحركة السريعة النشيطة التى هى ميزة العقل المفكر والمبتكر ، وتدريب الذهن على الحركة السريعة المبتكرة هو خير استخدامات الفكر ، وهذا هو الذى ينبغى أن تفعله المدرسة ، ولهذا فإننا نقع فى خطأ جسيم عندما ندفع أولادنا إلى استظهار الكتب والمذكرات ليجتازوا الامتحانات وهم يجتازونها فعلاً ولكن أذهانهم تثقل وتجمد وتصبح عاجزة عن الابتكار .

ومذهب القرآن الكريم فى حث الذهن على التفكير والتفطن يأخذ طريق الحركة السريعة ، فهو كما رأيت فى آيات سورة الرعد يدعونا إلى العقل أى إلى استخدام العقل والتفكير فى شئون الكون لنصل إلى أسرار القوة فى خلق الله ، وله فى ذلك طرائق جميلة ، إذا نحن تنبهنا إليها زدنا إيماناً بهذا القرآن العظيم ، وتأمل قوله تعالى فى سورة فاطر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا

الوانها ومن الجبال جدد بيضٌ وحُمْرٌ مُختلف ألوانها وغرايبٌ سودٌ .
ومن الناس والدواب والأنعام مُختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من
عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴿ [فاطر ٣٥ / ٢٨ - ٢٩] .

فهنا في هذه الآية ذكر للكثير من إبداعات الله في خلقه ، هنا ذكر للمطر
الذى يهبط على الأرض ويخرج الثمرات ذات الألوان المختلفة ، وهنا ذكر لألوان
الجبال ما بين أبيض وأحمر داكن وأسود ، وهذه الألوان تنأت من عروق المعادن
وأكاسيدها ومركباتها ، وهنا ذكر لعظم خلق الله من أصناف البشر والدواب
والأنعام ، وبعد ذلك نقرأ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وتسأل
لماذا جاء ذكر العلماء هنا ؟ لقد سبق أن قلت أن لا شيء في القرآن يأتي مصادفة
أو دون تقدير دقيق ، لأن القرآن كلام الله ، وكل شيء فيه بحساب ، ومادام
هذا هكذا فلا بد أن الله أتى بذكر العلماء هنا وقرر أنهم هم الذين يخشون الله لكى
ينبه أهل الفكر إلى تأمل خلق الله واستخراج الأسرار منه ، فإذا وقفوا عليها زادت
خشيتهم لله لما يرون من بديع خلقه ، فهنا توجيه لأهل الفكر إلى النظر والبحث
ليكونوا علماء ، والعلماء هم أعرف للناس بجلال خلق الله ، ولهذا فهم أشد
الناس خشية له . وكان ينبغي أن تكون هذه الآية لافتة لأذهان أهل العلم للاتجاه
نحو البحث في الجبال مثلاً سعياً وراء استكشاف المعادن واستخراجها من
الجبال وتخليصها من مركباتها ، والمعادن كما نعرف أساس الصناعات العظيمة ،
والمسألة كانت يجيء شيئاً فشيئاً ، وكل صاحب علم يكتشف شيئاً ، ثم نجىء
غيره ويضيف شيئاً ، وهكذا يعو صرح العلم وتتوافر للأمة أسباب القوة ، وفي
تاريخنا العلمى كثيرون نظروا وبحثوا وكشفوا ، ولكن العلم تراكم ، وأبو الريحان
البيرونى الذى وصل إلى نظريات علمية بعيدة يقف وحده في تاريخنا الفكرى ،
ولو أنه وجد من يأخذ ما وصل إليه ويدرسه ويجرى التجارب للتأكد منه ثم يزيد
عليه ما استطاع لكان حالنا اليوم غير الحال ، لأن الذين وصلوا إلى أسرار العلوم

وقواها من أهل الغرب ووصلوا ببلادهم إلى الصدارة لا يتميزون عنا في شيء ، بل نحن ملومون لأن الله أعطانا هذا القرآن العظيم وفيه مفاتيح القوة كلها ، وكنا حريين أن نصل بها إلى قيادة الدنيا لو أننا قدرناه حق قدره ، وعرفنا كيف نفيد منه ونصل عن طريقه إلى قيادة أمتنا في معارج القوة والخير .

فالقرآن الكريم إذن مفتاح العلوم لأنه مفتاح العقول ، وعندما نقرأ قول الحق سبحانه في سورة يونس : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس ١٠ / ١٠١] .

يتقرر في أذهاننا أن الإسلام دين العلم ، فهنا ربط واضح بين الإيمان والعلم ، فإذا لم ينظر الإنسان في السماوات والأرض ويتفكر في روائع خلق الله وما تظمه من حقائق علمية فلن تغني عنه الآيات والنذر ، ولن يصل إلى الإيمان الصحيح قط ، لأنك إنما تؤمن بالله لما ترى من بدائع صنعته . ولن تصل إلى معرفة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكرت لتبتفتح أمامك مغالبي أسرار القوة في ذلك الكون الذي تعيش فيه ، حقاً إن القلب المؤمن مؤمن ، ولكننا في أمة الإسلام في حاجة إلى أهل العلوم الذين يتأملون ويفكرون ويستكشفون لكي يصلوا بأمة الإسلام إلى درجات القوة والرفعة ، واقرأ معي قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٥] .

أجل . فإن الإنسان يكفيه أن يتأمل في ملك السماوات والأرض وما خلق الله فيها من عجائب المخلوقات لكي يؤمن بالقرآن ورب القرآن ، فإذا آمن ودخل في أمة الإيمان كان عليه بعد ذلك أن يمضي مفكراً متديراً في بدائع خلق

الله لكى يزداد إيماناً ، وهو فى أثناء ذلك يكشف ويضيف بعلمه إلى قوة عالم الإسلام ، فيعز أهل عالم الإسلام بالعلم ، وهذه العزة تجذب الناس إلى دين الله لأن الناس يحبون القوة والعزة ، وكان رسول الله ﷺ يعلم ذلك ، وطوال حياته لم يدخل وسعاً فى تقوية أمة الإسلام ، واقرأ قول الحق سبحانه فى سورة الروم :

﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

[الروم ٣٠ / ٨] .

وهنا يلفت الله أنظارنا إلى عجائب خلق أنفسنا ، لأننا نادراً ما نفكر فيها ، ولابد لنا من أن نفكر فيها ، ثم ننظر فى الكون لنرى أنه سبحانه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، أى بغاية الدقة ، ثم إن هذا الخلق كله مخلوق بأجل مسمى أى بحساب زمنى مقرر ، فكل شئ أجله وميعاده ، وإذا لم يتفطن الإنسان إلى جلال ذلك كله لم يشعر بروعة لقاء الإنسان لربه يوم الحساب .

ولست أريد أن أقول بذلك إن القرآن الكريم كتاب علم أو علوم وحسب ، لأن القرآن أعظم من ذلك وأرحب مدى ، فهو كتاب كل شئ فى هذا الوجود ، ولكنى أريد أن أقول إن الاكتشاف والاختراع ، لأن كل أسرار القوة مودعة فيها حولنا من خلق الله ، وعلينا أن نسعى إلى الوصول إليها وتملك أسرارها لأن أمة الإسلام لن تكون جديرة بالإسلام إلا إذا كانت قوية عزيزة ، لا يغلبها من البشر غالب بفضل قوتها وتماسكها واستحواذها على أسرار القوة .

ولله سبحانه أساليب شتى فى تحريك الأذهان لا يتفطن إليها إلا من قرأ القرآن قراءة تفكير وتأمل عميق ، فإن البارى سبحانه يأتى فى القرآن بآيات تشير كلها إلى عجائب الخلق وهى ساكنة لا تتحرك مثل قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية ٨٨ / ١٧ / ٢٢] .

فهذه كلها معجزات كونية يدعوننا الله سبحانه إلى أن نتأمل عجائبها وهي ساكنة ، نعم إنها كلها تتحرك ولكننا مدعوون هنا إلى أن نتأملها ونتفكر في عجائبها وهي ساكنة أمام أبصارنا ، ويذكر الله هنا الجمل وهو عجيبة أى عجيبة فقد ارتبط الجمل بالعربي حتى إن أحد لا يشك في أن جزيرة العرب هي موطن الجمال ، وما أبعد هذا عن الحقيقة ، فإن مهد الجمل كان في جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية في نواحي جمهورية بيرو ، هنا نجد إلى يومنا هذا توأمة الجمل وهما اللاما والألباكا ، واللاما على وجه الخصوص جمل بدون سنام ، وهي مع الألباكا تعيش على سفوح جبال الأنديز وفي الهضاب العالية منها ، وهناك عثر العلماء على أول ما عثروا عليه من آثار الجمال الأولى ، وكانت الجمال هناك صغيرة في حجم اللاما (ينطق الناس اسمها هناك اللياما) والألباكا وهي حيوان يشبهها ولكن فروه غزير الشعر ، والجمل بطبعه حيوان نفور أى يميل بطبعه إلى الانفراد بنفسه ، وكان شديد الخوف إذ لا سلاح له ، فارتفع بنفسه في أعالي جبال الأنديز ، ثم اتجه إلى الشمال في رحلة طويلة قضى فيها ملايين السنين ، ولكن الباحثين عثروا على حفائره على طول طريقه ، فقد انتهى من أمريكا الجنوبية ودخل أمريكا الوسطى وقطعها حتى وصل إلى صحراء نيفادا في الولايات المتحدة ، وكان ذلك قبل ملايين من السنين ، وهناك في الصحراء تبجح الجمل واطمأن ، فقد وجد البيئة الآمنة التي كان يطلبها : صحراء واسعة لا يعمرها من كواسر الحيوانات أو من الناس أحد ، فقضى ألوف السنين ظهر فيها خفه الغليظ الذي يمكنه من التوغل داخل رمال الصحراء ، وهناك أيضاً تطورت معدته ونشأ له شيئاً فشيئاً جهاز اختزان الماء ، والجمل لا يخزن الماء في

معدته ماء ، بل هو يتحول إذا شربه إلى مادة هلامية تحتزن في شرايينه في كل جسده ، وهو إذا احتاج إلى الماء استخرج منها ما هو بحاجة إليه ، أما ما يقال من أن من يريد أن يقطع أرضاً صحراوية أخذ جمالاً وسقاها الماء حتى تمتلئ أجوافها ثم دخل بها الصحراء ، فإذا احتاج إلى الماء ذبحها ليشرب الماء الذى فى بطونها فغير صحيح ، وخالد بن الوليد لم يقطع بجيشه صحراء الشام الواسعة بعرضها لأن قطعها كان يحتاج إلى أسبوعين ، وإنما هو سار من عين التمر إلى الشمال محاذياً نهر الفرات حتى وصل إلى أضيح ساحة من ساحات الصحراء ، فقطعها ثم انحدر إلى الجنوب حتى وصل إلى بصرى .

ونعود إلى الجمل فنقول إنه عاد يسير إلى الشمال حتى وصل ألاسكا ، ومن هناك عبر إلى آسيا - سيبيريا - ثم أخذ ينحدر إلى الجنوب حتى وصل صحراء جوبى شمال الصين ، وهناك فى عمق الصحراء استكمل تكوينه وقضى مئات الألوف من السنين ، وكبر حجمه ، ونشأ منه صنف ذو سنامين ، وهى الجمال التى يسميها العرب بالبختية ، ونما حجمه ، وهناك استأنسه الناس واستخدموه ، وهاجرت جماعة من ذات السنام الواحد إلى شمال الهند ، ثم إلى جنوب العراق ، ووصلت إلى أبواب جزيرة العرب ، وهناك استأنس الناس الجمل ، ودخلوا به الصحراء أيام العرب العاربة ، وبالجمل استطاع الإنسان أن يسكن الصحراء ويعيش فيها ، لأن الجمل إذا وجد الماء شرب دفعة واحدة ما يقرب من مائة وخمسين لتراً من الماء ، وهو لهذا يستطيع الصبر بدون ماء فوق السبعة عشر يوماً ، وهو حيوان قوى صبور يستطيع أن يسير أياماً طويلة وينام وهو سائر على حذاء الحادى ، وكل ما فيه مفيد : وبره صوف ناعم كالحرير ، ولحمه طرى ، ولبنه وفير . وهو أنيس حسن العشرة ، ثم إن حضارة البدو كلها تقوم عليه فهو يأكل أقصى حشائش الصحراء ويعطى لبناً وافرأ يعتمد عليه البدو فى حياتهم ، رأيت إذن لماذا قال الله : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ

﴿ خلقت ﴾ ؟ ثم يلفت الحق سبحانه نظرنا إلى السماء وما تضمنه من العجائب ، والسماء في اللغة هي كل ما علاك وأظلك ، ولكنها في خلق الله سماوات كثيرة ، وانظر إلى السماء في سواد الليل وتعجب لهذه القبة العظيمة وما فيها من شمس ومجرات ومساحات سود يظن أنها مواضع شمس ماتت وانحلت وذهبت كواكبها وأقمارها وبقي مكانها خالياً ، وكل شمس من تلك التي تراها إنما هي مجموعة شمسية بكواكبها التي تدور على مثال مجموعتنا الشمسية هذه ، ومن يدري فربما كان في كل مجموعة شمسية أرض وفي كل أرض ناس مثلنا ، ومن يدري فربما كان في كل أرض إنسان مثلك .

ثم يلفت الله نظرنا إلى هذه الأرض التي سطحت وما هي في الواقع مسطوحة ، ولكن هكذا تبدو لنا بجبالها وبحارها ووديانها وما يعيش فيها من إنسان وطائر ودابة وسمكة وحشرة ، والقرآن لا يلفت نظرنا إليها لنراها ، فها هي ذى ماثلة أمام أعيننا ، ولكنه يدعونا إلى التأمل في عجائبها والنظر في بديع صنعها والبحث عما يمكن أن يخرج لنا منها من الخيرات .

وفي سورة البقرة يرينا الله عجائب حركة الكون ، في الآيات السابقة نرى روعتها وهي ساكنة ، وهنا نرى إبداع الكون المتحرك .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٤] .

فها هنا جانب أو جوانب من حركة هذا الكون الذي لا يسكن ، حركة يبعثها الله بأمره فهي متصلة منذ برأ الله الكون إلى أن يطوى الأرض وما عليها ، والحكمة الكبرى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . والمهم

هنا هو العقل والتفكير . منهما يخرج الإنسان بالمعلومات التي يديرها في ذهنه ، ومن ذلك تتأتى المكتشفات والمخترعات ، لأن الإسلام دين العلم ، وأنت مهما تقرأ في القرآن وتتدبر فيما تقرأ فأنت في عالم علم وابتكار واختراع .

إن بعض أذكىاء معاصرينا ينظرون في القرآن ثم يقولون : هنا يذكر الله نظرية التطور ، هنا إشارة واضحة إلى كروية الأرض ، وهذا كله طيب ومشكور ولكنه كان يكون مشكوراً أكثر لو كنا نحن على هدى القرآن أصحاب هذه الكشف لا مجرد متحدثين عنها .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا
مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ
مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم .

[يس : الآيات ٣٣ - ٣٥]

في حديثنا الماضي تكلمنا عن العلم والتزام المسلم المؤمن بطلبه ، لأن
الإسلام دين عقل وفكر وعلم ، وهذه المرة نتحدث عن العمل بصفته العماد
الأساسي لرخاء أمة الإسلام وتقدمها وقوتها ، والركن الأساسي لتكوين شخصية
الإنسان .

وقد كنا نستمع إلى آيات الذكر الحكيم عندما قرأ القارئ قول الحق
سبحانه في سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢/٣٣﴾ ، وسأل سائل ماهي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبينها وأشفقن من حملها ؟ وقال قائل هي العبادات ! قلنا : ولكن السموات والأرض والجبال تسبح لله ، وهذه عبادتها ، فكيف يشفقن منها ؟ وقيل آراء أخرى ، وانفض السامر وعدت إلى بيتي وصليت العصر ، ثم تناولت المصحف أقرأ فيه فقرات الآيات التي جعلتها في رأس هذا الحديث ووجدت نفسي تقول لنفسي : إن الله يتحدث في آيات سورة يس تلك عن عُمران الأرض بالعمل ، فقد خلق الله الأرض ساكنة ، ثم أنزل عليها المطر وجاء الإنسان فزرع الحب ، ليأكل من ثمره ، لأن الله يتحدث هنا عن جلائل صنعه التي يجريها على أيدي الناس بدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

فإن الله سبحانه يفجر العيون وينزل الماء ، ولكننا نحن الذين نزرع لنأكل مما عملته أيدينا ، لأن العمل هو واجبنا وعمران الأرض هو أمانتنا ، ونحن الذين قبلناها ، والله سبحانه قد خلقنا لنعبده ، والعمل في عمران الأرض عبادة والذين يعملون أسعد وأقوى من الذين لا يعملون ، والعمل عسير وصعب ، ولكننا قبلنا أمانته دون أن نفكر في مصاعبه وعلينا الآن أن نعمل لأننا التزمنا به لعمران الأرض .

وما قيمة الحياة أو معناها بدون عمل وكسب ؟ وكيف يصل الإنسان إلى شيء إذا هو لم ينهض ويسع في رزقه ورزق عياله ؟ إن العبادات واجبة وهذا حق ولكن الله حدد هذه العبادات وجعلها هينة لا تستغرق من وقت الإنسان إلا شيئاً قليلاً ، فما عساه يفعل بالبقية ؟ هذا بين يدي كتاب رسالة التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد ، وهو أبو سعيد بن أبي الخير الميهني وهو واحد من كبار صوفية إيران في العصر الساماني في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي

وكان يرى نفسه ولياً صاحب كرامات ، لانه فيها يزعم وهب نفسه للعبادة والوعظ والتف حوله دراويش كسالى لا عمل لهم إلا الطعام والنوم وأداء العبادات وشيء من الذكر والاستماع إلى الشيخ أبى سعيد والسير في موكبه ، وفي أخبار هذه الجماعة من المتعطلين الذين لا يقومون بأى عمل نافع لأنفسهم أو للناس حتى العبادات يقومون بها لإرضاء الشيخ أبى سعيد ، في هذا ما يدل بالبرهان العمل على أن نفس الإنسان لا تصلح إلا بالعمل ، فهو الذى يشحذ الهمم ويجلو الذهن ويقوى الإحساس بالفضائل ويعلم المهارات ، وإليك هذه الحكاية التى اخترتها من حكايات ذلك الشيخ العاقل وجماعته من المتبطلين :

« روى أنه جاء وقت في ميهنة (القرية التى كان هذا الشيخ وأتباعه يعيشون فيها قرب نيسابور) لم يتناول فيه الصوفية لحماً لعدة أيام ، ولم يكن حسن (خادم الشيخ) يستطيع إحضاره ، لأن جميع القصابين كانوا يطلونه بأثبان لحومهم ، وفي ذات يوم نهض الشيخ وسار الجميع في رفقة حتى خرج من البوابة المؤدية إلى طريق مرو ، وأصبح على هضبة بصحراء مرو ، وعندما كانت تعترى الشيخ حال من القبض (أى من الضيق) كان يذهب إلى ذلك المكان ، ولما اعتلى الهضبة وقف وتريث برهة وظهر غزال في الصحراء ، ثم تحكى القصة كيف تقدم هذا الغزال من الشيخ أبى سعيد ، وجعل يتمرغ في الأرض كأنه يرجو الشيخ أن يأمر بذبحه لياكل الدراويش ، وفعل الشيخ . وتختتم الحكاية بعبارة ، وتمتع الدراويش بلحم ذلك الغزال ، وهذه من أبسط حكايات هذه الجماعة المتعطلة التى زعمت أنها تعيش للعبادة فأصبحت جماعة من المسؤولين يفرضون أنفسهم على الناس ، ويطالب لهم شيخهم « باللحم والفطير وعليه التفكير » لكى يظلوا حوله يسبحون بحمده ، وهو يتهادى وسطهم كأنه ملك زاعماً أن له عند الله كرامة ، وأن الله يكشف له الغيب ويرسل إليه وإلى أتباعه المال والثياب

وأطايب الحياة ، وهم يسرون وراء شيخهم كسالى متبلدين ولا خير فيهم لأحد .

وكما أن الإسلام دين العلم ، فهو كذلك دين العمل ، لأن العمل الذى يتحصل للإنسان عن طريق الدراسة والبحث والتجريب ، يفتح لصاحب العلم طريق العمل النافع ، والعمل كسب وكرامة وعزة ، وقد كانت أوروبا فى مثل حالنا من قلة الموارد والحاجة حتى قامت النهضة الأوروبية وتحرك نفر من الناس إلى التفكير والبحث والتجريب ، وتحركت همم ناس أمثال ميكيلانجلو إلى العمل بأيديهم وفتحوا للناس آفاقاً واسعة للعمل ، واجتهد رجال مثل لوفن هوك الهولندى فصنعوا العدسات ، ونحن كنا نعرف العدسات ونظرياتنا واشتغل بأمرها الحسن بن الهيثم ، وألف فيها وفى البصريات كتباً ، وهو من أعظم أهل العلوم فى التاريخ ، ولكن الحسن بن الهيثم كتب ورسم واجتهد فصنع عدسات ولكنه لم يصنع كما صنع ذلك الهولندى لوفن هوك أى أنه لم يحول العلم إلى عمل ، ومن هولندا انتقلت العدسات إلى إيطاليا ، واشتغل بأمرها ميكيلانجلو وجاليلو وصنع جاليليو منظاره البعيد ونظر إلى الشمس والكواكب وجاء بعده كوبرنيق فصنع منظاراً ضخماً وتأمل الكواكب ، وجعل ينظر به فى السماء فتكشفت له الحقيقة الكبرى التى بدأت فى تاريخ الفلك والعلم كله عصرأ جديداً : رأى أن مركز هذا الكون هو الشمس لا الأرض ، وأخذ هذا الكلام جاليليو وطار به وجعل يذيعه فى الناس وأمسكت به الكنيسة وحاكمته وأرغمته على أن يكذب نفسه ويرجع عن كل ما قال ، وفعل ذلك علناً أمام الناس حتى لا يجرّوه ، ولكن أبواب العلم كانت قد تفتحت ولا سبيل إلى إغلاقها ، ومع العلم سار العمل واكتشفت أوروبا قيمة العمل القائم على العلم وقامت المعاهد والمدارس والمصانع فى كل مكان ، وسار أهل العلم فى الطليعة ووصلوا فى النهاية إلى ما نراهم عليه اليوم ، وكل الفرق بيننا وبينهم فرق علم

وعمل ، إنهم يؤمنون بالعلم إيماناً تاماً ، وإيماننا به قليل ، إنهم يؤمنون بالعمل الجيد المتقن ، ونحن لم نصل بعد إلى هذا الإيمان ، والعلم والعمل وصلابهم إلى القوة والصدارة والامتياز والحياة الأحسن ، ونحن نسير وراءهم ولا نسبة بين مانحن فيه وما هم فيه ، مع أن الإسلام يؤكد لنا أن العمل هو أساس الحياة الطيبة ، واقرأ قول الله سبحانه في سورة النحل : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ ذَكَرْ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل ٩٧ / ١٦] .

فهنا يفصل الله أمر العمل الصالح بأجل بيان ، فهو عمل كسب المعاش بدليل قوله تعالى هنا ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وهذا طبعاً من كسب عمل اليد في الدنيا وهو غير عمل العبادة ، بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فهذا جزء أعمال التعب ، وقد سبق أن ذكرت لك أن الله خفف عبادات الإسلام حتى أصبح الواحد منا يقوم بكل عباداته بفرائضها ونوافلها فلا يتفق في ذاك إلا أيسر الوقت ، ويتسع أمامه المجال بعد ذلك ليقوم بأعمال معاشه ويكسب رزقه على قدر ما يعمل فنحيا حياة طيبة رحية سعيدة ، ثم إن في القرآن من مفاتيح العلوم والأعمال ما يتعذر حصره إذا نحن قرأنا القرآن فعلاً قراءة تمعن وتفكير وتدبر ، وخذ مثالا لذلك قول الحق في سورة الحجر :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سَكْرَاتُ أَبْصَارِنَا بِئِلْ نَحْنُ قَوْمٌ مُسْحُورُونَ . وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .

[الحجر ١٥ / ١٧-١٤] .

ثم سألنا أنفسنا : لماذا يقول الله هنا يعرجون بدلا من يدخلون ؟ فإذا مضينا

نستقصى حقيقة ذلك نلاحظ أن القرآن يستعمل لفظ « عرج بعرج » وما يتصرف منه في معظم مناسبات الصعود إلى السماء فنقرأ في سورة المعارج : ﴿ سَأَلِ السَّائِلَ بِالْعَذَابِ وَقَعٌ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ ﴾ .

[٧٠ / ١ - ٤]

فإن الله سبحانه يصف نفسه هنا بأنه ذو المعارج . جمع معارج والملائكة تعرج إليه سبحانه . ويقول في سورة سبأ : [٣٤ / ٢]

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ ﴾ [٣٤ / ٢] .

ويقول في سورة الحديد :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [٥٧ / ٤] .

فإذا رجعنا إلى القواميس نجد أن لسان العرب مثلاً يقول في مادة « عرج » : وعرج في الدرجة والسلم يعرج عروجاً أى ارتقى ، وعرج في الشيء وعليه يعرج ويعرج عروجاً أيضاً . . وفي التنزيل : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ۝ ﴾ أى تصعد ، عرج يعرج عروجاً وفيه : من الله ذى المعارج ، المصاعد والدرج ، قال قتادة : ذى المعارج ذى الفواضل والنعم . وقيل : معارج الملائكة مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها ، وقال الفراء : ذى المعارج من تحت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك . . والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى فيه الملائكة ، والمعراج شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . يقال : ليس شيء أحسن منه إذا رآه الروح لم يتمالك أن يخرج . . إلى آخره ، وهذا كله كلام طيب ، ولكنه لا يجيب عن سؤالنا : لماذا

يقال في الصعود إلى السماء إنه عروج ؟ ثم إن العروج ليس مقصوراً على الأرواح والملائكة ، فرسول الله ﷺ عرج به إلى السماء ، وصعوده إلى السماء هو المعراج المعروف .

فإذا نحن فكرنا في الأمر على ضوء ما وصل إليه أهل العلم في زماننا في صعودهم إلى السماء ، وجدنا أنهم يعرجون عندما يصعدون ، فإن المركبة الفضائية إذا انطلقت في خط مستقيم لم تلبث أن تنعرج وتدور في اتجاه دوران الأرض حول نفسها موسعة خط دورانها شيئاً فشيئاً حتى تخرج من الغلاف الهوائي ، ثم تمضي في الفضاء في طريقها إلى غايتها في خط منعرج أيضاً ، والمراد منحني ، وعندما وصلوا إلى القمر دارت المركبة حوله في اتجاه دورانه حول نفسه حتى إذا صارت على الارتفاع المحسوب عن سطحه هبط المحلقون إلى سطح القمر هبوطاً منعرجاً كما تفعل الطائرة في هبوطها على مدارج المطارات وصعودها منها ، واستمرت المركبة تدور حول القمر في انتظارهم لتعود بهم إلى الأرض ، لأن الخط المستقيم لا وجود له في الكون على المدى الطويل ، وهذه نظرية قررها أينشتاين من أوائل هذا القرن ، وإذن فكل شيء ينطلق من الأرض إلى السماء لا بد أن يسير في خط منحني حتى ينسجم مع حركة الكون ونظامه ، ولهذا فإن الملائكة تعرج إلى السماء ، وكذلك الأرواح ، والحق سبحانه ذو المعارج وهي الطرق منا إليه .

وهذا تفسير أرجو أن يكون مقبولاً ، وهو مأخوذ من عمل الآخرين ، وكان ينبغي علينا نحن - أهل القرآن والقبلة - أن نكون نحن مكتشفيه ، ولكن هذا لم يحدث ، لأننا لم نعمل مع أن ديننا دين عمل ، والقرآن لا يزال يبحث على العمل ورسول الله ﷺ لم يكن يضع لحظة من وقته دون عمل ، كان يتعبد ويصلي ويقرأ القرآن ويسبح ربه على نحو لم يصل إليه متعبد بعده ، وكان يجد بعد ذلك من الوقت ما يمكن له من القيام بأداء رسالته كاملة ، فأنشأ أمة المدينة بالجهد البالغ

والعمل المتصل مع التفكير الدائم ورسم الخطط المحكمة مع الهدوء التام وكمال الخلق وسعة الصدر والصبر على الناس ومتاعب العمل الدقيق المحكم .

وهذه كلها سنن كان علينا اتباعها والسير على منوالها إذا أردنا حقاً أن نصل بأمتنا إلى حيث كان ينبغي أن يصل بها الإسلام العظيم ، وهكذا فعل الصحابة رضوان الله عليهم ، فوصلوا بالأمة إلى حيث نعرف .

ونحن عندما نقول إننا نعجب بأبي بكر أو عمر أو علي رضوان الله عليهم ، فنحن في الحقيقة نعجب بالجوانب التي أخذوها عن الرسول ، وساروا عليها ، وأبو بكر في خطبته المشهورة التي بين فيها منهجه للأمة على مذهب الشورى قال : أما بعد فإنني وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبي ﷺ وعلّمنا فعملنا . إنما أنا متبع ولست بمبتدع . وهو هنا يقول إنه متبع للقرآن وما سن النبي ، ومع ذلك فإن اتباعه كان ابتكاراً كله ، أقصد أنه كان ابتكاراً في حدود القرآن وما سن الرسول ، لأن السنة ليست قيوداً ، وإنما هي طريق رسول الله ، أو طريقته في مواجهة المشاكل على هدى ما جاء في القرآن الكريم ، وكانت المشاكل التي واجهها الرسول وحلها أحسن الحل كثيرة جداً ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر ، فقد سارا في طريق العمل المتصل لما فيه خير الأمة ، وكان رسول الله ﷺ صاحب شورى ، ينزل به الأمر فيعرضه على أصحابه ، ويتصرف دائماً باتفاق معهم ، بهذا أمره سبحانه وعليه سار . وفي طريقه سار الشيخان ، وخلال عامين عالج أبو بكر أمر المرتدين ، ولم يكن معظمهم بمرتدين ، وإنما هو أبو بكر فسر التوقف عن إخراج الزكاة وإعطاء حق الله ورسوله انفصالاً عن الأمة ، ورأى أن إعطاء هذا الحق رمز للانتماء إلى الأمة ، فإذا ترك الناس أحراراً في أدائه أو عدم أدائه - وكان هذا رأى عمر - لم يلبث عقد الأمة أن ينقرض ، فإذا انقرض عقد الأمة تفكك أمر الإسلام وضعف ، ومن هنا رأى أبو بكر أن الممتنع عن أداء هذا الحق في مرتبة المرتد ، وعلى هذا التفسير استجاز حرب الممتنعين ،

وهذا كله ابتكار ، ولكنه ابتكار في نفس خط الرسول ﷺ ، وكذلك كان عمر يفسر ويبتكر على ضوء ما تعلم من القرآن ورسول الله . وكلاهما كان - على مثال رسول الله ﷺ - رجل عمل لا يتوقف عن الجهد لصالح الأمة لحظة من نهار أو ليل ، وهذا هو طريق الإسلام : طريق عمل واجتهاد متصل في الخط الذي رسمه القرآن وسار فيه رسول الله ﷺ .

وعندما تقرأ قول الله سبحانه في سورة النور :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۖ ﴾ [النور ٢٤ / ٥٥] .

نفهم المعنى الحقيقي لمصطلح الاستخلاف في الأرض ، فإن الله عندما يستخلف قوماً في الأرض ، لا يجعلهم بذلك مثليه ولا حالين محله . بل يمكن لهم في الأرض ويثبتهم في الدين الذي ارتضى لهم ويجهتدون في عمران الأرض ، وهذا بالضبط هو ما فعله رسول الله في إنشاء أمة الإسلام وتعمير وطنها بالعمل الدائب والتمكين لدينها في الأرض بالاجتهاد والاستعداد للتضحية في كل حين ، وكان رسول الله يعرف ذلك ولا ينساه لحظة ، ولهذا فقد كان دائب العمل ، وأمة المدينة التي ولدت بمجرد وصول رسول الله ﷺ إلى يشرب واجتماعه بالمهاجرين والأنصار بدأت ضعيفة جداً ، ولكن رسول الله وإلى العمل يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى اشتد أزرها وقام أمرها ، وكان ذلك بالعبادات طبعاً . وهي أولى الصالحات ، ثم كان باستصلاح الأرض وزرعها حتى تحصل المدينة على قوتها ، ومنذ اللحظة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن هذه الأمة لا بد أن تأكل أكلاً كافياً ليشتد عود أفرادها ، وهي لا تستطيع أن تعتمد في ذلك على غيرها ، فهي لن تلبث أن تدخل في معركة الحياة والموت مع كل معاند ومكابر . ولم يكن أهل

المدينة كلهم قد دخلوا في الإسلام بعد ، فكان هناك يهود ومترددون ومنافقون وناس كثيرون ينبغي أن يعطوا الوقت الكافي ليطلعوا على فضائل الإسلام وما يعود عليهم من الخير إذا هم دخلوا فيه ، ولكن العمل الأول الذي كان لابد من البدء فيه هو إيقاف تجارة مكة ، فإن مكة قوية بتجارتها ، وكبار أهلها قام جاهد على المال ، فهم لن يؤمنوا بالإسلام طواعية أبداً ، فلابد من الضغط على عنق الحياة المكية وهو طريق التجارة ، ولهذا بدأ الرسول بإرسال بعث إلى منازل قبيلة جهينة لإشعارهم بقيام أمة المدينة وضرورة الدخول في الإسلام أو في حلف المدينة على الأقل ، لأن التجارة المكية لابد أن تقف ، وطريق التجارة يمر في أرض جهينة من ذى خشب إلى ينبع ، وكان قائد البعث عبد الله بن جحش وكان من أجلاء المهاجرين ، ورئيس جهينة معبد بن عمرو الجهني يرى نفسه أمام قوة من المسلمين على أهبة القتال . وعبد الله بن جحش يطلب إليه أن يدخل في حلف أمة المدينة ، ويتوقف عن حماية متاجر مكة ، وكان معبد رجلاً ذكياً فأدرك في الحال أن عليه أن يطيع . فطلب إلى رسول الله أن يوثق موثقاً مع جهينة لتأمينه ويأمنها ، ورسول الله يستجيب ، وفي أثناء ذلك تحركت جماعة من كنانة كانت تنزل بأطراف أرض جهينة ، فأرسل إليها عبد الله بن جحش نذيره فرفضوا الاستجابة وطاردوا وفد المسلمين إلى أرض جهينة .

ويختلف أمر المسلمين على رئيسهم ، ويبلغ الأمر رسول الله ، فلا يرضيه هذا من المسلمين ، إذ لا يجوز أن يخرجوا من عنده متحدين ثم يقع الخلاف بينهم وبين عبد الله بن جحش أميرهم ، فهو واجب الطاعة ، ويعود البعث إلى المدينة وبعد قليل يفد معبد بن عمرو الجهني إلى المدينة ، ويلقى الرسول فيكرمه ويكسوه ولكن معبد الجهني لم يفهم الأمر على حقيقته فهو لا يزال على مودته مع القرشيين ، فيرسل الرسول ﷺ عمه حمزة في بعثة إلى سيف البحر وهذه أول سرية يذكرها أصحاب السيرة ، أما سرية عبد الله بن جحش فقد تبين لنا أمرها من

المطالعة الدقيقة لدلائل النبوة للبيهقي ، وكتاب شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام للنفاسي ، ويعود حمزة إلى المدينة وبعد قليل يرى رسول الله ﷺ أنه لا بد له من أن يحسم أمر جهينة بنفسه ، فيخرج في غزاته الأولى ووجهتها يواط في إقليم الفرع ويلقى معبد بن عمرو الجهني ويقول له : أتحب أن تنبذ إليك ؟ . ويدرك الرجل أن الأمر أخطر مما كان يظن ، فيقول لسنا بحاجة إلى حريك ، وهنا فقط يطمئن رسول الله ﷺ إلى أن الرجل فهم ، وأنه منذ الآن لا بد أن يقف إلى جانب المدينة ، ويدخل الجهنيون الإسلام أفواجا .

وهذا كله وما تبعه من غزوات وسرايا قبل بدر تم خلال أقل من عام من هجرة الرسول ﷺ إلى مكة ، وهو يدل على مقدار الجهد الذي كان رسول الله ﷺ يبذله للقيام بحق رسالته ، فإن الغايات لا تدرك إلا بالأعمال ، ورسول الله ﷺ رجل نشيط لا يطمئن له جنب مادام أمامه عمل لا بد أن يقوم به .

ففي أثناء هذه السرايا والمغازي التي كان يمهد بها للقاء الحاسم مع مكة كان يعمل دأباً في إنشاء أمة المدينة وتثبيت دعائمها بالعمل المتصل ، فهو يؤاخي بين المهاجرين والأنصار ، وهو يجتمع مع أصحابه ويشاورهم في تنظيم أمر الأمة على أساس قانوني واضح ، فإنه استقر في المدينة على أساس اتفاق بسيط عقد يوم العقبة الثانية ، وهذا الاتفاق هو بيعة العقبة الثانية ، وهي مجرد تعهد من جانب أهل المدينة باستضافة الرسول وحياته من العدوان ، ولكن محمداً صلوات الله عليه غيّر الموقف تغييراً حاسماً خلال الشهور الأولى لهجرته إلى المدينة ، فهو لم يكن قط مهاجراً إلى المدينة ، بحثاً عن مكان يأمن فيه على نفسه وجماعته ، ويأمنون فيه عباداتهم دون تعرض من جانب المكين ، لقد هاجر لغاية أخرى أعظم من ذلك بكثير ، إنه يريد أن ينشئ أمة الإسلام ويشد عضدها ويقوى بنائها لتقوم بالعمل العظيم ، ومن ثم فهو يريد أن يستبدل بيعة

العقبة الثانية اتفاقاً أكبر وأشمل لتقوم عليه الأمة الإسلامية ، وهذا الاتفاق لا يمكن فرضه ، بل لابد أن يكون بتفاهم ورضا من الأمة ، ومن هنا تبدأ المفاوضات التى تنتهى بالصحيفة التى أُملى رسول الله جزءها الأول على بن أبى طالب كاتب الوحي إذ ذاك ، وبعد قليل ومع نمو الأمة يكتب الجزء الثانى بعد بدر ، والثالث بعد أحد ، ثم تستكمل المواد بحسب الظروف بعد ذلك .

وفى أثناء ذلك يجرى العمل على قدم وساق داخل المدينة ، فيقوم مسجد رسول الله ﷺ وتنشأ المنشآت ، وكل هذه الأعمال الصالحات التى تذكرها الآيات الكريمة ، وبها تستحق أمة الإسلام الاستخلاف ، لأن الاستخلاف فى الأرض معناه تأييد الله سبحانه للأمة الصالحة التى تقوم بأمانة الإيمان السليم ، وتقوم بأمانة تعمير الأرض ، فإله سبحانه خلق الأرض لعباده الصالحين لتعميرها ، وهو سبحانه قد منح الإنسان العقل ليستخدمه فى الطاعة لرسوله واتباع طريقه والدخول فى دينه عن قلب واع مدرك ، ثم تقوية هذه الأمة بالعمل الصالح لتعمير الأرض حتى تكون بلاد أمة الإسلام أجمل وأرقى أمم الأرض ، فيكون هذا الجمال وذلك العمران أنصع دليل على فضائل الإسلام .

وكانت هذه المعانى كلها فى ذهنى ، ولكنى قرأت خلال العام المتقضى قراءات طويلة عن الاستعمار وماذا فعله المستعمرون ببلاد الإسلام ، والكثير من الكتب التى قرأتها كتب مصورة ، وتصاويرها رسمها رسامون زاروا بلادنا أثناء عصر التوغل الاستعماري ، بعضهم كانوا مصاحبين للجيش الأوربية المعتدية ، وهؤلاء المصورون رسموا ما رأوا من مناظرنا ومناظر بلادنا ، وأصارحك القول بأننى شعرت بالحجل وأنا أنظر إليها ، فإن مناظرنا قبل عصر الاستعمار كانت مزرية جداً ، وفقر بلادنا كان شديداً ، ومدينة الاسكندرية التى كان ينبغى أن

تكون أعمر وأجمل وأغنى من لندن ، كانت قد تدهورت حتى أصبحت قرية لا يسكنها إلا خمسة آلاف إنسان ، وكل ذلك نتيجة للكسل والقعود عن العمل وظلم الحكام ، وكل هذه أمور ليست من الإسلام في شيء ، فإن العبادات في رأس الصالحات ولكنها ليست كل الصالحات ، فالدراسة والتعليم والبحث والابتكار والعمل لما فيه خير الإنسان وجماعته صالحات ، ولقد فهمت وأنا أتأمل هذه الصور لماذا جُبروا علينا واقتحموا بلادنا وهزمونا بأيسر مشونة ، والممالك الذين صور لهم غزوهم وجهلهم أن لا قوة في الأرض تقف أمامهم تبددوا في معركة لم تستغرق أكثر من ساعة ، والأهرام تنظر إليهم وتتحسر على أحوالهم ، وعندما دخل الفرنسيون القاهرة ونزل رئيسهم نابليون بونابرت في دار واحد من كبار الممالك دهش من الفقر الذي رآه ، فهو يأتي من بلاد فيها قصور ملكية ترويع النفس بهجة وجمالاً وغنى ، فإذا بقصر هذا الرئيس المملوك الكبير أقل بكثير من دار ضابط فرنسي صغير في باريس .

وذلك كله أتى من الكسل والقعود عن العمل ، وحسباننا أن الأعمال الصالحات هي العبادات وحسب ، وفاتنا أن نعرف أن الصالحات يدخل فيها عمران الأرض ، وما كان ربك سبحانه ليستخلفنا في الأرض وقد تكاسلنا ونمنا ورضينا بالفقر والذل ، ومن يطلب الاستخلاف في الأرض فليكن على مستواه ، والحياة في الأرض جهد وعمل واجتهاد ، والقيام بالعبادات أداء لحق الله على الإنسان ، ولكن الله سبحانه يريد لأمته أن تكون أمة علم وعمل واجتهاد وبناء وعمارة وزراعة وصناعة وقوة في العقل والجسد ، وكل ما نعمله في سبيل ذلك يدخل في صوالح الأعمال ، وكل أزماتنا ومتاعبنا علاجها العمل ، العمل الطيب المتقن القائم على علم ودرس وتجربة ، والله سبحانه يحب العمل الجيد ، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، وصدق الحق سبحانه في قوله : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ

يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكُ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ . وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا
رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَسْتَخْلَفْ مَنْ بَعْدَكُمْ مَا يَشَاءُ . كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ . إِنْ مَا
تَوَعَّدُونَ لَأَتِيَّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي
عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ .

[الأنعام ١٣١ / ٦ - ١٣٥] .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا
يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوجَّه لآيَاتٍ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

« صدق الله العظيم »

[النحل : الآية ٧٦]

جربنا على أن نقول إن الإسلام قاعدة حضارة ، وإن حضارة الإسلام هي
التي قامت على أساس من الإسلام .

ولكننا في هذه الدراسة نقول : إن الإسلام نفسه حضارة ، عقيدته حضارة
وشريعته حضارة ، والشريعة تتضمن العبادات ، وقد رأينا الجوانب الحضارية
من كل منها ، وتتضمن المعاملات ، وهي القانون الإسلامى الذى يتضمنه
القرآن كلام الله وسنة نبيه ، وهى التطبيق والتفصيل ومكارم أخلاقه أو المروءة
الإسلامية ، وكل هذه حضارة ، وأنت عندما تقول لا إله إلا الله . . محمد رسول
الله ، فأنت بهاتين الشهادتين تدخل عالم حضارة الإسلام الرحبية

هنا أنت في جماعة العلم والعمل والإيمان والتعاون على الخير ، أنت في أمة

أمان الله وضمانه ، وهو جل وعلا يشملك بهديه وحنانه ، ويسير بك في الطريق القويم وصراطه المستقيم ، وهو طريق إيمان وعمل وفكر ، يصل بك إذا أنت سرت فيه عن فهم ويقين إلى أحسن مما ترجو وأرفع مما يبهرك من المكتشفات والمخترعات ، لأن الذين وصلوا إليها لم يتسلحوا بأكثر من قوة الفكر وعزيمة العمل ، والعلم أساساً هو التفكير السليم الحر الذي يتدرج بصاحبه في مدارج الكشف عن حقائق الكون خطوة خطوة ، وهذا الكلام قاله رجل من أعلام حضارة الدنيا هو الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا صاحب الفكر الصافي ، وقد كان ابن سينا معجباً بأفلاطون وطريقته القصصية الجميلة في سياقه كلام سقراط في دفاعه عن نفسه عندما اتهمه الأثينيون بإفساد أفكار الشباب وقدموه للمحاكمة ، وكان يعجبه في كلام سقراط إيمانه بخلود الروح ، وهو كلام ساقه أفلاطون في محاوره « الفايدون » المشهورة ، فنظر فيها ابن سينا وقال : كل هذا عندنا في القرآن الكريم ، وسبحانه من جمع لنا الخير كله والحق كله والجمال كله في آياته البينات ، وما أكثر ما يغيب عن المسلمين من فضائل دينهم العظيم .

ومن أكبر أسباب غيبة الذهن هذه هو النقل والاكتفاء بما قال السابقون ، مع أن القرآن مرسل لنا جميعاً ، وكل منا مطالب بأن يقرأه قراءة تفكير وتدبر ، لينجلي له من أسرار الكتاب العظيم ما غاب عن الآخرين ، ومثال ذلك أننا جميعاً نقول : إن معنى العدل هو أنه ضد الظلم ، مع أن للعدل في الإسلام معانٍ أخرى واسعة المدى ، إذا نحن جمعناها تبين أن العدل في الحقيقة هو الميزان الخلقى للمسلمين ، وانظر إلى الآيات التي توجنا بها هذا الحديث ، وسل نفسك ماذا أراد الله سبحانه بالعدل في هذه الآية البينة ؟

إن المراد هنا ليس عدل القضاء ، فلا قضية هنا ولا حكم ، وإنما هو سؤال يوجهه الحق سبحانه إلى عقولنا عن رجلين أحدهما عاجز لا يستطيع شيئاً ، والآخر ذكي عامل يأمر بالعدل ، وهو مؤمن يسير على صراط الإيमान ،

ومادامت هنا مقارنة بين الرجلين فلا بد أن يكون الثانى منها خلاف الأول ،
ولابد إذن أن يكون الرجل الثانى رجلاً سوياً قادراً على إنجاز الأمور يسير في
حياته في الطريق السليم الذى يرضاه الله ، وهذا هو الرجل العدل كما سنرى في
آيات أخرى قادمة ، ولابد أن نذكر هنا أننا هنا في سورة النحل ، وهى سورة
بديعة فيها أسئلة وأجوبة ومنطق وأخذ ورد وإيقاظ للأذهان إلى حقيقة الإيمان ،
فهنا في هذه السورة يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي
جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
(الآية ٧٩) فمثل هذه الآية لابد أن يقرأها الإنسان بذهن مفتوح وقلب واع
مدرك ، لأننا نرى الطير سابحة في السماء دون أن نسأل : ما يمسكها في جو
السماء ؟ والجواب هو أنها مسخرات بإرادة الله ، فالطير لا يفكر ولا يعقل ،
وإنما هو يعيش بالقوى التى منحه الله إياها ، يفكر ولا يعقل ، وإنما هو يعيش
بالقوى التى منحه الله إياها ، فهو سخر لما خلق له ، شأنه في ذلك شأن الحيوان
والسمك والحشرات وكل ما خلق الله ، عدا الإنسان الذى وهبه الله العقل
ليستخدمه في شئون حياته وأولها الإيمان بالله ، لأن الإيمان كما قلنا يحتاج إلى ذكاء
، بل هو في ذاته دليل ذكاء ولهذا يقول الله جل جلاله في ختام الآية : ﴿ إِنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وماداموا مؤمنين عن عقل وفكر واقتناع فهم أهل
فهم وإدراك ، ولهذا فإن الله يخاطب عقول المؤمنين المدركين بعد ذلك بقوله :
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا
إِنثَاءً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴿ وبناء البيوت ابتكار إنسانى لم يصل إليه البشر إلا بعد
مئات الألوف من السنين في الظلال والضياء في البرارى والغابات ، فبنى
الإنسان البيوت من الحجر أو الخشب أو الآجر أو اللبن بذكائه الذى يسر له
الاهتداء إلى ذلك ، وهنا وجه مقارنة بين الطائر المسخر بأمر الله ، فهو يطير بقوة

من عند الله ، والله سبحانه يمسكه في جو السماء ، بينما لم يصل الإنسان إلى الطيران إلا من حوالى مائة سنة مع أنه يحاول ذلك من أيام الإغريق ، لأنه لا يصل إلى شيء إلا بعقله ، ولهذا يشير الله بعد ذلك إلى اهتداء الإنسان إلى عمل الخيام ، وهى البيوت الخفاف التى يستعملها الإنسان في سفره ، والله سبحانه أعطانا الأصواف والأوبار والأشعار ، فصنعنا منها الثياب والأثاث والخيام . فالرجل العدل المذكور في الآية : هو الرجل السوى العاقل الذى يعتمد على ذكائه في حياته وحل مشاكله والوصول إلى الصراط المستقيم ، وهو طريق الإيمان بالله ، الذى هو رأس كل فضيلة ، ولهذا يقول الحق سبحانه في الآية التسعين من نفس سورة النحل :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل ٩٠ / ١٦) .

وهى آية نقرؤها ونسمعها كل يوم دون أن نفكر في المراد بالعدل فيها ، وواضح أن المراد هنا ليس العدل في الأحكام فحسب ، فلسنا كلنا قضاة أو حكاماً ، ولكننا كلنا مطالبون بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فالعدل هنا هو الحظ الأخلاقى السلوكى السليم المطلوب من كل مسلم ، مثله في ذلك مثل الإحسان ، وهو التصرف الحسن والاعتدال في كل شيء يفعله الإنسان ، ومن أهم ذلك إيتاء ذى القربى أى رعاية المستحق للرعاية منهم ، ولو رعى كل منا ذوى قريبه لاعتدل ميزان المجتمع ، لأن هذا المجتمع مكون من أسر ، والأسرة - كما سنرى في فصل قادم - هى أساس المجتمع ، وسلامتها أساس سلامته ، وليس معنى إيتاء ذى القربى رعايتهم بالمال فحسب ، فليس كل منا غنياً قادراً على تقديم العون المادى ، ولكن هناك العون العاطفى والعقلى ، ومراعاة الأسرة بضرب المثل الصالح لأفرادها ، ورسول الله ﷺ مع نبوته ورسالته كان دائم الإحساس بهاشميته ، يمتدح المحسنين من آل بيته ويضرب لهم المثل الصالح في

كل موقف . وبعد أن يأمرنا الله بهذه الثلاثة : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ينهانا عن ثلاثة أشياء تضر بالمجتمع وتفسده : الفحشاء وهى - كالفاحشة - مؤنث الفاحش وهو القبيح الشنيع من قول أو فعل ، والمنكر هو كل ما ينكره المجتمع من الأقوال والأفعال ، والبغى وهو الظلم والعدوان والتعدى . وهذه أمور ثلاثة نفشت في مجتمعنا اليوم ، وجعلت حياتنا عسيرة كل العسر ، وكل ما ترى من الشطط في رفع الأسعار والمتاجرة بأقوات الناس واستغلال حاجتهم إلى المساكن بغى ، ومغالة الأطباء في أتعابهم بغى . وليس أحسن من العدل في التصرف ، فيعمل به الإنسان السليم المستقيم الذى يرضاه الله سبحانه والناس . ولو تعاملنا بعضنا مع بعض على أساس العدل لكنا في الحال التى نتمناها لأنفسنا وأوطاننا .

وفى سورة المائدة نقرأ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [١٠٦/٥].

فالإشارة هنا إلى الرجال العدول الذين يوثق في أمانتهم وخلقهم وسريرتهم للشهادة على الوصية ، وهذه الآية هى أصل نظام العدول الذى أصبح مع الزمن جزءاً من تنظيم القضاء في معظم البلاد الإسلامية . فالناس في الماضى كان يعرف بعضهم بعضاً ، فكان القاضى يختار - أو يختارون له - رجالاً من أهل الأمانة والصدق للاستعانة بهم في التحقق مما يدعيه الناس بعضهم على بعض ، وقد كتب الدكتور محمد محمد الأمين الأستاذ بجامعة القاهرة دراسة عظيمة

القيمة عن الشاهد العدل في القضاء الإسلامى ، بين فيها تطور نظام الشهود العدول واهتمام القضاة به في بلاد الإسلام ومصر الإسلامية خاصة ، وفي بلاد الأندلس كان العدول أساساً من أسس التنظيم المدنى ، وفي المغرب الذى أخذ الكثير من تنظيمات المدن الأندلسية نجد أن العدول في كل بلد وقرية أصبحوا من أعمدة المجتمع ، وهم ملأ الناس أى الشخصيات التى تملأ العين والقلب مهابة وشهاداتهم في المناسبات الاجتماعية كالزواج والصلح بين الناس قاطعة ، ولا يستغنى عن آرائهم القضاة في نظر القضايا ، وأخلاقهم وثقة الناس فيهم هى التى كانت ترفع أقدارهم إلى مراتب العدول ، والواحد منهم - الرجل العدل - يرتضى الناس رأيه وشهادته في كل مجال .

هنا نجد للعدل في المجتمع الإسلامى معنى آخر غير ما يقابل الظلم ، فالعدل مقياس خلقى ، هو ميزان الناس في المجتمع ، هو جاع لكمالات الأفراد .

وعندما نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . [الأنعام / ٦ - ١١٤ - ١١٥] .

نجد للعدل معنى آخر ، فالكلام في هاتين الآيتين عن صدق القرآن الكريم ، والآية ١١٥ تقول إن كلمة الله تمت صدقاً وعدلاً ، فالمراد بالعدل هنا توضحه بقية الآية : لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . فنفهم من هذه الجملة أن المراد بالعدل هنا هو الدقة والإحكام والضبط ، وكلمات ربك تم إبلاغها للناس بغاية الصدق والضبط والدقة ولا مبدل لكلمات الله من بعد ،

وذلك كله بفضل صدق الرسول وأمانته وضبطه ، وإذا كان رسول الله ﷺ قدوتنا ومثالنا فتكون الدقة والضبط من أخلاقيات الإسلام ، ومن السنن الأساسية التي ينبغي أن نأخذها عن الرسول .

وهذا المعنى للفظ العدل نجده مرة أخرى في قول الحق سبحانه في آية الدين في سورة البقرة ، وهي من آيات الضبط والدقة والإحكام ، لأن الأمر هنا يتعلق بالأموال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ . [البقرة ٢ / ٢٨٢] .

فالكاتب الذي يكتب وثيقة الدين هنا مجرد كاتب ، والكاتب ليس قاضياً ولا حكماً ولا طرفاً في النزاع ، وإنما هو كاتب ما يملأ عليه بغاية الدقة ، ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ فنحن لا نتطلب في الكاتب معرفة قانونية ، وإنما الدقة والأمانة في تسجيل ما يملأ عليه ، وهنا يتضح تماماً أن المراد بالعدل هنا الأمانة والدقة والضبط ، وهي خصال إسلامية ينص عليها القرآن الكريم ، وكان رسول الله ﷺ آية في الأمانة والدقة والإحكام ، وكان يمتدح الدقة في العمل والضبط في الأداء ، وعندما أعيد عمل الصفة في مؤخرة المسجد بعد تعديل القبلة قال : « لم يكن يعجبني ما صنعتموه آنفاً فانظروا في رجل من أصحاب الأعداء يقيم لكم ما تريدون » ، وأشار عليهم بيمولي لإحدى الصحابيات كان نجاراً ماهراً ، وهو الذي صنع أول منبر خطب عليه رسول الله ﷺ في المسجد ، وسمع بزجل وفد من اليمن إلى المدينة يحسن غرس النخل ، فذهب ليرى كيف يعمل هذا الرجل ، وأعجبه دقته وإحكامه ، حفر الموضع الذي ستغرس فيه

الفسيلة ورآه يتنخل التراب قبل أن يضعه ، ورآه بعد أن غرس الفسيلة ورواها ترك قدر ربع ذراع من بثر النخلة ، فسأل الرجل في ذلك ، فقال إنه سيملا البثر عندما تبرز النبتة من باطن الأرض ، وعنده لذلك تربة مرة تحمي النبتة من الهوام فابتسم وهو يتأمل الرجل يعمل ، وقال : « هذه يد مجبها الله » ، بهذا كله نقول إن الدقة في العمل وإحكامه سنة ، وكان رسول الله متحريراً للدقة التامة في كل ما يعمل ، فالدقة والضبط جزء من أخلاقيات الإسلام ، ومن بديع أحاديثه قوله : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طائر أو سباع إلا كان له صدقة » .

ومن محكم كلام الله قوله في سورة الانفطار :

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [٨٢ / ٦ - ٨] .

وهذه الآيات تأتي في سورة الانفطار وبعد قيام الساعة وتفتطر السماء وانتشار الكواكب وتفجر البحار وطغيان مياهها على اليايس وتفتح القبور وخروج الناس للحساب بين يدي الرحمن ؛ هنا تعلم نفس الإنسان أثناء الحساب ما قدمت وما أخرت من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، وهنا يكون عتب الخالق سبحانه على الإنسان الذي أحسن خلقه فسواه وعدله في الصورة التي اختار أن يركبه فيها ، وهي صورة سوية معتدلة ، والوصف هنا لا يقتصر على الجسد ، بل على النفس ، فإن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأراد منه أن يسير في الطريق المستقيم على أحسن هدى وأقومه ، ولكن الإنسان عصا ربه وخالف أمره ، وأزله الشيطان فقارف ما نهاه الله عنه ، فردة الله سبحانه وتعالى إلى أسفل سافلين أى إلى الأرض ، وتحول كما قلنا من مخلوق فردوسى رفيع إلى حيوان أرضى وفي الفتوحات المكية يقول أمير الصوفية محيى الدين بن عربى : « إن آدم وحواء

عندما أهبطا إلى الأرض حفظ الله عليهما صورتها الفردوسية السوية ، ولكن المعاصى هى التى أدخلت القبح فى هيئات الناس ظاهراً وباطناً ، فالخطايا هى التى غيرت أشكال الناس فظهر الاعوجاج النفسى والخلقى ، ورأينا من أشكال القبح الخلقى ما نرى .

ومن بين شيوخ ابن عربى كانت امرأة صالحة تسمى نونا فاطمة أى السيدة فاطمة ، نبتت على الثمانين ووجها أجمل من البدر ، لأن باطنها كان زكياً قوياً ، فظهر ذلك فى خلقتها ، فهى مع شبيها حلوة لا تشبع العين من النظر إليها ، وقد أعاد ابن عربى ذكرها والكلام عليها فى رسالة القدس ، وهى من أجل ما كتب وأبعده عن الشطحات التى لا يحبها بعض الناس .

وقد استعمل الحق سبحانه لفظ العدل فى سياق الكلام عن الزواج وتعدد الزيجات ، لأن الإسلام دخل على العرب ومجتمعهم وبقية المجتمعات الأخرى المعاصرة لعصر النبوة ، كانت لا تضع أى ضوابط للزواج ، فالتناس كانوا يتزوجون وينجبون ويطلقون دون ضابط لعدد الزوجات وأسلوب معاملتهم ، إلا الأسرة ، فالمرأة المنحدرة من بيت قوى تحترم وتسان كما نرى فى حالة هند بنت عتبة بن ربيعة وزوج أبى سفيان صخر بن حرب التى فعلت بحمزة الشهيد ما فعلت يوم أحد ، فقد كانت امرأة محترمة تضرب أبا سفيان بقدمها فى صدره ولا يستطيع أن يفعل معها شيئاً ، أما المرأة من البيت الوسط أو الفقير فلم يكن لها من الأمر شئ ، تطلق وتعاد إلى أهلها دون أن يهتم بأمرها أحد ، وإذا مات عنها زوجها استولى أخو زوجها على تركته كلها ، وله الحق فى أن يتزوجها إذا شاء وفى المسيحية كانت المجامع الدينية قد قررت الزوجة الواحدة ، وجعلت الطلاق بيد الكنيسة والقسس ، ولكن المسيحيين كانوا يتزوجون ما شاءوا من النساء دون حرج ويطلقون النساء دون أن يسألهم أحد ، لأن قرارات المجامع المسكونية (العالمية) لم تكن ملزمة لأحد ، لأن العالم المسيحى ضم أكثر من

كنيسة ، والكنائس فيما بينها متعادية ، حتى القساوسة ورجال الكنيسة كان لهم النساء الكثيرات ، بل إن بعض الأساقفة كان لهم العشرات من النساء والجوارى ، فجاء الإسلام ليدخل النظام على هذه الفوضى ، فحدد عدد من يباح للرجل أن يتزوجهن بأربع في وقت واحد ، ووضع لذلك من الضوابط ما يجعل الزوجة الواحدة هي الأمثل ، ومثل هذا الشأن الإنسانى العاطفى من شئون الناس لا تضبطه حق الضبط القوانين بل النفوس ، فالرجل قد يتزوج المرأة على رغمها ويعضلها ويذلها ويكسر نفسها بالإهمال وسوء المعاملة ، وهنا يستعمل الله سبحانه ميزان العدل وهو الخط السلوكى الأخلاقى القويم ، فالشريعة تحكم مسائل الزواج والطلاق ، ولكن قانون العدل هو الذى يحقق السعادة وهناء الحياة الزوجية ، والعدل خط سلوكى نفسى لا يحس به إلا الإنسان وحده ، ولهذا فإن الله يقول مثلاً فى سورة النساء :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . وَأَتَوْنَا نِسَاءَ صَدَقَاتِنَ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ . [النساء ٤ / ٣ - ٤] .

فهنا لأن مسائل الزواج والطلاق مسائل قلوب تحكمها - إلى حد بعيد - العواطف والميول والأذواق ، يستعمل القرآن الكريم لفظ العدل ، ولأنه ميزان خلقى داخلى فإن الانسان فى مسائل بيته يعتمد على الأحاسيس قبل القانون والحقوق والواجبات . فهنا يدخل التوافق والنفور والحب والكراهية ، ومن ثم فالمسألة دقيقة ، ولهذا يقول سبحانه : فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . والعدل بين النساء - فى الزواج - مستحيل والله سبحانه وتعالى يقول فى نفس سورة النساء : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا

تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿النساء ٤ / ١٢٩﴾ .

وسبب استحالة العدل بين النساء هنا هو الطبيعة الإنسانية نفسها ، فإن
الزوجة - كل زوجة - تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهى لا ترضى أن يعطى
شيئاً من نفسه لأى إنسان آخر ولو كانت أمه أو أخواته ، والمرأة بطبيعتها تعطى
لنفسها ومحبتها كلها لرجل واحد ، وهى تريد من الرجل المثل ، وعلى كثرة ما
سمعنا وعايينا لم نر ولم نسمع عن رجل تزوج اثنتين أو ثلاثاً وكان سعيداً مهما فعل
لأن الزواج صلة إنسانية خاصة جداً بين الزوجين ، فيها حب وأنس وثقة إلى
جانب مسائل الاستقلال بالسكن والأولاد ، وهذه كلها مسائل لا يمكن أن
تنقسم بين رجل وامرأتين أو ثلاث نساء ، هذا إلى جانب الأولاد فى الزواج
المتعدد ، فهم لا يكونون إخوة حقيقيين قط ، بل إنهم يشبون منذ البداية أعداء
والرجل الذى يشط به عقله ويتزوج امرأة ثانية ويسكنها مع الأولى أو فى بيت
آخر لا يلبث أن يعلم أنه فقد السعادة الزوجية وسكون البيت وراحته ، فإن
الزوجة الأولى - حتى فى الحالات التى توافق فيها على زواج رجلها بامرأة أخرى -
تفقد الثقة والأمان ومعها الحب ، وتتحول إلى عدو كبير الجناح يصمت لأنه
يخاف أن يتكلم . ولكنه يتكلم فى صمت ، ويتحرك فى سكون ويبتسم وهو
يبكى ، معظم مآسى البيوت الحاكمة فى تاريخنا آتية من تعدد النساء فى قصور
الحكام ، ولكل امرأة أولاد ومخاوف ومطامع ولها كذلك أنصارها ، والقصور
تتحول إلى ساحات قتال وتدمير ، وصاحب السلطان الذى يعيش فى قصر كأنه
مدينة لا يجد غرفة واحدة يستطيع أن ينام فيها هادئ البال مطمئن النفس ،
ولا يتصور أحد أن الخلاف بين الأمين والمأمون مثلاً نشأ عن أن السيدة زبيدة أم
الأمين عربية والخيزران أم المأمون فارسية ، بل إنه نشأ من الزوجتين ، فإن السيدة
زبيدة كانت امرأة عاقلة كريمة مؤمنة أنفقت من مالها الكثير جداً فى سبيل الخير

وهى وحدها ومن مالهأ قامت بتعمير طريق الحج من العراق إلى الحجاز ، ولكنها قبل كل شئ امرأة تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهذه هى طبيعة البشر لا طبيعة زبيدة وحدها ، وابنها الأمين لم يكن منذ البداية سيئاً ولا غيباً ولا ناقص العقل والخلق ، ولكن المأمون ابن الخيزران خلق له مشكلة تجاوزت طاقاته ، فهنا الخلافة والسلطان ومن خلف الأمين ناس لهم مصالح ومطامع ، وكذلك الأمر مع المأمون . ثم إن المأمون كان يكبر الأمين بستة شهور فحسب . فهما صنوان فى السن وعديلان فى الحق ، ولم يكن من الممكن أن يكون بينهما هذا الفرق القليل فى السن لو أنها كانا ولدى زوجة واحدة ، ففى هذه الحالة يكون واضحاً جداً ، ويكون صاحب الحق فى ولاية العهد واضحاً جداً أيضاً ، والمأسة كلها ظهرت فى أيام الرشيد أبيهما ، فهذا الرجل الشهم الذكى المثقف ثقافة واسعة كان عاطفياً رقيق القلب سريع الدمعة ، وكان فى حاجة إلى زوجة واحدة تحبه وترعاه لأن صحته كانت ضعيفة فكان من أوائل الثلاثينات من عمره يشكو من متاعب فى البطن والأمعاء ، ثم أصابه شئ فى القلب ، وأذكر أننى قرأت فى كتاب الأغاني - وربما فى كتاب الكامل لأبى العباس المبرد - أنه جلس تحت شجرة ليستريح وهو فى الطريق إلى طوس وكان متأخراً عن كتلة الجيش ومعه واحد من نداماه وأهل صفوته من رجال الفكر ، فشكاه همومه ومتاعبه وكشف عن بطنه ليرى ما به ، والرجل الذى حكى الحكاية يتعجب من أن هذا القسط الضئيل من السعادة والأمان يكون نصيب أكبر ملوك الدنيا فى وقته ، وغاب عنه أن المأسة مأسة الزوجتين ! ولو كانت للرشيد امرأة واحدة لما اضطر إلى أن يشكو آلامه لهذا النديم تحت شجرة فى الطريق إلى طوس ، لأن مكان هذه الشكوى يكون فى البيت مع الزوجة المحبة ، ولكن هارون الرشيد لم يكن يجد السعادة فى قصره ولا فى بغداد كلها ، ولهذا كان لا يطمئن إلى العيش فيها ، وكان معظم الوقت خارجها ، وهذا هو تفسير ما نقوله من أنه كان يحج سنة ويغزو أخرى .

وهذه المأساة يعرفها كل من تزوج بأكثر من واحدة باستثناء حالات الضرورة كالعقم أو المرض الوبيل وما إلى ذلك . . والله سبحانه أباح التعدد ولكنه قيده بالعدل ، وهو الميزان الخلقى الداخلى الذى لا بد أن يستخدمه المسلم فى تقدير أعماله قبل القيام بها أو قبل الحكم على الأشياء .

والعدل ضد الهوى . ومعظم المصائب فى تصرفات الإنسان تأتى من الهوى ، ولهذا أعطانا الله سبحانه ميزان العدل ، وجعله علاجاً لأخطار الهوى ،
وأقرأ هنا قول البارئ سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلِىَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء ٤ / ١٣٥] .

فهنا يضع الله العدل أمام الهوى ليحمينا من شرور الهوى ، وهو آفة حياتنا وتاريخنا الكبرى ، وما دخل الهوى شيئاً إلا أفسده وضيع جماله ، وجعله نقمة بعد أن كان نعمة ، وفى الغرب ابتكر الناس نظم المحلفين ليأمنوا الهوى فى الأحكام ، أما فى الإسلام فقد منحنا الحق سبحانه العدل وهو الفيصل الذى يفرق بين الصواب والخطأ ، بين ماهو صالح وماهو ضار فى حياتنا الخاصة والعامة . وقد كان العدل مبدأ من مبادئ المعتزلة ولكنهم قصروه على عدل الله سبحانه ، وهو أمر لاشك فيه ، ولا مجال للمناقشة فيه ، وكان جديراً بهم أن يوجهوا أذهانهم إلى العدل الإنسانى الذى يحمى الإنسان من الهوى ، والمعتزلة أنفسهم لم يكونوا أهل عدل بل كانوا أهل هوى ، والهوى ضيعهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

[الروم : الآية ٢١]

كلامنا كثير عن المرأة ومركزها في التنظيم الاجتماعي الإسلامي وكلامنا عن حقوق المرأة في شريعة الإسلام أكثر ، وقبل أن أكتب هذه السطور قرأت كل ما وقع تحت يدي من كلام المفسرين سابقين ولاحقين ، فأما السابقون من أهل العلم بالقرآن وتفسيره عندنا ، فكلهم كانوا أبناء عصورهم في هذه الناحية والعصور الماضية كلها كانت عصوراً ظالمة للضعفاء قاسية على من لا يستطيع أن يحمي نفسه وحقوقه ، ولهذا فلا فرق بين العالم والجاهل فيها يتعلق بالنظر إلى المرأة ومعاملتها حتى حقوقها التي منحها الله إياها في القرآن الكريم أكلوها واعتدوا عليها ، ومازال الكثيرون منهم على هذه الحال إلى أيامنا هذه ، وقد حضرت من سنوات طويلة كثيراً من جلسات المحاكم الشرعية ، ورأيت من صور الظلم للمرأة والاحتقار لها ما لم أتصور قط صدوره عن رجل صحيح الإسلام يعرف أن الإسلام هو دين العدل والرحمة والإنسانية .

حتى مفكرون وكتاب كالجاحظ وأبى حيان التوحيدي لا نجد للمرأة عندهم مكاناً يفضل مكان الخادمة الأجيرة اللهم إلا إذا كانت أما فهي تحترم في هذه الحالة للأومة لا لمكانها ، وقد عرفنا في تاريخنا نساء فرضن احترامهن على الرجال وهؤلاء يخرجن من الحساب لأنهن كن جميلات جداً ، ورجالنا في الماضي كانوا ضعفاء أمام المرأة الجميلة ، في سبيلها قتل الرجال الرجال وقامت حروب ، ولكن حتى في هذه الحالة نجد أن الرجل إذا حصل على المرأة ونال إربه منها تركها جانباً وانصرف عنها ، بل ربما كان جمالها مصيبة عليها فهو يثير حسد الأخريات ويدفعهن إلى السعى في أذاها .

وفي كتاب بدائع الزهور لابن إياس حكاية امرأة جميلة اشترت جارية من بلاد القوقاز وعرضت للبيع في دمشق ، وتنافس فيها عدد من عليه القوم ، ووصل الأمر إلى القاضى ليفصل في القضية ، واجتمع المتنافسون في حضرة القاضى ، فنهض واحد منهم وضرب الجارية بالسيف فقتلها وقال : هاهى ذى ليأخذها من يريد ، وريع الناس لما حدث ولكن القاتل - وكان من أبناء كبار القادة المماليك - طلب من الخادم أن يصب له الماء على سيفه ليغسله قبل أن يضعه في قرابه ويخرج ، وصاح التاجر صاحب الجارية : ياسيدنا القاضى ألا تحاسبه ؟ فقال القاضى بعد أن استعاد روع نفسه : أحمد الله على أنه لم يقتلني ويقتلك ، فهذا مجنون ابن مجنون ، ولنحمد الله على أن المسألة انتهت بقتل امرأة لا روح لها ! .

وهذه الأفكار تخطر ببالي عندما أقرأ آيات الله سبحانه التى تراها في رأس هذا الفصل ، فهي إذا تدبرتها وقلبت معانيها رأيت أنه تضم فعلاً آيات من الحكمة الألهية في شأن الزواج والحياة الزوجية ، فإن الزواج الإسلامى في أساسه محبة ورحمة ومودة بين الرجل والمرأة ، لا يمكن أن يكون أن يكون هناك زواج سعيد يملأ القلب بهجة والنفس أمناً إلا بهذه المودة والرحمة ، وهنا ترى كيف أن

عامة الناس عندما لا يفهمون الزواج ولا يشعرون بهذه الناحية الروحية فيه ، ويعتبرونه مسألة مصلحة أو منفعة ، وفيما مضى كان الآباء هم الذين يزوجون البنات ، وكانوا يرغمونهن على قبول الزوج الذى يختارونه وكلمتهم المشهورة : إننى أبوها وأعرف بمصلحتها ، ويغيب عنهم أن الزواج ليس كله مصلحة ، حقاً إن المصلحة جزء منه ولا يمكن إهمالها ولكنه قبل كل شىء مودة ورحمة وسكن ، وإذا لم يجد الرجل فى زوجه السكن الأمن الذى تستريح إليه نفسه فلماذا يتزوج ؟ ثم إن عقد الزواج أيا كانت طريقة إنشائه هو فى النهاية عقد بين أزواج والزوجة دون غيرها ، وفى سورة النساء آيات بينات عن بعض جوانب الزواج أحب أن أتلك بها لتقرب من معنى الزواج وروحه فى الإسلام :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَّانَ وَإِنَّمَا مَبِينٌ . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

[النساء / ٤ - ١٩ - ٢١] .

ولو أنك تأملت هذه الآيات لرأيت أننا - نحن المسلمين جميعاً - نخالفها فى زيجاتنا . فإن المرأة هى الجانب الضعيف فى المجتمع الإسلامى . إنها الجانب المظلوم الذى يحمل عبء المجتمع ولا يكاد يفوز إلا بالجانب الأقل من خيره ، وأصحابنا الذين صاغوا قانون الأحوال الشخصية الصادر سنة ١٩٢٩ نسوا تماماً أنهم يشرعون لزواج إسلامى يقوم على الرحمة والمودة ، وإلى حين قريب كان الفوضى الشرعى يقول وهو على منصة القضاء : إن الشريعة شىء وقانون

الأحوال الشخصية شيء .

وكانت عندنا من سنوات طويلة طاهية زوجها من رجل عتل بعضلها ويثقل عليها ويذهب بمعظم ما تكسبه ولكراحتها فيه لم تنجب منه ، ولكنه كان يمسك به طمعاً في مالها فشجعناها على رفع قضية طلب الطلاق بسبب الضرر والقاضى رفض الطلاق ، دون مناقشة وقال له المحامى : يامولانا أنت تقتل المرأة بهذه الصورة فإنك لا تعرف مقدار تعاستها معه ، فكان رد القاضى وهو ينتقل في سأم إلى القضية التالية : لو كان هذا الرجل قادراً على الكسب لأنفق على امرأته ، أما وهى تكسب فلتنفق هى عليه أم أنك تريد أن تعيش المرأة ويموت الرجل ؟ واستأنفنا الحكم وأتينا بمحام إنسان يفهمنا ونفهمه فاستطاع الحصول على الطلاق لا بسبب الضرر أو سوء المعاملة بل على أساس أن الرجل عاقر لا ينجب وكانت الزوجة فى السادسة والعشرين عندما طلقت ، وبعد سنتين من الطلاق زوجها فتى نجاراً اختارته بنفسها فسعدت معه أعظم سعادة وأهدته ذكوراً ثلاثة وبناتاً .

وأنا عندما أفكر فى موضوع الزواج والحياة الزوجية فى مجتمعنا الإسلامى إنما يتجه ذهنى فى الغالب نحو الفقراء وهم غالبية المسلمين ، وهنا تجد الزواج يخرج عن حدوده الإسلامية فعلاً ، وتتحول الزوجة إلى خادمة لزوجها ومنجبة لأطفاله وفى هذه الأوساط لا مكان للسعادة أو السكن أو الرحمة أو المودة ، وقد درجوا على ذلك وعاشوا فيه ولم يعودوا يشعرون بما يفوتهم من جمال الدنيا عندما يفوتهم الزواج الإسلامى القائم على الرحمة والمودة .

ونعود إلى آيات سورة النساء لنرى ما فيها من أسرار السعادة فى الحياة الزوجية ، ولنرى أيضاً كيف أن غالياتنا العظمى لا تكاد تلتفت إليها ، وفى الآية الأولى نرى كيف أن الله سبحانه يحرم علينا أن نستعمل قوتنا لكى نتغلب

على النساء وهن المستضعفات في مجتمعنا ، وأذكر بهذه المناسبة أن هناك جماعات كثيرة من المسلمين في كل بلاد الإسلام لا تورث النسوة وتحرمهن من حقهن الشرعى في الميراث بحجة أن المرأة تتزوج أجنبياً عن الأسرة فإذا هم أعطوها نصيبها من الميراث ، خرج جزء من ثروة الأسرة إلى رجل غريب أو أسرة غريبة ، وهذا الفريق من الناس ينسى أن الله سبحانه حرم هذا وقال إنه لا يحل ، ولكن بُعد الكثيرين منا عن روح الإسلام يصل بهم إلى مقارفة ما حرم الله في سبيل ما يسمونه بثروة الأسرة ، وقد حضرت ذات مرة مناقشة بين رجل من صعيد مصر يتسبب إلى أسرة تجرى على هذا المذهب ، وكان يناقش الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان آل عبد الرزق أسرة مستنيرة تعرف الله والإسلام ولهذا فقد كانت تورث النساء ولا تقارف هذا الإثم العظيم .

ومن غريب ما سمعت من رأى المنادى بحرمان النساء من الميراث قوله إن النساء أنفسهن يرضين عن ذلك ولا يكرهنه ، فقال له الشيخ مصطفى بصوته الهادى الرصين : صدقنى يا فلان لا توجد امرأة واحدة في الدنيا ترضى أن يؤخذ منها ميراثها وحققها ، ولكنكم قساة غلاظ الأكباد تفعلون هذا الباطل وغيره وتقولون إنه الحق أو أن النساء يردنه لأنهن لا يحببن أن يصير مال الأسرة إلى غريب .

ثم يحرم الله عضل النساء لإكراههن على التنازل للرجال عما أعطوهن إياه من المهور أو الهدايا ، وهذا أيضاً يمارسه الكثيرون منا إلى يومنا هذا ابتزازاً للنساء وعدواناً عليهن ، وقد عرفنا رجالاً كثيرين تصل بهم الحسة إلى مطالبة النساء بالمال في مقابل الطلاق عندما تستحيل الحياة الزوجية بين الاثنين ، وأكثر من مرة سمعنا عن رجل طلب خمسة آلاف أو حتى عشرة لكى يطلق امرأة لا يحبها ولا تحبه ، ويصر على تركها كالمعلقة فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة وهذا أيضاً حرمه الله في آيات أخرى من سورة النساء قال سبحانه :

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَلَنْ تُسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُلَاقَةِ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء ٤ / ١٢٨ - ١٣٠] .

وهنا كذلك نرى من جوانب الحكمة الإلهية في تنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة ما يدلنا بالبرهان الساطع على أن هذا التنظيم الإسلامي هو خير تنظيم إذا أدركه الإنسان على وجهه وطبقه عن ثقة في أنه يضم كل جانب الخير لنا لو أننا نطبقه حق التطبيق ، فهنا نجد أن الله يعطى امرأة التي تخاف إعراض زوجها أو فقدان الحق في أن تسعى إلى الصلح إما بأن تناقش الأمر مع زوجها إذا توسمت فيه العقل والعدالة ، وإما عن طريق بعض أقاربها لأن الصلح خير ، وقد يتخاضم الزوجان وتبعد الشقة بينهما حتى يظنا أن سبل عودة الوثام قد تقطعت جميعاً فإذا جلس الزوجان وناقشا خلافهما في روية وحكمة تبين لهما أن الأمر أهون مما يظنان ، وهنا يذكرنا الله بأن نفوس الناس شحيحة بالخير ضئيلة بما تملك وهذا جزء من طبائع المخلوقات ، ولكنه لا ينبغي أن يكون جزءاً من أخلاق المؤمنين فنفس المؤمن لا ينبغي أن تكون أسيرة الأنانية والشح والبخل فيما يتعلق بعلاقات الإنسان مع أهله ، لأن امرأة الإنسان هي نفسه أو ينبغي أن تكون كذلك ، ثم توجه الآيات النصيحة بعد ذلك للرجال لأنهم هم الأقوى والأغلب فيقول لهم الله سبحانه إنهم لو أحسنوا وتفضلوا وأعطوا عن تقى ومحبة في الله سبحانه فإن الله يعلمه ولا ينساه لصاحبه ، وليس أبغض إلى الله سبحانه من المسلم الأناني المتهمسك بقشور الحياة بكسبها ويفسد بذلك حياته الزوجية وهي ركن السعادة في هذه الدنيا ، ثم يؤكد الله للرجال وهو خالقهم وأعلم بأحوالهم

أنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا على ذلك ، لأن الحقوق المادية هي أهون الحقوق على المرأة ، وإذا هي ضمنت حب زوجها وإعزازه إياها .

وقد عرفت في بعض البلاد العربية رجلاً واسع الثراء متزوجاً من أربع نساء وكان شديد الاجتهاد في المساواة بينهن في كل ما يعطى حتى ألوان السيارات كانت واحدة ولكنه كان مع ذلك بعيداً كل البعد عن السعادة وما نظرت إليه مرة وهو شارد بأفكاره عنى وعن الناس إلا وجدت غمامة أشبه بالسحابة السوداء تظلل وجهه ، وكنت أحاذر ألا أسأله عن شأنه ولكنه في ذات مرة قال عندما عاد إلى نفسه ألا لعنة الله على الإكثار من النساء كلهن في النهاية واحدة والواحدة أفضل فقلت له هذا يأخى مذهبي وأحسب أنه مذهب الإسلام لمن ينشد السعادة الزوجية ، أما طالب المتاع الذى يحسب أن زوج الاثنين أو الثلاث يجد ما لا يجده المقتصر على الواحدة فهو واهم .

ثم يأمرنا الله سبحانه بألا نميل عن زوجة كل الميل وندعها مربوطة بنا بخيط هالك فهذا ظلم للمرأة بين ، فإذا استحالت الحياة بينهما ، وانقطعت سبل الإصلاح فلا معنى للإمساك بالمرأة على رغبتها وليكن الطلاق البغيض ففيه تحرير لنفسين من إसार زواج ظالم ، والله سبحانه ييسر لكل منهما سبيلاً للسعادة من عنده وهو سبحانه كريم واسع الأرزاق حكيم .

وفي الآيات الأولى التى استشهدنا بها في هذه الدراسة عن الزواج والأسرة في الإسلام نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا اتَّخَذُوهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ ﴾ .

وفي هذه الكلمات القرآنية الحكيمة من الموعظة الحسنة مالا يتفطن إليه إلا القليلون منا ، وفي معظم كتب التفسير تقرأ أنه كان من عادة الجاهليين إذا أرادوا طلاق امرأة لم يطلقوا سراحها إلا بعد أن تعيد إليهم كل ما قدموه لها من مهر وهدية قبل الزواج ، فجاءت هذه الآيات لتوقف هذا الظلم البين ، وأنا عندما أقرأ مثل هذا الكلام يملكني العجب لإصرار الكثيرين على أن هذه الأعمال تقتصر على الجاهلية وأهلها مع أنها تصدر عن كل إنسان قاسى القلب عديم الإحساس ، وإلى أيامنا هذه مازال بيننا ناس ييغضون زوجاتهم ويتمنون الخلاص منهن ولكنهم يطلبون منهن مالا في سبيل إخلاء سبيلهن ، والنساء في أحيان كثيرة يجدن أنفسهن مضطرات إلى الخضوع ، لأنهن لا يستطعن الزواج أو التصرف في حياتهن مادمن على ذمة رجال أما الرجل فلا يضيره أن تظل الزوجة المكروهة في عصمته ، لأن ذلك لا يمنعه من الزواج والتصرف كيف يشاء ، وهذا وجه من وجوه سوء استعمال الرخصة التي أباحها الشرع للرجال في أن يتزوجوا الاثنتين والثلاث ، وقد أباح الشرع ذلك تيسيراً لشئون الحياة ، فإن الرجل قد يجد امرأته عقيماً أو مريضة أو غير قادرة على القيام بمسئوليتها ، وبدلاً من أن يكون الحل الوحيد أمامه هو التخلص من تلك الزوجة للزواج بأخرى أبيع له أن يحتفظ بالزوجة الأولى والتزوج عليها ، وفي هذه الحالة تكون الزوجات الأوليات شاكرات للشرع الحنيف الذى يسر لهن البقاء زوجات على ذمة رجال يتولون شئونهن .

المهم أن القرآن يحرم على الرجال استخدام الرخصة التي منحهم الله إياها في استرجاع ما سبق أن قدموه إلى الزوجات ، والقرآن ينكر ذلك يقول : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ .

والمسألة الأولى هنا هى مسألة إفشاء الرجل والمرأة بعضهما إلى بعض بعد الزواج ، والكثيرون منا لا يدركون أن المرأة إذا تزوجت وأفضت بنفسها لزوجها

فهى فى الحقيقة تقدم له أعلى ما فى كيانها ، لأن جسد المرأة هو سرها وقوتها وهى عندما تتزوج وترتبط برجل فهى تقدم كل ما عندها بذلك وانفصام عقد الزواج بعد ذلك يصيبها بخسارة كبرى ، وإذا لم تكن من ذوات الجمال الفائق الذى يتهافت عليه الرجال أو من بنات البيوت الكبيرة أو الغنية التى لا يعسر عليها العثر على زوج آخر قلما تتزوج بل إن مجتمع الرجال الذى نعيش فيه وتحكمنا عقلية يهبط بالمطلقة درجات لمجرد أنها مطلقة .

ولهذا فإن الإسلام أبغض الطلاق مع إباحته إياه ، فهو فى بعض الحالات القليلة حل للزيجات مستعصية .

ولكن ذلك فى الحقيقة قليل جداً والأساس فى الزواج هو الدوام مدى الحياة والمرأة تتزوج على هذا الأساس ، والزواج هو وظيفتها الأساسية فى الوجود ، ولهذا فإن الطلاق بالنسبة للمرأة ليس مجرد انفصام العقد مع رجل ، بل هو فى الحقيقة ضربة تزلزل كيان المرأة وتصيبها بأشد الأضرار . ولهذا فإن المرأة نادراً ما تطلب الطلاق وهى أحرص ما تكون على أن تنجح حياتها الزوجية وتنجب وتنشئ الأسرة وإنشاء الأسرة وتربية الأولاد هو تحقيق وجود المرأة كله .

ولهذا فإن القرآن يسمى عقد الزواج بالميثاق الغليظ ، والإسلام كما سبق أن ذكرنا يقوم كله على موثيق ، فأنت فى الإسلام لا تعطى شيئاً إلا كان لك مقابله وقد سبق أن أتينا بالآيات التى تقول إن الدخول فى الإسلام إنما هو أشبه بالدخول فى صفقة تجارية يجنى الإنسان منها كل خير وفى سورة التوبة نقرأ : ﴿ إِنْ أَشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ . وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ٩ / ١١١] .

فالإيمان كما سترى صفقة فإن الحق سبحانه يعطى المؤمن الجنة والمؤمن يعطى ماله ونفسه فى سبيل الله وليس هناك أوفى من الحق سبحانه ، والإنسان فى دخوله الدين يفوز الفوز العظيم ، وهذا حق فى الإسلام واليهودية والنصرانية وقد سبق أن استشهدنا بهذه الآيات العظيمة فى قولنا إن الجهاد فى سبيل الله فرض عين لا فرض كفاية .

وميثاق الإنسان مع الله سبحانه عندما يدخل فى الدين هو جزء - أو نتيجة للميثاق الذى عقده الله مع النبيين ، والميثاق الأول هو ميثاق الله سبحانه مع بنى إسرائيل حينما أنزلت عليهم التوراة . وكل نبي بينه وبين الله ميثاق وهو تأكيد للميثاق الذى عقده الله سبحانه وتعالى مع نوح عليه السلام عندما عهد الله سبحانه إليه فى تجديد الخلق وأمره بإنشاء الفلك وهو ميثاق نجاة وخير وهو نفس الميثاق الذى عقده الله سبحانه مع النصارى جاء فى سورة المائدة : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [١٤ / ٥] .

ونفس الميثاق عقده الله سبحانه مع رسولنا صلوات الله عليه جاء فى سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

[الأحزاب ٣٣ / ٧] .

وهذا هو الميثاق الأعظم بين الله والإنسان إنه عروة الله الوثقى وحبله المتين ، ولهذا وصفه الله بالميثاق الغليظ .

وكما وصف الله سبحانه ميثاقه العظيم مع الأنبياء وأهل الإيمان الصادقين

بأنه ميثاق غليظ فكذلك وصف عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ ﴿ واخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ وهنا موضع حكمة ربانية عالية أرجو أن يتنبه لها القارئ الكريم حتى يتبين جلال الزواج في الإسلام ، فإن الزواج في الحقيقة ليس مجرد اتفاق بين رجل وامرأة ، وإنما هو في الحقيقة اتفاق وموثق بين الإنسان والمجتمع فإذا كان ميثاق الإيمان المعقود بين الله سبحانه وأنبيائه والمؤمنين هو أساس عمران الكون فإن ميثاق الزواج هو أساس عمران المجتمع كله وتلك هي الأهمية الكبرى للزواج في الإسلام .

ومن أسف أن جماعات المسلمين لم تعط عقد الزواج مكانه الحقيقي به فما زال عقد الزواج عندنا مجرد عرض وقبول خال من أى التزامات ، حقيقة إن هذه الالتزامات موجودة وهى مبنية فى وثيقة الزواج ولكن عامة الناس عندنا لا يعرفون فى الحقيقة القدر الجليل للعقد الذى يدخلون فيه عندما يتزوجون وغالبيتهم يهتمون بهاديات الزواج من مهر وهدايا أكثر من اهتمامهم بروحانياته ، ومعظمهم لا يذكرون أن أهم شىء فى الزواج هو ناحيته الروحية ، أى ذلك الرباط المقدس الذى يربط بين الرجل والمرأة ، وأنا أرى أنهم فى بلاد الغرب قد أعطوا الزواج وعقده من الأهمية أضعاف ما نعطي نحن . فان المسألة عندنا تتم وكأنها أقل شىء أهمية فى الحياة ، وأنت عندما تشتري أى شىء له قيمة مثل الدراجة النارية ، فأنت والبائع تذهبان معاً إلى مكتب الشهر العقارى لكى تسجلا تلك الصفقة الصغيرة ، أما إذا أردت الزواج فأنت تستقدم الدولة كلها ممثلة فى شخص المأذون لكى يعقد لك عقد زواجك وأنت مرتاح فى بيتك ، وهذا فى رأى لا يليق ، وقد آن أن نعطي عقد الزواج من المهابة والجلال ما هو جدير به فلا بد أن يتم العقد فى مكتب محترم تقيمه الدولة فى كل حى للزواج وكل ما يتصل به من شئون ولا بد أن يكون هذا المكتب مهيباً محترماً فيه كل وثائق زواج الحى .

والمأذون ينبغي أن يتوقف عن السعى إلى بيوت الناس حاملاً دفتره تحت إبطه حتى يعقد لهم زيجتهم ثم يعطونه مافيه القسمة ، وقد ابتذلت هذه الصورة وساء استعمالها حتى أصبح منظر المأذون وهو داخل بيت العرس منظراً يخلو من الاحترام والمهابة ، وهذه هي صورة المأذون وعقد الزواج في الكثير من الأفلام والمسلسلات التي نراها ، فهل هذا والله يليق بمقام هذا الميثاق الذي يصفه الله سبحانه بأنه موثق غليظ مثله في ذلك مثل موثق الإيمان ؟ .

إننى أراهم في الغرب أحكم منا وأقرب إلى الشعور بمسئولية الزواج وقدره ، فهناك مكاتب زواج رسمية معتمدة مهيبة وموثق الزواج وهو المأذون عندنا موظف محترم جداً يعقد الزواج في مكتبه بحضور الشهود ، وأنا لا أشير هنا إلى الزواج بعد ذلك في مكتب خاص في الكنيسة وهو عندنا يخرج مع العروسين إلى ساحة الكنيسة لشهر العقد يلقي كلاماً قصيراً يبين فيه أهمية العقد والتزامات الزوجين فيه فما دام قد ارتضيا الزواج فينبغى أن يعلما أمام الناس جميعاً أنه عقد مقدس بين رجل وامرأة يدوم حتى يفرق بينهما الموت ، وهذا لا يمنع من الطلاق فيما بعد إذا استحالت الحياة الزوجية ، ولكن الأساس في أى زواج جاد هو أن يكون لمدى الحياة ثم يعلن القس للزوجين أنه ارتباط على الحلوة والمرة لا يفصمه مرض ولا فقر ولا حاجة ولا أى عامل من عوامل الحياة ، وكلا الزوجين يتعهد بالوفاء والإخلاص والأمانة والحرص على سلامة الزواج ، ومثل هذه الطريقة في عقد الزواج تعطيه الأهمية الاجتماعية التي ينبغي أن تكون له ، أما طريقتنا فتتقصصها القيمة والمهابة ، ومعظم الذين يتزوجون من عوام الناس يعتقدون أن عقد الزواج هو عقد بين سيد وجارية ، فهو سينفق عليه ويستمتع بها وهي تستخدمه وتطيعه وتمنحه الأولاد ، وهذه القيمة القليلة التي لعقد الزواج عند هؤلاء الناس هي التي تهون عليهم الطلاق ، فإن كلمة الطلاق على ألسنتهم من

الصباح إلى المساء ولا توجد زوجة من هؤلاء إلا وهى تتوقع الطلاق من سيدها الذى اشتراها فى كل حين .

الزواج موثق غليظ يعقده الرجل والمرأة معاً على الحب أولاً ثم الإخلاص والتفانى والاشتراك فى حلول الحياة ومرها حتى يفرق بينهما الموت ، هكذا ينبغي أن ندخل فيه ونعيشه حتى نعرف قدره العظيم ومقدار ما يضيفه على حياتنا من رحمة ومودة وسكن للنفس والروح .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي
صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ
نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الحشر : الآية ٩]

قال لى صاحبي : آلت إلى هذه التجارة بعد موت أبى ، فسرت فيها على
نهج الصحابة أيام رسول الله ﷺ ، والصحابة كانوا يعطون دون أن يترددوا ،
فيعطيه الله على قدر نياتهم ، ومولاي أمير المؤمنين يذكر قول الله في آيات سورة
الحشر أن أهل المدينة من أنصار الله ورسوله أصحاب المدينة ، أحبوا من هاجر
إليهم من المهاجرين ، وأعطوهم في حب الله كل ما كانوا بحاجة إليه ، وآثروا
على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، لأن الله سبحانه وقاهم شح أنفسهم ،
فسألت الله أن يقينى شح نفسى ، فاستجاب لى وأصبحت أعطى المحتاج ،
فوجدت نفسى أننى كلما أعطيت فى وجوه الخير ربحت من حيث لا أحتسب ،

وقد وجدت كبار التجار أمثال يكدسون الأموال ويضنون بها ، تحل بهم الكوارث فجعلت على نفسى فريضة وهى أن أقسم ربحى فى نهاية كل عام قسمين ، قسماً أشتري به سلاحاً وخيلاً وأزواداً ، وأبعث به إلى المجاهدين فى الثغور ، وقسماً أردته فى التجارة ، فوجدت الله سبحانه يرد على ما أعطيت فى سبيله ويزيدنى من فضله ، وقبل أن أخرج إلى الحج فى عامنا الماضى أرسلت إلى الثغر بما قيمته ستون ألف دينار للمجاهدين ، وبدأت عامى بنحو عشرة آلاف دينار ، وأراها تريد وتربح بحول الله ، وأحنى الخليفة رأسه وأطال الفكرة ثم رفعه وقال : والله إنك لأولى بإمرة المسلمين من كل مسلم ، لقد أشعرتنى بضالة قدرى . امض أيها الشيخ فسر فى طريقك ، فهذه حقاً هى طريق الإسلام .

لهذا اخترت هذه الآية من سورة الحشر ، فهى وما سبقها وما جاء بعدها تبين لنا الخصال التى تميز المؤمنين الصادقين أو التى ينبغى أن تميزهم ، لأن أخلاقيات الإسلام تقوم أساساً على العطاء ، وصدق إيمان المرء يقاس بقدرته على العطاء ، وهنا نجد أن رسول الله ﷺ ، وهو حقاً المثل الأعلى للخلق الإسلامى ، كان يعطى كل ما عنده ، وحياته كلها عطاء ، ولا يخدعك هنا ما تقوله كتب السيرة من أنه كان يختار من المغنم صفيّاً لنفسه إلى جانب خمس الله ورسوله ، فقد كان رسول الله ﷺ يأخذ ذلك حقاً ، ولكن ليعطيه للناس ، ورسول الله ﷺ كان يتصرف هنا بغاية الحكمة ، فلم يكن مقتراً على نفسه متهاوناً فى مظهره فيبدو فى هيئة الفقراء الجوالين من أنبياء بنى إسرائيل الذين نقرأ عنهم فى العهد القديم ، بل كان رسول الله ﷺ رجلاً عارفاً بحق نفسه ، فلبس أحسن ما يتيسر له من الثياب فى اعتدال بالغ ، وكانت ترد عليه ثياب الحرير وأقبية الصوف الفاخرة فلا يأخذها لنفسه قط ، لأنه كان يريد أن يربى أمته على الاعتدال فى كل شىء ، فلا إسراف ولا إقلال ولا إغداق على النفس ، وإنما يأخذ ما يكفيه من ثياب ، ويأكل ما يسد به جوعه دون تكلف ولا نقشف بالغ

أيضاً ، ولكنه كان حريصاً جداً على النظافة البالغة في كل شيء ، فثوبه دائماً في أحسن صورة من النظافة ، ورسول الله ﷺ كان يحرص على أن يغسل ثوبه ، ولكن يقع في ظني أنه ﷺ كان فيما يتعلق بالنظافة لا يثق إلا في نفسه ، ومن ثم فقد تعود الناس أن يروه يغسل ثوبه بيده ، ولم يكن يكتفى بالغسيل بالماء بل كان يضع في ماء الغسيل شيئاً أبيض يقوم مقام الصابون يسمى النورة ، فإذا فرغ من غسيل ثوبه بالنورة عاد فغسل بهاء نظيف ثم نشره بيده في الشمس ، وفي بعض الأحيان كانت تساعد في ذلك ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وكانت متفانية في حب أبيها لا تزال تعنى به وبأشياءه ، ومن هنا كناها الناس بأم أبيها ، وكان أيضاً يادها هذا الحب ، وذلك الحنان ، وكما أنها لم يكن ليطمئن لها بال إلا إذا رآته في الصباح والمساء ، فكذلك هو ، كان لا يزال يسأل عنها ولا يستريح إلا إذا رآها واطمأن عليها .

وليس بغريب والحالة هذه أنها لم تعش بعد أبيها إلا ما بين شهرين أو ستة ، وقد حزنّت حزناً بالغاً على أبيها وأنفقت كل وقتها بعد وفاته في العناية بولديها الحسن والحسين ، ويقال إنها لم تخرج من بيتها بعد وفاة أبيها ، وقد قيل لرابعة العدوية مرة : ماذا تتمنين أن يكون لك في الجنة ؟ قالت : أن أكون خادمة لأم أبيها سيدتي وسيدة نساء المسلمين . .

وفي الآية التي بدأت بها هذا الفصل من سورة الحشر نجد المهاجرين والأنصار يتسابقون في العطاء ، وكان في المهاجرين كثير من الفقراء الذين خلفوا كل ماله في مكة وهاجروا إلى المدينة بالثياب التي كانت عليهم ، وهؤلاء استقبلهم أهل المدينة أحسن استقبال ، وقدموا لهم كل ما كانوا بحاجة إليه ، ولم يكونوا في الحقيقة بحاجة إلا إلى ما يقيم الأود ، لأنهم في الحقيقة كسبوا خيرى الدنيا والآخرة عندما هاجروا بدينهم ، وقد كان فيهم فقراء حقاً ولكنهم بنص الآية الكريمة خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وإذا

كان الله قد وصفهم في أول الآية بأنهم فقراء فإنه يقول في آخرها إن أولئك هم الصادقون ، وهذا القول من الله سبحانه وتعالى هو عن الدنيا والآخرة ، ولهذا فعلى الرغم من أن الكثيرين منهم تحملوا غصص الحاجة وعاشوا على القليل حتى أغناهم الله من فضله ، فإن تصرفهم لم يكن تصرف الفقراء المحتاجين قط بل كانت فيهم دائماً عزة المؤمن ، وعندما خرج لمعركة بدر من خرج منهم نظر إليهم رسول الله ﷺ ، فرق فؤاده لهم فقال : « اللهم إني أذلة فأعزمهم ! اللهم إنيهم فقراء فأغنهم ! اللهم إنيهم عراة فأكسهم ، وقد استجاب الله لرسوله فعاد من تلك المعركة من لم تكتب له الشهادة منهم أعزة أغنياء من فضل الله . وقد أصاب بلال بن رباح ثوبين ودنانير وسيفاً من مغنم بدر ، فأخذ السيف وثوباً ونصف الدنانير ، وقدم الباقي لرسول الله ليعطيه لمن يشاء عن محتاج إليه من المسلمين .

وهذا الخلق الكريم : خلق العطاء والاكتفاء بالقليل وإيثار الإخوة المسلمين بما زاد على الحاجة ، أصبح الخلق الشائع المتبع بين رجال أمة الإسلام في العصر النبوي ، ولهذا يقول الله سبحانه في نفس السورة وبعد الآيات التي ذكرناها : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر ٥٩ / ١٠] .

وأحب أن أقول هنا التحديد إن المراد بالذين جاءوا من بعدهم ليسوا على وجه التحديد من هاجر إلى مكة بعد المهاجرين الأولين ، بل المقصود كل أجيال المسلمين بعد جيل الصحابة إلى أيامنا هذه ، فانظر والله إلى أجيال المسلمين يلي بعضها بعضاً ، وكل جيل يدعو لنفسه وإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان ، ثم يسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا ، ولو أن أمة الإسلام وأجيالهم سارت على هذا النهج الكريم لما غلبهم بعد ذلك غالب . ولكن قلب الإنسان

منا يعتصر اعتصاراً وهو يرى أجيال المسلمين لا يحمل جيل منها للمؤمنين غير الغل والبغض ، فوقعت بيننا الخلافات والفتن ، ودب في مجتمعاتنا الشر ، وبدلاً من أن نكون أمة من المؤمنين الصادقين الأعزاء بإيمانهم ومحبتهم بعضهم لبعض أصبحنا أمة الخلاف والبغضاء ، فحل بنا الفقر والتخلف والخسران .

وفي نفس هذا السياق من الآيات في سورة الحشر نقرأ : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَمَا لَا يَكُونُ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥٩ ﴾ .

[الحشر ٥٩ / ٧] .

وهذه الآية تخص أموال الفيء ، والفيء : كل مال وصل إلى رسول الله ﷺ دون أن يحارب المسلمون في سبيله ، لأن الأموال التي تأتي للمسلمين بالحرب والخيال والركاب فهي المغانم ، والمثال الذي يذكره الفقهاء لأموال الفيء هو مثال فدك ، وفدك مدينة صغيرة في شمالي جزيرة العرب على نحو خمسين كيلو مترا إلى الشمال الشرقي من خيبر ، وكان أهلها يهوداً - مثلهم مثل أهل خيبر - فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر وأجرى على مغانمها حكم المغانم ثم ترك أهلها على أرضها يزرعونها ويؤدون للمسلمين نصف غلة أراضيها ونخلها ، خاف أهل فدك على أنفسهم فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه الدخول في طاعة الله ورسوله ويجري عليهم حكم الله كما حدث في ثمرات خيبر ، فقبل رسول الله ذلك واعتبر المال المتأتى من فدك دون قتال من جانب المسلمين فيئاً من الله على رسوله خاصة يتصرف فيه بما فيه صالح المسلمين ، وأنت ترى مصارف الفيء كما حددتها الآية ، فهي لله ورسوله أي لبيت مال المسلمين والرسول - بصفته نبي الأمة ورأس أمة الإيمان - يتصرف فيها بحسب حاجات الأمة ، ثم تنص الآية على طوائف من

المسلمين لهم حق معلوم فى تلك الفيوء . . وهى طوائف ذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، وأهم شىء تنص عليه الآية العظيمة هو أن هذا المال ينبغى ألا يصيب منه الأغنياء غير المحتاجين ، لأن هؤلاء إذا استولوا على مال المسلمين أو جزء منه قصره على أنفسهم ، وأصبح دولة — أى قوة — فى أيديهم يتبادلونها فيما بينهم ، ويدلون بها الناس ، ورسول الله ﷺ هنا رمز لرؤساء الدول الإسلامية التى قامت بعد العصر النبوى ، والله سبحانه يجعل رسوله مشرعاً له الحق فى أن يقرر ما يرى فى شئوننا ، ونحن ملزمون بأن نأخذ ما أمرنا به الرسول وترك ما ينهانا عنه .

وأنت إذا تدبرت هذه الآية ملياً وجدت أموال الفيء انتهت بوفاء رسول الله ﷺ وحلت محلها بعد ذلك أموال الضرائب والجمار وكل إيرادات تصل إلى الدولة ، فهذه أموال تتجمع للدولة دون حروب ولا خيل ولا ركاب وواجب الدول هو التصرف فيها على أنها أموال فىء ، وتتفق فى صالح الجماعة أى الأمة ، وخاصة أهل الحاجة ، وفى عصور الإسلام الماضية أصبحت الأمة كلها أصحاب حاجات ، والحاجات هنا هى المرافق من طرق ومنشآت ومساجد ومدارس ومستشفيات وكل ما ينفع الأمة ، أما أن يحتفظ الخليفة أو السلطان بأموال الضرائب — أيا كان نوعها أو اسمها أو شكلها — ليتصرف فيها كما يشاء . . فمخالفة لشرع الإسلام . وقد أدت هذه المخالفة إلى فساد الشئون المالية فى دول الإسلام كلها ، فقد أصبحت بالفعل دول بين أيدي الأغنياء وهم رؤساء الدول وحواشيهم . وأصبح هؤلاء الأغنياء الذين يستولون على مال الله ويديرونه بينهم تاركين المحتاجين والمرافق لا تنفق الدولة عليها شيئاً ، ويتبين من هذا مدى الخطأ الذى وقعنا فيه نتيجة لسوء التصرف فى موارد الدولة ، فقد قامت فينا فى الماضى حكومات فرضت علينا بالقوة ، وعلى رأس كل حكومة قام خليفة أو سلطان بعد وزير ورجال إدارة هم إلى الشياطين أقرب ، وهذه القلة القليلة من

السادة تعتمد في فرض سلطانها على جند تؤلبهم بالمال أو تشتريهم ، وكان المفروض أن الهيئة الحاكمة لا بد أن يختارها الناس كما اختاروا أبا بكر ، ولم يكن يحكم وحده بل كانت حوله جماعة الصحابة التي تربت على يد الرسول ، فهي تعرف الحق والعدل لأنها عاشت ونمت في ظل رمز الحق والعدل وهو رسول الله ﷺ ، ولهذا فقد استطاع أبو بكر أن يواجه مشكلة الردة ويقضى عليها وعلى المتنبئين ، ويعيد وحدة الأمة ، لأنه اعتمد في تنفيذ قراراته على الأمة التي اختارته . ومع أن الذين نسميهم مرتدين لم يكن فيهم إلا القليلون جداً ممن ارتدوا عن الإسلام فعلاً ، فإن أبا بكر قال في مناقشاته مع الصحابة إنه يحاربهم لأنهم أرادوا أن يتوقفوا عن أداء الصدقات ، وقالوا : نحن لا نؤدى لك يا أبا بكر الصدقات لأن الأمر بأخذها صدر من الله لرسوله فهو سبحانه يقول ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ .

[التوبة ٩ / ١٠٣] .

وقالوا إن الأمر هنا صادر من الله سبحانه لرسوله الكريم ، وليس لأبى بكر الحق في أن يضع نفسه مكان رسول الله ﷺ . ولهذا فنحن لا نؤدى هذه الصدقات إلى أبى بكر ، وعمر بن الخطاب في حوار الصحابة قال إن مبالغ الصدقات ضئيلة وهى لا تستحق أن نحارب الناس عليها ، ولكن أبا بكر قال ما معناه إننى خليفة رسول الله ﷺ ورسول الله لم يكن يأخذ هذه المبالغ لنفسه بل للأمة ، وللصدقات مصارف معروفة بينها القرآن الكريم : ومصارف الصدقات كلها خير للأمة ، وأنا لا أعطل حكماً من أحكام القرآن إكراماً لأى مخلوق ، ولهذا فأنا أعتبرهم مرتدين وأحاربهم على أنهم مرتدون ، وحاربهم فعلاً ونجح في إعادة وحدة الأمة .

وأنت ترى أن هذه القضية كلها — قضية الردة — قامت على أساس من

الصدق والإخلاص للأمة ، فأبو بكر - الذى اختارته الأمة - حارب فى سبيل الأمة وصالحها ، فهو نفسه لم يصب درهماً من أموال الصدقات ، ولا أخذ مجاهد مسلم درهماً فى مقابل حربه للمرتدين ، لأننا هنا أمام أمة صادقة مخلصه ، والصدق والإخلاص على رأس أخلاقيات الإسلام .

وأنا عندما أفكر فى أخلاقيات الإسلام أو أكتب فيها أتخشى أن أنطلق مع الكلام النظرى أو أسترسل مع تأملات تجعلنى أقرب إلى خطباء الجُمُعاتِ فى المساجد ، فهؤلاء يقدمون لنا فى خطبهم قواعد ونصائح جيدة ، ولكننا فى الحقيقة لا ندرى ماذا نفعل بها ، وعلى سبيل المثال أذكر أننى سمعت فى الإسكندرية من أسابيع خطبة الجمعة ، والخطيب تحدث عن حقوق الجار ، ولكن كلامه كله نصائح ومواعظ لا يتحصل منها شيء ، لأن الجار والجوار قد تغير فى أيامنا ، ولم نعد نستطيع تطبيق أى قاعدة من قواعد حسن الجوار التى يقدمها لنا الخطيب ، لأن العصر الذى يتحدث عنه قد انتهى بكل تفاصيله ، وانتهت البيوت الكبيرة التى كان الناس يسكنونها ويتعايشون فيها على أساس أن جارك أخوك ، وأنتك ملزم برعايته وحفظ حقوقه والنظر إلى أهله على أنهم أهلك . وقد عرفت الحياة فى متلك البيوت الكبيرة القديمة وأنا صبى ، وكانت أبواب الناس مفتحة والنسوة يعشن فى جماعة واحدة ، وما طبخت أسرته شيئاً إلا أهدت منه طبقاً لجيرانها ، ولكنى أقول ذلك لأن تلك الحياة كانت حافلة بالشقاء ، وكانت بين الجيران من المشاجرات ما تبلغ حدته مبالغ الحروب ، ولا أنسى قط تلك المشاجرات بين النسوان وما كان بعضهن يقلن لبعض من بذى القول بأعلى صوت ، وكان الرجال يدخلون هذه المشاجرات ويصبح البيت كله « حريقة » وما يسمونه أيام زمان الحلوة كانت أيام قطران تعيسة ، لأن الصداقة والمحبة والوفاء وما إليها من فضائل الإسلام كانت تمارس نظرياً لا عملياً ، فالرجل صادق معك حتى تبدوله مصلحة صغيرة تتعارض مع مصلحتك ،

وهنا يتقلب عدوًا لك . لأن أحداً لم يتم بأن يبين للناس الخط الفاصل بين الخير والشر ، بل لم يتم أحد بأن يبين للناس فضائل الخير . والشيخوخ الذين كانوا المتعلمين في ذلك المجتمع القديم لم يقوموا قط بواجبهم الأساسى وهو توجيه الناس إلى الطريق المستقيم بحكم معرفتهم بالكتاب والسنة .

ولكنى وأنا صغير جداً تبينت أن أولئك الشيخوخ لم يكونوا أحسن حالاً من عامة الناس ، بل كانوا أكثر تزاماً على فتات الدنيا ، لأن معظمهم كان ينشأ من مناشىء متواضعة جداً ، وكانت معظم أيامهم شطفاً ، فترت فيهم خصال الحرص والطمع ، وقامت بينهم العداوات الحامية على الملايم ، وأذكر أنه كان يقرأ القرآن عندنا في البيت شيخ يسمى الشيخ توفيق ، فعهدت إليه جدتى أن يشرف على تحفيظى القرآن ، فكان يدخل وفي يده جزء من أجزاء الكتاب الكريم الذى يبدأ بسورة النبأ وأولها ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة النبأ : ١ - ٢] وهو جزء صعب الحفظ على الصغار ، ففيه الكثير من أوائل السور المكيات من أمثال النازعات والتكوير والانفطار وما إليها ، وكان هذا الرجل يقول لى أول ما يدخل : اذهب لى جدتك وقل لها إن الشيخ توفيق قد وصل وهو يطلب الإفطار ، وكانت جدتى تسمعه تقول : حاضر ياشيخ توفيق ، ابدأ فى تحفيظ الولد وطعامك سيأتىك على ما تشتهى . وأفتح الجزء وأمضى أقرأ فى سورة النبأ وأخونا ليس معى لأن عقله وقلبه معلق بالطعام ، ويأتى الطعام وصاحبنا ينظر فيه ويستزيد من كل شىء : من السمن والخبز والمشهيات ، وينقض الرجل على الطعام بصورة بشعة وأنا أقرأ ، فإذا فرغ من الطعام رفع قلة الماء وصب منها فى جوفه شلالاً ، ثم طلب الشاى وقال لى : اذهب واتنى بسيجارة من علبة أيبك ، فأقول له : إن تلك العلبة فى حجرته وهى مقفلة وهو لا يجب أن يدخلها أحد فى غيابه فيقول : ليس من الضرورى أن تقول له : تسحب لى داخل الحجرة واتنى بالسـيجارة ولا من درى ولا من

سمع ! وأقول له : يا شيخ توفيق إن هذه تعتبر سرقة وأنا لا أستطيع أن أسرق أحداً فضلاً عن أبى ، فكان يشرب الشاي رشفاً بصوت مرتفع وهو غاضب فإذا فرغ منه نهض وقال : غداً أسمع لك الصفحة الأولى من سورة « قد سمع » وليكن فى علمك أننى آكل فى الإفطار رغيفين ثم أشرب الشاي ولا بد أن أدخن بعد ذلك سيجارة لكى أستطيع بعد ذلك أن أعمل ولا يهمنى كيف تأتىنى بالسيجارة ، المهم أنك تعرف ذلك كله من الآن ، ثم انطلق خارجاً .

وقصصت ذلك كله على جدتى ، فاستمعت إلى صامته ولم تقل شيئاً ، وفى اليوم التالى عندما حضر الشيخ توفيق دخلت إليه جدتى ووبخته توبيخاً شديداً وقالت له : أتينا بك لتحفظ القرآن وتصلح أخلاقه لا لتفسدها ، ونحن لهذا لا نريد منك شيئاً ، ستأتيك الخادمة بإفطارك كما تحب ، فكل وانصرف ولا تعد إلينا مرة ثانية .

وإنما ضربت لك هذا المثل لترى كيف أن هذه الأمة لم تجد من يربها ويرشدها إلى الطريق القويم ، فهذا الشيخ الذى أتوا به ليعلمنى ويحفظنى أعظم ما من الله به على البشر ، وهو القرآن ، هذا كان تصرفه ، لأن الأخلاق عنده كانت نظرية تختلف عن الواقع ولا تطابقه ، فهو يحفظ القرآن فعلاً ، ولكنه ما كان ليعمل بشيء مما فيه ، والسبب فى ذلك هو أن الفقر الشديد الذى كان هذا الرجل يعيش فيه كان يحول بينه وبين إدراك القيم الإسلامية الرفيعة ، فهو يصارع فعلاً فى سبيل لقمة العيش صراع المستميت ، ولكن صراعه هزيل ضئيل ، ولهذا فإن هذا الرجل لم يفلح فى أن يعلمنى ولو جانباً يسيراً من فضائل الإسلام ، لأنه هو نفسه كان بعيداً عن ذلك كل البعد .

إن مكارم الأخلاق الإسلامية التى بعث رسول الله ﷺ ليعلمها فضائل جماعية ، وكل الفضائل واردة فى القرآن الكريم ، فيه الصدق والإخلاص

والأمانة والمحبة والشهامة والكرم والسواء ، وهى فى القرآن جماعية لا فردية ، أى أن الصدق فى الإسلام عام ينبغى أن يسير عليه كل الناس حتى تتجلى فوائده وخيراته ، وأنت لا تستطيع أن تكون صادقاً وكل من حولك كاذبون ، وهذه الجماعية فى الخلق والتصرف هى التى قضى رسول الله ﷺ حياته فى نقل المجتمع العربى إليها ، وأنت ترى فى آيات سورة الحشر التى أتيتك بها أنها تشنى على محبة الأنصار للمهاجرين ووفاء المهاجرين لقضية الإسلام ، ورسول الله المعلم اجتهد فى أن ينشئ أمة إسلامية مترابطة بالفضائل متعاونة بالعطاء ، فالمسلم الحق يعطى قبل أن يأخذ ، ويفكر فى أمة الإسلام قبل أن يفكر فى نفسه ، وهو إذا فعل ذلك نجح ونجحت أمة الإسلام ، أما حب النفس والأنانية وتكالب كل إنسان على مافيه خيره وخير أسرته الصغيرة دون نظر إلى الآخرين فليس بالخلق الإسلامى ، ثم إن أخلاقيات الإسلام كلها عملية ، فالإسلام لا يعرف الرهبانية ، ولا يجب الإنسان الكسول الذى يقضى عمره فيما يسميه العبادة ، منصرفاً عن السعى ومعتداً فى حياته على جهد الآخرين ، إنما نحن مطالبون بأن نعبد الله معاً ونعمل معاً ونجاهد معاً .

ويستوقف نظرى أن الأمم القوية التى سادتنا فعلت ذلك من دوننا فأفلحت وتعثرنا ، فكأن الإسلام نزل عليهم لا علينا ، وكأنها هم المؤمنون ونحن الكفار ، وهذا الكلام قال شيئاً فى معناه الشيخ محمد عبده وهو واحد من القلائل الذين فهموا الإسلام وعاشوا واجتهدوا فى دفع المسلمين فى طريق العلم والفهم والعمل الجماعى ، وقد شقى بهذا السبب وحاربوه وأتعشوه ثم عادوا بعد ذلك يرفعون قدره ويفتخرون به ، وهذا مثال من كثير نفهم منه أسباب هذا الفشل وذلك الفقر الذى تعانىه أمة الإسلام جميعاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ
يَرْفَعُهُ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[فاطر : الآية ١٠]

بهذا الفصل نصل إلى نهاية هذه الدراسة ، التى قصدنا من ورائها إجمال فضائل الإسلام فى عشرين موضوعاً اخترناها كلها من القرآن الكريم ، والحديث فى فضائل الإسلام يمكن أن يمتد بنا إلى غير نهاية ، فما من خير فى النفس أو فى الكون ، داخل الإنسان أو خارجه ، إلا وجدناه فى الإسلام ، ووجدنا فى القرآن آيات بينات تؤيده بأجلى بيان ، وأظن أن فيما كتبناه من الفصول ما يكفى لإطلاع المسلمين ، وخاصة الشباب ، على الفضائل الكبرى التى يتميز بها دينهم العظيم ، ورسم طريق العزة والقوة والتوفيق أمامهم عن طريق الفهم الصحيح للقرآن ، والاستمتاع بما تضمنه آياته من عظام المعانى وروائع التعبير المحكم الصادق البليغ عن كل معنى شريف .

وإذا كنت مسلماً صحيح الإسلام ، فإنك لابد أن تكون محزون القلب على أحوال المسلمين اليوم ، فقد أخذوا أعظم هدية أهداها الحق سبحانه وتعالى للناس ، ولم يتفعلوا بها ، وكان فى إمكانهم أن يصلوا بها إلى قمة العزة والقوة

والنجاح في هذه الدنيا والآخرة ، لو أنهم صدقوا في إيمانهم وعملوا بما تضمنته العقيدة الإسلامية من هدى رشيد ، ولكننا مع الأسف البالغ ضيعنا الجوهرة الغالية ، وقفنا بعد ذلك بالتراب .

والعجب مع ذلك أن تجد المسلمين يلقون المسئولية في ذلك التخلف الذي هم فيه ، على الآخرين ، وقد ضمنى منذ حين مجلس دار الحديث فيه عن المستشرقين ، فتبارى القوم في الحملة عليهم ، كأنهم هم المسئولون عما تعانيه أمم الإسلام ، ولم أشترك في المناقشة لأننى أحسست أننى في واد وأصحابنا أبطال الحملة على المستشرقين في واد ، وأنا أعرف معظم ما كتب المستشرقون عن الإسلام . ولكن لا ألومهم على شيء مما كتبوه ، لأن الواقع أنهم لم يكتسبوا ولا لأحد من المسلمين ، ولكن لأقوامهم ، والغالبية العظمى من أهل الاستشراق لا يؤمنون بالإسلام ، وقراؤهم مثلهم ، وماداموا جميعاً كفاراً يديرون الكلام فيما بينهم ، فما شأننا بهم وبما يقولون ؟ ومادام الإنسان كافراً بالإسلام منكراً لحقيقته فقيم نلومه ؟ وفي أكثر من آية قرآنية يأمر القرآن رسولنا ﷺ أن يدع الكفار في غيهم فما هو بمستطيع هداية إنسان واحد إلا أن يريد الله .

ولكننى ألوم المسلمين ، لأنهم إلى يومنا هذا لم ينتبهوا لفضائل الإسلام ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون بها ، وقد رأيت أن القرآن الكريم قد حوى كل أسرار العزة والقوة للمؤمنين به ، إذا عرفوا كيف يفيدون منها كما علمهم رسول الله ﷺ ، فقد كان الرسول يعرف أن الإسلام إيمان وعلم وعمل ، والإيمان الإسلامى لا يكون صحيحاً إلا إذا كان إيجابياً أى حافزاً للمؤمن على السير في الاتجاه السليم وإلتزام الفضائل وطلب العلم والاجتهاد في توجيه العلم في صالح الحياة ، وأنا عندما أقرأ تفاسير القدماء للقرآن الكريم أعجب بما بدلوا من الجهد في تفصيل شكلية العبادات ، ولكننى أتعجب من وقوفهم عند الظواهر وتركيزهم الكلام على الشكليات ، وعبادات الإسلام قليلة ، والقيام بها على وجهها يتطلب منك

خلوص النية والصدق مع نفسك ومع الله سبحانه وتعالى ، وأنا منذ وعيت لم أقصر في حق من حقوق الله سبحانه ، ولا أذكر أن ذلك كلفني وقتاً يذكر ، لأننى لا أنسى أن الله سبحانه أمرنا بأن نقضى صلاتنا وهى أم العبادات ، ثم نتشر في الأرض في طلب الرزق ، ومن عجب بعد ذلك أن تجد الكثيرين من المسلمين يرجون من الله أن يرزقهم وهم قعود مكافأة لهم على الصلاة والصيام ، وقد فاتهم أن العبادات شئ وطلب الرزق شئ آخر ، حقاً إن العبادات توجهك إلى طلب الرزق في الطريق السليم ، ولكن الله سبحانه يرزق كل إنسان على قدر عمله ، حتى لو كان كافراً ، وما أنت ذا ترى الأرزاق الواسعة التى يملكها الكفار فى أيامنا هذه ، وإنه لمن العار علينا نحن المسلمين أن نرضى بهذه الأوضاع التى نعيش فيها ، ولو رآنا رسول الله ﷺ على هذه الحال لما رضى عنا قط ، لأن رسول الله كان يرى أن الإيمان والعزة صنوان ، والمؤمن يعزه إيمانه ، وكذلك عمله ، وقد أشرت فيما سبق إلى الآية الثامنة من سورة « المنافقون » التى تقول : ﴿ والله العزة للمؤمنين ﴾ وقلنا إن الله سبحانه وتعالى يعطى رسوله الأمين والمؤمنين الصادقين جانباً من عزته ، والعزة معناها هنا القوة والغنى وارتفاع الشأن ، ولو أنا كنا مؤمنين بالإسلام حق الإيمان لكننا أعززة بهذا الإيمان ، وقد كان رسول الله يعز نفسه وأصحابه بالعمل ، وقد أخطأ القدامى عندما قصروا العمل على العمل الدينى أى القيام بالعبادات ، مع أن الأعمال الصالحة تشمل العبادات وكل عمل يؤتى الإنسان خيراً فى هذه الدنيا ، وكان رسول الله آية فى الاجتهاد والعمل ، وكذلك كان أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وإن الانسان لا يصدق أن أبا بكر واصحابه معه استطاعوا القضاء على المتنبيين والمرتدين ، وإعادة وحدة الأمة فى أقل من عام ، وأنا أعجب بالكثير جداً فى أبى بكر وعمر ، ولكن أكثر ما يستدعى الإعجاب فيهما هو ذلك العمل المتصل لما فيه خير المؤمنين ، وكان عمر إلى جانب عباداته لا يكف عن العمل ، حتى إنه كان

ينفق الساعات في قراءة كتب القواد الذين يقومون بالفتوح ، ويعيد قراءة الكتاب أكثر من مرة ، ولكي يستوعب المعلومات التي يفضون بها إليه كان يرسم بعضاً صغيرة على الرمل خرائط المعارك لكي يتصور مواقف المسلمين تصوراً صحيحاً ، وفي بعض الأحيان تحس أنه مع القادة والجنود في المعارك ، وهذا لا يكون إلا بجهد فكري بالغ .

ومن أكبر أسباب انتصارات المسلمين الأول هو تمسكهم بالصدق الكامل في كل ما يقولون . ورسول الله ﷺ كان يتحرى الصدق في كل شيء ، حتى في معاملته للكفار ، وكان الكفار والمنافقون يكذبون عليه ، وكان يعرف أنهم كذابون ، ولكنه مع ذلك كان لا يعاملهم إلا بالصدق . لأن الصدق قوة كبرى ، وإن أصحابه يصدقون معه في كل شيء ، وكان يقدر الناس على قدر صدقهم ، والقرآن الكريم امتدح الصدق ، وحث المؤمنين عليه ، ومن أسف أن أمة الإسلام في العصور الماضية نسيت الصدق ، وتعاملت بالخداع والكذب ومن منتصف العصر الراشدي دخل الكذب حياة المسلمين ، ومع الكذب دخل الفقر والضعف ، وقد رزق الله أمة الإسلام في عصر الفتوح من الأموال مالم يكن يخطر على بال مسلم ، ولو أن أمة الإسلام شكرت الله سبحانه بالصدق في المعاملة لما نزلت بها مذلة أبداً . وقد عرف عمر بن الخطاب فضل الصدق ، وحث الأمة على التزامه . وإذا نحن قرأنا خطابه إلى عماله وقادته تبين أن عمر ابن الخطاب وجيله من الصحابة قد بلغوا مابلغوا من النصر والسيادة بفضل ما آتاهم الله من الإيمان العميق بالله وحرصهم على الفضائل ، وإن الإيمان العميق والتمسك بفضائل الإسلام كان في الحقيقة سبب تلك القوة الهائلة التي جعلتهم أقوى من أي عدو لقيهم مهما كان سلاحه . فاقراً مثلاً الكتاب التالي الذي بعث به عمر بن الخطاب إلى قاداته في معركة اليرموك ، والخطاب وارد في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري قال : عن سماك قال : سمعنا عياضاً الأشعري قال :

شهدنا اليرموك وعلينا خمسة أمراء : أبو عبيدة من الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرجيل بن حسنة وخالد بن الوليد وعياض - وليس عياض هذا بالذى حدث سهاكاً - قال : قال عمر : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة : قال : فكتبنا إليه : إنه قد جاش إلينا الموت [يريد أن الأعداء تجمعوا عليهم وهو يخشى أن يقضوا على المسلمين] واستمددناه . فكتب إلينا : إنه جاءنى كتابكم تستمدوننى ، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً : الله عز وجل ! فاستنصروه . فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم ، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى ! قال : فقاتلناهم فهزمناهم) .

فانظر إلى هذا الرجل العظيم ثقته فى الله وإيمانه الذى لا يتزحزح بأنه سبحانه ناصر من ينصره ، وهو يقول لرجاله وهم يواجهون الموت فى معركة دامية : لا تستنصرونى أنا ، فإننى لا أملك لكم نصراً ، ولكن استنصروا الله سبحانه ، فهو العزيز ذو القوة ، وهو أعز نصراً وأحضر جنداً ، ثم يضرب لهم المثل الخالد : مثل انتصار رسول الله وأصحابه يوم بدر وقد كانوا أقل عدة من المسلمين يوم اليرموك ، ولكنهم كانوا أعزة بإيمانهم ، وهم عندما آمنوا بالله إيماناً صادقاً أعطاهم جل جلاله جانباً من عزته ، فإن العزة لله وحده ، وهو يهب منها ما يريد للمؤمنين الواثقين ، وتصبح العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ثم ينصح رجاله باستنصار الله سبحانه ويقول لهم : إنه لن يرسل إليهم أحداً فعليهم لقاء العدو دون أن يراجعوا عمر ، ففعلوا ونصرهم الله النصر المؤزر ، وإنما نصرهم الله بإيمانهم العظيم . وتلك هى الروح التى ينبغى أن يواجه المسلم بها مشاكله ، فهى مهما عظمت لا تثبت للإيمان الصادق ، وهذا هو الذى ينقصنا اليوم ، فنحن اليوم نقف عاجزين أمام المشاكل ، لأن قلوبنا فى الحقيقة خالية من الإيمان الحقيقى .

وفى خطاب آخر من عمر إلى سعد بن أبى وقاص يقول : (إني قد ألقى

في روعى أنكم إذا لقيتم العدو هزمتوه ، فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه .
فإن لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان ، أو قرفه بإشارة أو لسان كان
لا يدرى الأعجمى ما كلمه به ، وكان عندهم أماناً ، فأجروا ذلك مجرى الأمان .
وإياكم والضحك . العرفاء الوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية . وإن الخطأ بالغدر
الهلكة ، وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم وإقبال ربحهم . واعلموا أنى
أحذركم أن تكونوا شيئاً على المسلمين وسبباً لتوهينهم .

وهذا الخطاب القصير من عمر بن الخطاب إلى قائده سعد بن أبي وقاص
يضم من جلائل الفضائل الإسلامية التي تميز بها هذا الرجل العظيم وجيله ما هو
جدير منا بأن نفضله تفصيلاً ، فإننى لا أتى بهذه الأمثلة رغبة منى في مجرد
التمدح بالماضى كما يفعل الكثيرون منا ، وإنما أنا أريد منك أن تقف منه على
جوانب القوة والعزة التي يودعها الإسلام في قلوب المؤمنين الصادقين به ، وإليك
تفصيل الحكمة العمرية التي ضمنها هذا الرجل في خطابه قائلاً لسعد : إنه
يخس إحساساً عميقاً بأنهم إذا لقوا العدو هزموه . ولهذا فهو يوافقهم بنصائحه
التي ينبغي أن يسيروا عليها بعد النصر حتى يستمروا منصورين إن شاء الله .

فعليهم ألا يشكوا أبداً في أن الله ناصرهم ، وبدلاً من الشك فإن عليهم أن
يملثوا قلوبهم بتقوى الله . والتقوى هنا ليس معناها التقية أى الخوف من الله .
فإن المؤمن الحق يحب الله ، وهو عندما يقول إنه يخافه يريد أن يقول إنه يحبه ،
فكان عمر يقول لهم : إن خير ما يفعلونه هو أن تمتلىء قلوبهم بمحبة الله فيؤتيهم
سبحانه النصر والعزة .

وعمر يعلم أن المسلمين بعد أن يكسروا قوة الفرس ويبددوا جيوشهم ،
تفتح البلاد أمامهم ويصبح العجم من أهل العراق وفارس وجهاً لوجه مع
المسلمين ، وهؤلاء الأعاجم خضعوا لطواغيت الفرس سيسارعون بإعلان

طاعتهم للمسلمين أملاً في أن يجدوا العدل عندهم . ولكن أولئك الناس لا يعرفون العربية ، ولا العرب يعرفون العجمية ، ولهذا فإن تفاهم العرب مع الأعاجم سيكون بالإشارة ، وستصدر عن أولئك الناس إشارات باليد ، أو ستصدر عنهم كلمات معناها أنهم يريدون الأمان مع العرب ، فعلى العرب أن يعتبروا أى إشارة تصدر من أولئك الناس ، ومعظمهم فلاحون في القرى ، طلباً للأمان ، وواجب العرب أن يؤمنوهم في الحال .

ثم يحذر عمر المسلمين من الضحك والسخرية بالناس ، فإن أولئك الناس عانوا من ظلم حكام الفرس الكثير ، ولهذا فإن الفزع سيصيب الكثيرين منهم ، فتصدر عنهم أعمال فيها بعض ما يضحك ، وحذار من الضحك في أمثال هذه المواقف ، فإن معناه أن العرب يستخفون بالناس ، وهذا الاستخفاف بالضعفاء الخائفين ليس من أخلاق المسلمين ، ولهذا فإن عليهم احترام أولئك الناس وإقناعهم بالتصرف الحسن الكريم . إنهم يمثلون الإسلام ، وهو جامع فضائل الإنسانية ، وفيه عز لكل من دخل فيه .

ثم يأمر عمر المسلمين بالوفاء ، لأن الوفاء فضيلة إسلامية وإنسانية ، والمسلم الصادق لا يمكن إلا أن يكون وفياً .

وحتى لو كان الوفاء خطأ ، وتبين بعد ذلك أن أولئك الناس الذين وفي لهم كانوا مخادعين ، فإن وفاء المسلمين بعهودهم فيه بقاؤهم مهما كانت النتائج .

وإذا أخطأ المسلمون وغدروا كان في ذلك هلاكهم ، والغدر ضعف غير لائق بالمسلمين ، وفيه ضعفهم وقوة عدوهم .

وإذا غدر المسلمون بالناس انهزموا بعد ذلك ، وذهبت ريحهم ، وانتصر عليهم الأعداء وأقبلت ريح أولئك الأعداء .

ثم يحذر المسلمين من مغبة الغدر والخيانة ، ويرجوهم ألا يكونوا عاراً على

أمة الإسلام وسبباً من أسباب ضعفها .

فانظر والله إلى هذا العقل العمري العظيم الذى أعزه الله بالإيمان ، وفاض قلبه بالعزة ، حتى ليبلغ من روح الجد عند هذا الرجل أن يقول للمسلمين إنهم إذا لم يكونوا صادقين معترزين بدينهم متمسكين بفضائله ، ذهب أمرهم وغلبهم غير المسلمين .

وقد تحدثت فى بعض فصول هذا الكتاب عن الإسلام والعلم وقلت : إن المسلم الحق لا يصح أبداً أن يكون جاهلاً ، فإن القرآن علم ، والإسلام علم ، والعلم هو قوة الإسلام الكبرى ، وسأتيك الآن بخطاب من عمر بن الخطاب تتبين منه حرصه على العلم ، وهو فى هذا الخطاب لا يطلب أى علم ، بل يريد العلم الدقيق المفصل حتى يتصرف على ضوء هذا العلم .

كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص يقول : أما بعد . . فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والقوة والحسبة ، ومن غفل عنهما فليحدثهما (أى أن المسلم إذا أحس أنه غفل عن الموعظة والقوة واحتساب أعماله كلها فى سبيل الله فليذكر نفسه بذلك وليعد إلى الإيمان السليم) والصبر الصبر ! فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، والحذر الحذر . . على ما أنت عليه وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية وأكثروا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . واكتب إلى أين بلغ جمعهم ؟ ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؟ فإنه قد متعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بها هجمتهم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصنف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية ، وخف الله وارجه ولا تدل بشيء ، واعلم أن الله وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر (أى للإسلام) بها لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم .

فعمر هنا يعتمد في تصرفه على خصلتين إسلاميتين أساسيتين : الإيمان الكامل بالله سبحانه ، ثم بالعلم ، وهو هنا لا يطلب من سعد بن أبي وقاص أى علم ، بل العلم الكامل بالجبهة وما فيها ، فهو يطلب إلى سعد أن يصف له البلاد التى يحارب فيها وصفاً بالغ الدقة ، صفة كأنه ينظر إليها ، ويجعله من أمرهم على الجلية ، وهو هنا يطلب تقريراً مفصلاً يتصرف على ضوئه ، وعمر هنا يتحدث بلسان رجل من أبناء عصرنا وهو عصر العلم ، وهو يعلم أن النجاح فى الحياة لا يكون إلا بالجد البالغ والعلم الدقيق ليكون التصرف على أساس من العلم ، وهو يحذر المسلمين فى آخر خطابه ألا يتخلوا عن الإيمان الصادق الكامل ، لأنهم إذا فعلوا ذلك انصرف عنهم الله سبحانه ، ونظر إلى قوم غيرهم .

ونحن اليوم نعيش فى عصر الإيمان والعلم ، ولا يقعن فى بالك قط أن الأمر القوية السائدة فى عصرنا غير مؤمنة ، إنهم يؤمنون بأنفسهم وبما يعلمون ، والروس الذين نقول إنهم لا يؤمنون بالله ، يؤمنون بأشياء ثلاث لا شك عندهم فى أنها أساس قوتهم ومصدر عزهم وسبب المكانة الرفيعة التى يتمتعون بها فى عصرنا .

فهم يؤمنون بروسيا وطنهم إيماناً لا يصدق : وأمة الروس كلها مستعدة للموت فى سبيل شبر واحد من أرضهم ، ومساحة روسيا الشاسعة محاطة فى كل جانب بالجيوش والأسلحة والحصون والجنود الذين يقفون وراء الحدود جادين كل الجدد ، وفى أى ساعة من ساعات الليل والنهار مررت بحدود روسيا رأيت الجنود من ورائها على الأهبة ، وقد حدث من ثلاث سنوات أن طائرة من كوريا أخطأت واجتازت المجال الجوى الروسى ، فأسقطت فى الحال دون رحمة .

وقد رأيت فى لندن فيلماً تسجيلياً عن روسيا صوروا فيه الحدود وما وراءها

من الجيوش والجتود والأسلحة ، وما يدلك على أن هؤلاء الناس يأخذون الحياة بجد لا نعرفه نحن . وهم يحدثوننا بأن الروس يعيشون في ضنك في بلادهم ، وهذا غير صحيح .

فكل الروس فخورون اليوم بالقوة التى وصلت إليها بلادهم ، وأنت ترى شبابهم فى ملاعب الرياضة يتهاككون فى الفوز بالمراتب الأولى فى كل لعبة ، وهم يصلون إلى الميداليات الذهبية والفضية بصورة تستوقف النظر ، بينما العالم العربى كله لا يفوز إلا بأشياء لا تذكر ، وقد دعونا فى روسيا إلى ناد رياضى يتدرب فيه الشبان ، فتعجبنا من الجدية والإخلاص والتفانى ، وسألنا إن كان أولئك الشبان - ما بين بنين وبغات - يعفون من شىء من مطالب الدراسة فى مقابل هذه الجهود التى يبذلونها فى التدريبات الرياضية ، فعلمنا أن أولئك الرياضيين يقومون بدراستهم قياماً كاملاً لا يعفون من شىء منها ، وأن الذى يدفعهم إلى هذا الاجتهاد هو حبهم لوطنهم الروسى .

والامر الثانى الذى يؤمنون به هو العلم : فإن المدارس والجامعات والمعاهد الفنية والتكنولوجية فى روسيا تقوم بعملها على الوجه الأكمل ، وهم لا يدللون أولادهم أو شبابهم على النحو غير المقبول الذى نعمله نحن ، فنحن نفضل أولادنا على أوطاننا ، أما هناك فإن الوطن والعلم أفضل من الأولاد ، وليس عندهم سقوط ولا ملاحق ، وإنما يفرغ الولد من المدرسة الابتدائية ، ويتجه بعد ذلك إلى المرحلة الوسطى ، التى تقابل الإعدادية عندنا ، وهناك يوضع تحت الاختبار ، فإذا استطاع أن يسير فى سنوات المرحلة الوسطى كان بها وسمحوا له بدخول الثانوية ، وإلا فإنهم من تلقاء أنفسهم يحولونه إلى معهد صناعى أو زراعى ، وبعضهم ينقل إلى مراكز تدريب فنية ، فيتدرب على نوع من الأعمال والدراسات الفنية فى الزراعة أو الصناعة ، والمزارع هناك كلها متطورة تعمل بالآلات ، والأولاد الذين يعجزون عن السير فى الدراسة الوسطى أو

الإعدادية ، يتدربون على أعمال الزراعة والرى وتسير الآلات الزراعية ، وذلك التوجيه لا يضايقهم فى شىء ، فإنهم هناك يريدون أن يعملوا فى الميدان المناسب للمكاثم ، فهناك يشعرون بالراحة والاطمئنان ، ولا فرق عندهم بين عامل وطالب ، وكلهم يعرفون ذلك ويعملون على أساسه ، بل إن شباب المزارعين فى القرى والمزارع أحسن حالاً من طلاب المدارس ، والفروق الاجتماعية موجودة ولكن أهميتها قليلة ، والعمال فى المزارع يتدربون ويمجدون الطعام بين أيديهم ، ثم إنهم لا يمجدون صعوبات فى العثور على المساكن ، إنهم يعملون فى جد خالص ، ولا يتفقون وقتهم فيما لا يغنى ، إنهم يعرفون أن الشىء الوحيد الذى ينفع فى هذه الدنيا هو العمل النافع لهم ولغيرهم ، من هنا هم يشعرون أنهم أعزة ، وأنهم أقوياء .

والأمر الثالث الذى يؤمنون به هو العمل النافع لوطنهم :

إننى لم أضرب هذا المثل لأقول إنهم أحسن أو أكثر نجاحاً منا أو من غيرنا إن الذى أريد أن أقوله أنهم يعرفون كيف يعيشون ، وهذا هو الذى أطالب أولادنا به : أن يتعلموا كيف يعيشون بالعمل الشريف ، لأن الطريقة التى نعيش بها لا تغنى ولا تنفع ولا تعيننا على الوصول بالإسلام إلى المكان الذى يستحقه ، لقد أرسل الله إلينا محمداً ﷺ بالإسلام لكى نغنى ونقوى ، فقد أودع الله فيه - كما رأيت - كل عناصر الخير اللازمة للإنسان ، وأجبالنا الأولى وصلت بالإسلام إلى أعز مكان وصل إليه قبلهم بشر ، فكيف هبطنا إلى الدرك السحيق الذى نحن فيه اليوم ؟

وصلنا إلى هذا الدرك لأننا أهملنا العمل الصالح ، والعمل الصالح يتضمن العبادات التى هى الخيط الممدود بيننا وبين الخالق سبحانه ، وتطبيق الشريعة - وهى قانون الله للبشر - والسعى للرزق الحلال أو التعامل فى المال

بالأخلاقيات الإسلامية . . لا ربا ولا استغلال ولا إسراف ولا تقتير ، وتقديم المال إلى الفقير المحتاج دون نظر إلى جزاء إلا من الله سبحانه ، وبعد ذلك كله علينا - نحن المسلمين - أن نتعلم العمل معاً ، فإننا فرديون أنانيون لا يحب الواحد منا إلا نفسه ، ولا ينفق إلا على أهله ، ونحن لا نعيش في بيوتنا عيشة فاضلة جماعية : الرجل يحب امرأته ويحترمها ويعاملها بالفضل والعدل والإنصاف - و الأب يربي أولاده على العزة والكرامة وحب العمل واحترام النفس والغير والتعاون مع الآخرين .

ولأننا فرديون أنانيون فقد استغلنا الأقوياء وسادونا وظلمونا ونهبونا ، ولأنهم نهبونا فقد افتقرنا وتعودنا الفقر وعشنا به وعليه ، ولم نعد نخجل منه ، ولا عيب في أن يولد الإنسان فقيراً ، ولكن العيب في أن يموت فقيراً دون أن يصيبه مرض - مثلاً - يقعد به عن العمل . والله خلق الدنيا للعاملين ، وبث فيها الخيرات للمجتهدين ، ومن عجب أن أهل الأديان الأخرى كلها عرفوا أن العمل الجيد المتقن هو طريق الخير والفلاح في هذه الدنيا ، فدرسوا علوم الحياة التي أمرنا الله نحن المسلمين بدراستها فلم ندرسها ، وخاضوا معارك الحياة غير هيايين .

وانظر إلى الخريطة ترى أن المسلمين لا يسودون إلا جزءاً ضئيلاً من هذه الأرض . لا نسبة إطلاقاً بينهم وبين الأنجلوسكسون - وهم الإنجليز والأمريكيون - أو الروس واليابانيين أو الألمان والفرنسيين ، وهذا والله عار ، لأن القرآن يقول إن العزة لله جميعاً ولرسوله وللمؤمنين ، فأين العزة أيها المسلمون ؟

إن الإنسان إذا قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، دخل عالماً واسعاً من الحضارة والرقى ، لأن الإسلام يفتح الباب بينك وبين رب العزة ، ورب العزة بيده مفاتيح الرزق والخير ، فاذكر هذا ولا تنسه أبداً ، فإن الإسلام هو طريقك المنير للخير والكسب وسعادة الدارين ، واقرأ سيرة المصطفى ﷺ

تؤكد من ذلك .

لقد قلت في هذه الدراسة الكثير من تفصيل الجوانب الحضارية للإسلام عقيدة وشريعة ومكارم أخلاق ، وفيما قلت كفاية لمن آمن وألقى السمع وهو شهيد ، ومن لم ينفع معه هذا القدر من الكلام لم ينفع معه أى كلام ، فإن أبا بكر الصديق أصبح واحداً من أعظم بناء التاريخ بالإيمان والعلم والعمل ، وليس هذا بالعسير على أى مسلم يريد أن يسير فى طريق الخير ويصل إلى ما يشاء الله فى الخير ، والله سبحانه معك فى كل طريق خير ، فاختر لنفسك ما تريد .



الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
الآية الأولى : وهى الآية ٣٠ وما بعدها من سورة البقرة	٧
الآية الثانية : وهى الآية ٩ من سورة الحجر	١٩
الآية الثالثة : وهى الآية ٢٢ من سورة الحشر	٣١
الآية الرابعة : وهى الآية ٤٥ وما بعدها من سورة الأحزاب	٤٣
الآية الخامسة : وهى الآية ٣٦ من سورة البقرة	٥٥
الآية السادسة : وهى الآية ١٠٢ وما بعدها من سورة آل عمران	٦٧
الآية السابعة : وهى الآية ٦٤ من سورة آل عمران	٧٩
الآية الثامنة : وهى الآية ٣١ من سورة إبراهيم	٩١
الآية التاسعة : وهى الآية ١٠٣ من سورة التوبة	١٠٣
الآية العاشرة : وهى الآية ١٨٣ وما بعدها من سورة البقرة	١١٧

- الآية الحادية عشرة : وهى الآية ٣٧ من سورة إبراهيم ١٢٩
- الآية الثانية عشرة : وهى الآية ١٠ وما بعدها من سورة الصف ١٤٣
- الآية الثالثة عشرة : وهى الآية ١٠٢ وما بعدها من سورة آل عمران ١٥٧
- الآية الرابعة عشرة : وهى الآية ٣١ وما بعدها من سورة ق ١٧١
- الآية الخامسة عشرة : وهى الآية ٤ من سورة الرعد ١٨٣
- الآية السادسة عشرة : وهى الآية ٣٣ وما بعدها من سورة يس ١٩٧
- الآية السابعة عشرة : وهى الآية ٧٦ من سورة النحل ٢١١
- الآية الثامنة عشرة : وهى الآية ٢١ من سورة الروم ٢٢٥
- الآية التاسعة عشرة : وهى الآية ٩ من سورة الحشر ٢٣٩
- الآية العشرين : وهى الآية ١٠ من سورة فاطر ٢٥١
- الفهرس ٢٦٥

رقم الإيداع : ٢٠٠٢ / ١٣١٠٦

I. S. B. N. 977 - 01 - 7940 - X